أعلام العرب

٣

المعتمد بن عبّاد

بقلم
علي أدهم

وزارة الثقافة
والإرشاد القومي
إدارة الثقافة

المعتمد بن عبّاد

أعلام العرب

٢

المعتمد بن عباد

بقلم
على أدهم

وزارة الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي (الفجالة)

تليفون ٩٠٨٩٢٠ — ٩٠٥١٤٧

مقدمة

فى أصيل القرن الرابع الهجرى انتهت السيطرة التى فرضها الرجل الفذ العجيب الشأن ، المنصور بن أبى عامر ، على الخلافة الأموية بالأندلس بمصرع ابنه عبد الرحمن ، الشاب الطائش ، القليل البصر بالعواقب . فقد أقدم على ما أحجم عنه أبوه لعظيم ، وحمل الخليفة المستضعف هشاما الثانى على أن يتنازل له عن ولاية العهد ، وأفضى ذلك الى الثورة به ، وقتله ، وسقوط الأسرة العامرية ، ولكن بقيت الخلافة الأموية بعد ذلك مهيضة الجناح ، مسلوبة القوة ، ضائعة الهيبة ، وكان ذلك مدعاة لاثارة المطامع ، وانطلاق النزعات الجامحة ، وتحريك الأحقاد والحزازات ، وتهيئة الفرصة لذوى الطبائع الطموحة ، والنفوس المتلهفة على طلب المجد والقوة والسلطان .. فتكاثرت الأحداث الجليلة ، وتلاحقت الفتن المبيرة ، وتوالى على الخلافة الأموية فى خلال الربع الأول من القرن الخامس الهجرى طائفة من الخلفاء المهازيل ، كان أكثرهم من الرجال الذين تنقصهم الحكمة ، وسداد الرأى ، وحسن السياسة ، والقدرة على تعمق فهم الموقف الذى واجههم ، ومعالجته بالطريقة الملائمة لطبيعة مشكلاته . وكان من هؤلاء الخلفاء الفاتك المغامر الذى لا يصلح للملك ، والجاهل الساقط الهمة ، الفائل الرأى ، العامى النفس ،

والقليل التجربة والحنكة ، الضعيف الشخصية ، الواهن العزم .
ولم يتح للخلافة الأموية الأندلسية فى تلك الظروف العصيبة ، والأزمات المستحكمة ، رجل من طراز عبد الرحمن الداخل أو عبد الرحمن الناصر ليرأب الصدع ، ويجمع الشمل المبدد ، ويقيل الخلافة عثرتها ، وينهض بها من كبوتها ، ويستدرك أخطاء من سبقوه فيرد عليها سلطانها الضائع ، ومجدها السالف .
وظهرت فى ذلك الوقت بالأندلس أسرة تنتمى الى العلويين ، وهى أسرة بنى حمّود ، وقد تقلد بعض أفرادها الخلافة ، ولكن لم يظهر فيهم كذلك رجل يرتفع الى مستوى الموقف ، ويقوى على تناول مشكلاته ، وتفريج أزماته . وجرب أهل قرطبة حكم بنى حمود ، ولكن هذه الأسرة كانت توالى البربر ، وتعتمد عليهم ، فسئم أهل قرطبة حكمها ، وأجمعوا أمرهم على اعطاء بقايا الأمويين الفرصة الأخيرة ، فردوا اليهم الخلافة ، فعجزوا عن حسم الفوضى وضبط الأمور . وفى شهر ذى القعدة سنة ٤٢٢ خلع الخليفة هشام المعتد آخر الخلفاء الأمويين بالأندلس ، وهو عاكف على شرابه ونسائه ، وطرد من قرطبة ، واجتمع رأى الناس جميعا على التخلص جملة من بنى أمية ، وابطال رسم الخلافة ، وابتدأ بذلك العهد المعروف فى تاريخ الأندلس باسم عهد ملوك الطوائف ، وقد امتد هذا العهد حتى سنة ٤٨٤ هجرية حينما قضى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين على حكم ملوك الطوائف وبسط سلطان المرابطين على الأندلس .

والواقع أن نجاح أى حاكم سياسى قدير فى الأندلس كان يتوقف على قدرته وتوفيقه فى الملاءمة بين العناصر الهامة التى كان يتكون منهـا غالبية أهل الأندلس ، وهى العرب والبربر والصقالبة والمستعربون من نصارى اسبانيا ، ولكن خلفاء الفترة الأخيرة من عهد الخلافة كانوا أعجز من أن يسـتطيعوا ذلك ، فبعضهم كان يعتمـد على تأييـد البربر ، ويثير بذلك حفيظة العرب والصقالبة ، وبعضهم الآخر كان يحاول أن يأخذ جانب الأرستقراطية العربيـة ويتعـرض بذلك لنقمة البربر وتآمرهم عليه ، ولم يكن التوفيق بين هذه العناصر المختلفة المتنافسة من الأمور الهينة ، وكان الموقف يتطلب سـياسيا عبقريا من طراز نادر لكى يستطيع التوفيق بين هذه العناصر وتسخيرها لتحقيق أهدافه وبلوغ غاياته .

ولما انقطعت الدولة الأموية ، وانتثر سلك الخلافة ، وقامت الطوائف بعد انقراض الخلائف ، اشـتد التنافس بين العناصر المختلفة ، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالى الصقالبة بالجهات المختلفة ، فاسـتأثر البربر بالنفوذ فى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة الاسبانية ، وسـاد الصقالبة فى القسم الشرقى ، وذهب الجزء البـاقى فى الوسط والغرب الى أيدى بعض الأسر القديمة التى سلمت من ضربات الناصر والمنصور بن أبى عامر وبعض الأسر الأخرى الطريفة المجد المحدثة النعمة ، فكان هناك بنو حمود الأدارسـة فى مالقة والجزيرة الخضراء ، وبنو زيرى البربر فى غرناطة ، وبنو هود فى سَرَقُسْطة ، وبنو

ذي النــون فى طليطلة ، وبنو الأفطس فى بَطَلْيَوس ، وبنو جهور فى قرطبة ، وبنو عبــاد ملوك اشبيلية ، وأشـــهر ملوك الطوائف قاطبــة وأسيرهم ذكرا وألمعهم تاريخا هو محمــد أبو القاسم الذى اتخذ لنفسه لقب المعتمد على الله تشبها بخلفاء بنى العباس .

وكان المعتمــد شـــاعرا أصـــيلا ، مرهف الحس ، مشرق الديباجة ، لبس التـــاج ، واقتعد ذروة الملك ، وحفلت كتب الأدب والتاريخ والسير بلـمَع أخباره وأحوال دولته ، وشعره والمأساة التى ختمت بها حياته ، وقد كان الشعراء سمار ندوته ، وأركان دولته ، ورجال حاشيته المقربين ، وأهل وده الأدنين ، وقد فتن به مؤرخو الأندلس حتى قال فيـــه المراكشى صاحب المعجب [1] « وفى الجملة فلا أعلم خصلة تحمد فى رجل الا وقد وهبه الله منها أوفر قسم ، وضرب له فيها بأوفى ســـهم ، واذا عدت حسنات الأندلس من لدن فتحها الى هذا الوقت فالمعتمد هذا أحدها بل أكبرها » .

وقد لوحظ أن أكثر الأشعار التى تجود بها قريحة الملوك ــ اذا استثنينا الملكين الشاعرين الكبيرين : الملك الضليل امرأ القيس والخليفة الذى لم يمكث فى الخلافة ســـوى يوم واحد وأدركته ــ كما يقــولون ــ حرفة الأدب فخلع وقتـــل وهو

---

(١) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب صـــفحة ١٠١ (طبع مطبعة الاســتقامة بالقاهرة وضبط وتصحيح الأستاذين محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى) .

عبد الله بن المعتز ــ أقول لوحظ أنها ليست من النسق العالى في الشعر ، ويعوزها فى الأعم الأغلب احكام السبك وشدة الأسر . وللملوك عذرهم ، فقد كان عندهم من الأعباء الجسام ، وسياسة الملك ، وتدبير أمور الرعية ، ما يصدهم عن التفرغ لاحكام القوافى ، وتجويد الشعر ، وقد بعث ذلك الشاعر الأديب[1] أبا على البصير على أن يقول فى مدحه الفتح بن خاقان، وزير الخليفة المتوكل :

سمعنا بأشعار الملوك فكلها
اذا عض متنيه الثقاف تأودا
سوى مارأينا لامرىء القيس اننا
نراه اذا لم يشعر الفتح أوحدا

ولكنى أرى أن شعر المعتمد يسمو على ذلك ، فهو لا يتأود اذا غمزه الثقاف أو عض متنيه ، بل يظل سويا قويا ، ممتعا مؤثرا ، يمتاز بالعذوبة والمائية ، وصدق التجربة ورفاهة الحس ، وقد وصف لنا فيه المعتمد صورا شتى من حياته فى نعيمها وبؤسها ، ولو ضاعت أخبار المعتمد ونسيت سيرته وبقى ديوان شعره لكان الى حد كبير كافيا فى الدلالة على شخصيته والاعراب عن سماحة نفسه ، وسجاحة خلقه ، وفرط كرمه وأريحيته ، وحبه للجمال ، ورهافة حسه ، وأسلوب حياته ، ونمط تفكيره ، فهو سجل أمين للكثير من أخباره وحوادث

---

(١) الجزء الأول من زهر الآداب للحصرى صفحة ٣٨٢ (طبع دار احياء الكتب العربية وتحقيق الأستاذ البجاوى) .

حياته ، وترجمة ذاتية ممتازة ، بارعة التصوير ، بليغة الأداء ، ونستطيع أن تتبين من خلاله أن الرجل كان ثمرة ثقافة ناضجة ، وسليل حضارة متألقة .

ولم يكن العصر الذى عاش فيه المعتمد من العصور السعيدة فى التاريخ ، وانما كان عصراً حافلا بالأحداث الفاجعة والنكبات الصادعة ، وكانت الدول والدويلات الاسلامية فى الأندلس معرضة للأخطار الماحقة ، وكان أمراء هذا العصر من الطراز الثائر على التقاليد ، الخارج على كل سلطة ، الحريص على اثبات شخصيته ، وفرض ارادته ، وتحقيق مطامعه ، فلا تصده عقيدة ، ولا يقف فى طريقه مبدأ . وكان نقض المواثيق المبرمة ، ونكث العهود المعطاة من المسائل العادية المألوفة فى ذلك العهد ، وقد روى لنا ابن بسام فى الذخيرة قصة نقلها عن المؤرخ الأندلسى الكبير ابن حيان عن اسماعيل بن ذى النون صاحب طليطلة وأحد ملوك الطوائف البارزين ، فقد قال ابن حيان وهو يتحدث عن اسماعيل المذكور : [1] « ومن أشهر حكاياته فى ذلك ما أخبر عنه أبو العباس السكّرى الاسكندرانى — رجل ممتع الحديث طيب المجالسة — وحضر مجلس ابن حمود بمالقة ، فسأله اسماعيل بن ذى النون عن مجلسه معه ، فأثنى عليه ، فقال له اسماعيل « أتثنى على أدعياء ؟ فعل الله بهم وصنع ! » فبهت الاسكندرانى ، وقال : « معذرة اليك أيّدك

(1) القسم الرابع — المجلد الأول من كتاب الذخيرة لابن بسام صفحة ١١١ .

الله ، فانى جهلت رأيك فى هذا الرجل مع أنى ألزمت نفسى ألا أذم ذا سلطان البتة ، وأنت غير منازع فى أئمتك المروانية ، وهم أهل ذلك منك ، أقاديم الملوك ، وذوو العـدل والسياسة » . ومضى الاسـكندرانى فى اطـرائهم ظنا منه أنه يسره ، اذ كان يقول بدعوتهم فى ذلك الوقت ، فقطع عليه ابن ذى النون بأسوأ من قطعه على الهاشميين ، وانحنى على ذم بنى أمية فلم يبق ، ووصل كلامه بأن قال : « توارثوا هذه الامارة مخرقة وضعتها قريش لاستعباد الناس ، والناس لأب وأم ، والفخار باطل ، أحقهم بالملك من استقل به ، والله ما أولى غير نفسى ، ولا أقوم الا بسلطانى ، ولو نازعنيه فلان وفلان ـ وذكر السلف الصالح الذين كرّم الله ذكرهم ـ لضربتهم دونه بسيفى ما استمسك بيدى » فقام عنه الاسكندرانى مبهوتا وأفشاه فى غير أرضه ، وأخباره فى مثـل ذلك كثيرة ، وهو هنا لا يتحدث عن توفر شروط الامامة وانما يجعل من حق كل فرد المطالبة بها اذا واتته الظروف وتوفرت له القوة .

وهكذا كان من سمات هذا العصر أن كل أمير كان يجعل ارادته القانون الذى يرجع اليه ، وكان كل أمير يتربص بجيرانه من الأمراء الدوائر ، ويتحين الفرص للانقضاض عليهم وازالة ملكهم أو لاقتطاع جانب من أملاكهم وضمها الى أملاكه ، ولا يرى بأسا فى ذلك من الالتجاء الى الخديعة والدس ومعاقدة العدو الرابض للايقاع بالأمراء جميعهم .

وأكثر أمراء هذا العصر كانت تلهيهم توافه الأمور وصغيراتها

عن الأمـــور الجسام وتصرفهم أهواؤهم ونزواتهم عن مراقبة الحوادث ، والتأهب للقائها ، ومحاولة علاج الموقف الضنك ، واصلاح الأحوال السيئة ، والتعاون فى ذلك معجيرانه وأضرابه من الملوك والأمراء . وقد ذكر لنا ابن بسام فى الذخيرة القصة التالية عن اسماعيل بن ذى النون السابق ذكره ، وقد رواها عنه وزيره أبو المظفر مثَنّى ، وقد رأيت اثباتهـــا هنا لوصف الحالة النفسية التى كانت غالبة على هؤلاء الملوك والأمراء ، ولم يكن ابن ذى النون أسوأهم حالا ، وانما كان مثلهم فى التهاون والخلاف وقصر النظر ، قال ابن بسام:(١) «أخبرت عن أبى المظفر ابن المثنى ــ وكان قد اتفق أثناء اشتغال المأمون ببناء مجلسه الكبير فى طليطلة أن تأخر الصانع الذى تولى رصف بدائعه ، واحكام مصانعه ، عن انجاز البناء فى الميعاد المحدد قبل اطلال العيد ــ وحدث فى هذه المدة أن ضربت خيل الطاغية فرذلند على بلاد المظفر بن الأفطس ، ووطئتها وطأة محت رســـومها ، واستباحت حريمها ، واجتاحت حديثها وقديمها ، وأنست ما كان قبلها من جب الذروة ، والصداع المَرْوة ، وأيأست من البقاء ، وآذنت بشمول البلاء ، وكان الوزير ابن المثنى يومئذ بمنزله بين الوجوم والاطراق ، وعلى نهاية الحذر والاشفاق ، اذ وردت رسل المأمون عنه تترى ، وهجمت عليه زمرا بعـــد أخرى ، فدخل عليه فوجـــده قد استنشاط حنقا حتى كاد يتميز شققا ،

---

(١) صفحة ١١٤ من كتاب الذخيرة لابن بسام (القسم الرابع ــ المجلد الاول) .

فطن أن ذلك الضجر لما كان ورد به الخبر من ضرب الخيل على بلد المظفر ، واخفار الذمم ، وزلة القدم ، وانتهاك الحرم ، فطفق ابن المثنى يبسطه ويقبضه ، تارة يسليه وتارة يحرضه ، وطورا يقول له فيك الخَلَف مما فات ، ومرة يقول له قد آن لك أن تنكر على الطاغية هذا الافتيات ، فما فهم منحى ابن مثنى منه ، وأعرض عنه ، وقال له ألا ترى هذا الصانع الفاعلى الضائع ــ يعنى عــريف بنيانه ــ صبرت له وأغضيت فما زاد الا تنغيصا للذتى ، واستخفافا بامرتى ، وتصغيرا لشأنى » . فأخذ الرجل يهــون عليه الأمر وخــرج لا يدرى أيعجب من اغترار ابن ذى النون وجهله أم من جرأة الصانع أم من اضطراره الى خدمة مثل هذا الأمير اللاهى ببناء قصره عن مراقبة أحــداث زمانه والتفكير فى مصيره ومصير جيرانه .

وفى ذلك العصر وقعت الحادثة التى هزت النفوس فى العالم الاسلامى هزا عنيفا ، وصوّحت الآمال ، وكادت تقضى عليها ، وهى سقوط طليطلة فى أيدى الاسبان ، وهى أول حاضرة كبيرة فى الأندلس يستولى عليها العــدو المتربص ، وقد أعقب ذلك وقوع معركة الزلاقة التى كان لانتصار مسلمى الأندلس فيها بمساعدة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتولى دوى عظيم فى العالم الاسلامى ، وكان للمعتمد فيها موقف مشرف أظهر فيه بطولة مأثورة .

ويعد المعتمد قطب الرحى فى أحــداث هذا العصر ، فقد اتسعت مملكته حتى شملت اشــبيلية وقرطبة قاعدة الخــلافة

القديمة والجزيرة الخضراء ومرسية ، ولكنه كان يؤدى الجزية مثل سائر ملوك شبه الجزيرة وأمرائها ، وكان المعتمد على فضله وسمو أدبه وعلو ثقافته وما أوتى من الأريحية والكرم والشجاعة لا يخلو من العيوب التى كانت فاشية فى عصره ، وقد كان لاسرافه فى الانفاق على ندمائه وشعرائه وتماديه فى طلب المتعة وقع سيىء فى نفوس رعيته أوسع المجال لكثير من القيل والقال ، وقد حاولت أن أوضح أعماله ومواقفه ، وأصف أدبه وعلاقته بشعرائه ، وسياسته وخططه ، وأعرض الجوانب المضيئة من حياته ، والجوانب المظلمة ، وكما نوهت بفضائله ومزاياه لم أغمض الطرف عن عيوبه وأخطائه وخطل سياسته فى بعض المواقف ، وواجب المؤرخ وكاتب السير فى رأيى أن يبذل جهده فى رسم الأضواء والظلال فى أمانة واخلاص ، وقد لا يستطيع التخلص من ذاتيته وأهوائه وميوله ووجهات نظره ومعاييره الخاصة ، ولكن هناك مع ذلك فارق كبير بين الحب الأعمى والحب البصير ، وما أحسب أن الانسان يستطيع أن يفهم أى شخصية جلّت أو هانت وسمت أو اتضعت الا بقليل أو كثير من الحب والعطف ، فان الكراهة الصماء تسد منافذ الفهم ، وتقيم بيننا وبين الفهم الصادق والتقدير الصحيح حجابا صفيقا وسدا منيعا .

والرجال الذين يصنعون التاريخ ويوجهون الحوادث يتناولون مادة كثيرة التفلت من اليد ، شديدة التمرد على الصانع ، فهى تشمل ارادات البشر وأهواءهم وميولهم

وشهواتهم ، ولا يمكن تشكيلها الا فى حدود النزعات الغالبة على العصر ، والاتجاهات السائدة فيه ، والذى يرفض مواجهة هذه النزعات والاتجاهات تكون محاولته عقيمة ويمنى بالاخفاق ، ولكن التوفيق فى هــذه المحاولة ليس من الأمور الهينة ، وفى بعض الأحيان تكون الظروف القاسية والأحوال العارضة فوق همم الرجال ومن وراء قدرتهم ، وقد كان الموقف فى أندلس القرن الخامس الاسلامية شديد التعقيد ، وقد حاول بنو عباد وعلى رأسهم المعتمد توحيد العناصر المتعادية ، والسيطرة على الفرق المتنازعة ، ولكنهم لم تســعفهم القوة اللازمة لذلك ، وكانت الظروف أقوى منهم ، وقد اســتطاع ذلك المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين لأنهم اعتمدوا على قوة من خارج بلاد الأندلس .

ولابد أن يكون الانسان جامد الحس فاتر العاطفة حتى لا يأسى لمأساة المعتمد ، ولا تهزه أشعاره الباكية ، وأنغامه المشجية، ويؤثر فيه ما ذاق من الهوان وتعرض له من ســوء المعاملة فى منفاه هو وزوجته وأولاده ، ولمــا كان الرجــل من أصحاب الأمزجة الفنية فقد استطاع أن يضفى على مأساته الجمال الفنى ، ويصورها فى شعر أخاذ يصف لنا لواعج نفسه ، وحرقة أساه ، وضــيقه بالقيود والكبول ، وقد لقى الرجل من نوازل المحن وخطوب الدهر وتقلب الأيام ما يكاد يسلكه فى عداد الشهداء ، وقد وفى له اخوانه الشعراء وواسوه فى منفاه فى عصر قل فيه

الوفاء ، ولم يكن حينذاك يملك لهم نفعا ولا ضرا مما يدل على قوة الأثر الذى تركه فى نفوسهم بره وكرمه وأريحيته ونبله .

واذا كان للمعتمد أخطاء وفيه عيوب فان له الى جانب ذلك مواقفه المشرقة وصنائعه الجليلة ، وقد كان له من الصفات الانسانية والمروءة والأريحية والمواهب الشعرية والملكات الفنية ما يستوجب التقدير ويستحق الاعجاب ، وأسرة بنى عباد فى اشبيلية تذكرنا بأسرة المديتشى فى فلورنسا بايطاليا وما لها من أياد على الفن وتشجيعها لرجاله . وكما كان النزاع بين الأسر الايطالية من أسباب تأخر الوحدة الايطالية فكذلك كان النزاع بين ملوك الطوائف وأمرائها فى الأندلس من أسباب ضياع استقلالها وتغلب الاسبان والبربر عليها .

وتاريخ هذه الفترة حافل بالعبر الصالحة ، والدلالات النافعة ، ويمكن أن نتبين منه أن الدول الاسلامية حينما كانت مجتمعة الشمل موحدة القصد كانت عزيزة الجانب ، مرهوبة السطوة ، يخطب ودها الأصدقاء ، ويتحاشى اثارتها الأعداء ، ولكن حينما تصدعت وحدتها ، وتفرق شملها ، واختلفت أهدافها ، وأضلت رجالها المطامع والشهوات ، فأسقطوا المفروضات ، واستباحوا المحرمات ، طمع فيها الطامعون ، وصارت حمى مستباحا ، ونهبا مقسما . ومن المأثور عن الفيلسوف الألمانى هيجل قوله المحزن : « الشىء الوحيد الذى نتعلمه من التاريخ أنه ليس هناك أحد يتعلم من التاريخ » . ولكن التاريخ مع ذلك يقدم لنا كنزا ثمينا من التجارب البشرية ،

ولست أشك فى أن الانسانية تسىء الى نفسها اذا أغفلت هذا الكنز ، ولم تعمل على الاستفادة منه ، والانتفاع بدروسه وعظاته وعبره ، ولم تكن مأساة المعتمد مقصورة على شخصه ، وانما كانت مأساة الأندلس الاسلامية برمتها ، وفى اليوم الذى سقطت فيه دولة بنى عباد ونفى المعتمد من الأندلس طويت صفحة أيامها السعيدة ، وختم عهدها الزاهر ، ولعل هذا هو سبب الشعور الخفى الذى جعل مؤرخى الأندلس وأدباءها وكتابها يحنون الى ذكرى المعتمد ، قال المقرى صاحب النفح معتذرا عن استكثاره من أخبار المعتمد (١) . « وقد جمح بنا القلم فى ترجمة المعتمد بن عباد بعض جموح ، وما ذاك الا لما علمنا أن نفوس الأدباء الى أخباره رحمه الله تعالى شديدة الطموح ، وقد جعل الله تعالى له كما قال ابن الأبّار فى « الحلة السيراء » رقة فى القلوب وخصوصا بالمغرب فان أخباره وأخبار الرميكية الى الآن متداولة بينهم ، وان فيها لأعظم عبرة » . وقال فى موضع آخر من كتابه (٢) « وأخبار المعتمد بن عباد وما رآه من الملك والعز فى كل حاضر وباد وما قاساه فى الأسر من الضيق والعسر وسوء العيش أمر عجيب ، يتعظ به العاقل الأريب ، وأما ما مدحته به الشعراء وأجوبته لهم فى حالى يسره وعسره ، وملكه وأسره ، وطيه ونشره ، وتجهمه وبشره ، فهو كثير وفى كتب التاريخ منه نظم ونثير » . ومن دواعى العطف

---

(١) الجزء السادس من نفح الطيب صفحة ١٩ .

(٢) الجزء السادس من نفح الطيب صفحة ١٠٥ .

عليه شعور متتبعى أخبـــاره وقراء سيرته وأشـــعاره بأنه كان يستحق معـــاملة أكرم من المعاملة التى عامله بها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وكان أهلا لمصير أحسن وأرحم من المصير الذى خبّأه له القدر وابتلاه به ادبار الحظ وتقلب الدهر ، وقد أكسبه المصير المحزن عطف الأجيال ، وجعل النـــاس تغتفر له أخطاءه وعيوبه التى كان لعصره أثر كبير فى استحداثها ، وتذكر محاسنه ومزاياه التى امتـــاز بها على معاصريه وجعلت التاريخ يحرص على ذكراه ، رحمه الله وغفر له .

سقوط الخلافة الأموية الأندلسية

كان سكان الأندلس مكونين من عناصر مختلفة ليس من اليسير ادماجها فى وحدة شاملة ، واخضاعها لنظام عام . وكانت طبيعة البلاد الجغرافية نفسها لاتساعد على ايجاد الوحدة وتيسير الخضوع للسلطة المركزية ، وذلك لأن شبه جزيرة أيبريا مكونة من أودية وهضبات وسلاسل جبال وأماكن منيعة يستطيع أن يلوذ بها الثائرون والخارجون على النظام ، وتجد الحكومة القائمة مصاعب جمة فى التغلب عليهم ، ولذلك كانت الحالة تقتضى على الدوام وجود حكومة مركزية قوية لكبح جماح الأحزاب المتنافرة ، والعصبيات المتنافسة ، والحد من صولة الأهواء المضلة ، والنزوات الخطرة . وقد أمضى الأمير عبد الرحمن الأول الملقب بالداخل حياته فى جهاد مستمر ، وحركة دائبة ، لاخماد الثورات ، والضرب على أيدى المخالفين والعصاة ، وظل الى النهاية لا تهمد له حركة ، ولا يهدأ له بال فى المحافظة على كيان الدولة ، والابقاء على وحدتها ، وقد كلفه ذلك اراقة الكثير من الدماء . وسار خلفاؤه على سنته ، وصادفت أحدهم وهو الخليفة عبد الرحمن الناصر ظروف محرجة قاسية وجدت من عزيمته الماضية وهمته العالية ندا لمقاومتها والتغلب عليها . فأخمد جمرة العصاة ، ورد على الدولة وحدتها ، وأعاد اليها هيبتها ، فلما خلفه ابنه

الحكم المستنصر سارت الأمور على ما يرام ، الا أن هذا الخليفة على رجاحته وفضله استهواه حب الولد ، وأفرط فيه ، فخالف الحزم فى توريثه الملك بعده ابنه الغلام الناشىء هشاما ، وقد مكن ذلك الحاجب المنصور بن أبى عامر من الاستيلاء على السلطة ، والاستبداد بالأمر ، ولا نزاع فى أن المنصور كان من أفذاذ الرجال ، وكبار الحكام الأندلسيين ، ولكنه فى سبيل تحقيق مطامعه والاستئثار بالسلطة هدم نفوذ الدولة الأموية فى الأندلس ، وأضاع هيبتها ، ومهد السبيل للطامعين فيها ، والخارجين عليها .

وقد خلفه ابنه عبد الملك المظفر ، وسار فى آثار أبيه ، وجرى على سننه ، ولم يكن من طراز أبيه المنصور ، ولكنه استطاع مع ذلك أن يحافظ على تراثه ، وأحسن السياسة ، فاجتمع الناس على حبه ، ولم يدهنوا فى طاعته ، وحكم عبدالملك ستة أعوام وبضعة أشهر ، قضى معظمها فى متابعة الغزو ، وكانت وفاته فى ١٦ صفر سنة ٣٩٩ ولم يكن قد جاوز الرابعة والثلاثين من عمره .

وخلفه أخوه عبد الرحمن ، وكان يلقب بشنجول ، وكانت أمه ابنة شانجة ملك ناقار ولما كان أشبه الناس بجده لأمه لذلك أطلق عليه هذا اللقب . وكان حينما تولى الحكم فى الخامسة والعشرين من عمره ، وكان هذا الشاب منحرف الأخلاق ، سيىء الخلال ، فاجرا مستهترا ، يقضى معظم وقته فى الشراب واللهو ، وقد اتبع خطة أبيه وأخيه فى الحجر على الخليفة المنكوب هشام

المؤيد ، ولكنه تطلع الى ما لم يقدم عليه أبوه ولا أخوه ، وهو وراثة العرش الأموى . فحمل الخليفة المستكين هشاما الثانى على أن يجعله ولى عهـده ، وأيده فى ذلك ــ وربما زيّنه له ــ قاضى الجماعة فى قرطبة أبو العباس بن ذكوان وكاتب الانشاء أبو حفص بن برد ، وقد حمل ذلك الشاعر المعاصر ابن أبى يزيد المصرى على هجوهما بهذين البيتين :

ان ابن ذكوان وابن برد قد ناقضا الدين عين عهد
وعاندا الحـق اذ أقـاما حفيد شـنجه ولى عهد

وقد أثار ذلك بطبيعة الحال غضب أفراد الأسرة الأموية . وأحقدهم عليـه ، وقد أفضى به سـوء سـياسته وقلة بصره بالعواقب الى القتـل ، وكان الذى ثار به أحـد أفراد الأسرة الأموية التى كبر عليهـا أن تخرج منها الخلافة ، وتنتقل الى العامريين ، وقد قاد هذه الثورة محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن الخليفة الناصر ، وقد خلع هذا الأمير الخليفة هشاما المؤيد من الحكم ، وتولى هو الخلافة ، ولقب نفسـه بالمهدى ، وقد استعان على ذلك بالبربر ، وكان البربر أنصار العامريين ، ولكن سـوء سياسة عبد الرحمن بن المنصـور جعلتهم يتخلون عنه ، ويؤيدون المهدى ، ولم يكن اختيار هذا الرجل للخلافة اختيارا موفقا ، فقد فطر منذ نشأته على الشر والمغامرة .

ولما دخل محمد بن هشام قصر الخلافة فى قرطبة يوم الأربعاء ١٧ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ بعث الى هشام المؤيد يعاتبه على

ايثار بنى عامر ، ويدعوه الى خلع نفسه ، فخاف هشام وبادر بالقبول ، وأعلن خلع نفسه .

وكان رؤساء البربر قد لحقوا بالمهدى لما رأوه من سوء تدبير عبد الرحمن بن المنصور ، ولكنه لم يحسن معاملتهم ، وأهان بعض رؤسائهم ، وكان أهل قرطبة يكرهون البربر ، فوقعت بعض الاعتداءات عليهم ، وانتهبت العامة دورهم ، ولما شكا اليه بعضهم ما أصابه اعتذر اليهم ، وقتل من اتهم من العامة فى أمرهم ، وهو مع ذلك مظهر لبغضهم ، فجاهر بسوء القول فيهم ، وبلغهم أنه يريد الفتك بهم ، وانتهى بهم الأمر بمبايعة رجل آخر من الأسرة الأموية ، وهو سليمان بن الحكم بن سليمان ابن عبد الرحمن الناصر . فنهض بهم الى الثغر واستجاش النصارى وأتى بهم الى باب قرطبة لمحاربة المهدى ، ودارت بين الفريقين معركة حامية ، فى سفح جبل قريب من قرطبة يعرف بجبل قنتش ، وأسفرت المعركة عن انتصار سليمان الذى لقب بالمستعين ، وقتل البربر عددا جما من أهل قرطبة بينهم عدد كبير من العلماء والأئمة ، وكان محمد المهدى قد أخفى هشاما المؤيد ، فلم يجد حيلة يدفع بها دعوى سليمان المستعين سوى اظهار الخليفة المخلوع هشاما المؤيد الذى كان قد زعم أنه مات ، وأجلسه فى مكان بارز فى شرفة القصر ، وأرسل الى البربر يخبرهم أن الخليفة هشاماً مازال على قيد الحياة ، وأنه هو الامام الشرعى ، ولكن البربر ظلوا على تأييدهم لسليمان المستعين ، وانتهى الصراع بين المهدى والمستعين بتغلب المستعين فى النهاية

ودخوله قرطبة بعد مقتل محمد المهدى فى شهر شوال سنة ٤٠٣ وبعد دخول البربر المدينة وفتكهم بأهلها فتكا ذريعا ، وارتكابهم أشنع ضروب السفك واحراقهم الدور واغتصابهم النساء والبنات وقتلهم الأطفال والشيوخ . ولما دخل سليمان المستعين قصر قرطبة استدعى هشاما المؤيد ، وعنفه على موقفه ، فاعتذر هذا الخليفة الشقى البائس بأنه مغلوب على أمره ، وهنا تختلف الروايات فى مصير هشام المؤيد ، فيقول البعض ان سليمان أخفاه حينا ثم قتله ، وفى رواية أخرى أنه فر من محبسه وقصد الى المرية حيث عاش فى بؤس وخمول ، ومن ذلك الحين تبدأ أسطورة هشام المؤيد وما صنع حولها من الأخبار المستغربة والروايات العجيبة .

ويقول المقرى عن المهدى(١) « ولقد كان قيامه مشئوما على الدين والدنيا ، فانه فاتح أبواب الفتنة بالأندلس ، وماحى معالمها ، حتى تفرقت الدولة ، وانتثر السلك ، وكثر الرؤساء ، وتطاول العدو اليها ، وأخذها شيئاً فشيئاً حتى محا اسم الاسلام منها أعادها الله تعالى » . وفى المهدى يقول أحد الشعراء المعاصرين له :

قد قام مهدينا ولكن	بملة الفسق والمجون
وشارك الناس فى حريم	لولاه ما زال بالمصون
من كان من قبل ذا أجمّا	فاليوم قدصار ذا قرون

---

(١) نفح الطيب الجزء الثانى صفحة ١١٢ .

وقد وقع خليفته فى الخطأ نفسه الذى أودى بعرشه . وأسفر عن قتله ، وهو العجز عن التوفيق بين العرب والبربر والصقالبة ، وقد أيد البربر سليمان ورفعوه الى العرش ، وأصبحوا أصحاب النفوذ فى الدولة ، وتولوا مناصب الحجابة والوزارة ، وتقلدوا البلاد الواسعة مثل باديس بن حَبُّوس فى غرناطة ، والبرزالى فى قرْمودة ، واليفرنى فى رندة ، وهرزون فى شريش ، واستأثر بنو دُمَّر بمنطقة شذونة ومورور ، وأقر سليمان منذر بن يحيى التجيبى على ولاية سرقسطة والثغر الأعلى ، وكان من قواد البربر الذين حاربوا من أجله رجلان من آل حمود الأدارسة ، وهى أسرة علوية الأصل ، وهما على والقاسم ، فولى سليمان على بن حمود ثغر سبتة ، وأخاه القاسم ثغور الجزيرة الخضراء وطنجة وأصيلا ، وقوى بذلك نفوذ البربر فى ولايات الأندلس الجنوبية .

وخشى الفتيان العامريون عاقبة تزايد نفوذ البربر ، وهؤلاء الفتيان هم الصقالبة الذين كان يستحضرهم المنصور ويلحقهم بجيشه ليتقوى بهم ويحافظ على نفوذه بين العرب والبربر ، ولكى يأمنوا شر البربر ولَّى الصقالبة وجوههم شطر الناحية الشرقية من الأندلس ، وبسطوا نفوذهم على بلنسية ومرسية والمرية ودانية والجزائر .

ولم يستطع سليمان المستعين النهوض بأعباء الدولة على الوجه المرضى ، وصف ابن حيان المؤرخ الأندلسى أيامه بقوله[1]:

(١) القسم الأول المجلد الأول من كتاب الذخيرة لابن بسام صفحة ٢٥ ..

« كانت كلها شدادا نكدات ، صعابا مشئومات ، كريهات المبدأ والفاتحة ، قبيحة المنتهى والخاتمة ، لم يعدم فيها حيف ، ولا فورق فيها خوف ، ولا تم سرور ، ولا فقد محذور ، مع تطير السيرة ، وخرق الهيبة ، واشتعال الفتنة ، واعتلاء المعصية ، وظعن الأمن ، وحلول المخافة » .

وكان سليمان شاعراً ، قال عنه ابن بسام [1] « هو أحد من شرف الشعر باسمه وتصرف على حكمه » وذكر له قصيدة يعارض بها قطعة الرشيد « ملك الثلاث الآنسات عنانى » يقول فى مطلعها :

عجبا يهاب الليث حد سنانى
وأهاب لحظ فواتر الأجفان
فأقارع الأهوال لا متهيبا
منها سوى الاعراض والهجران
وتملكت نفسى ثلاث كالدمى
زهر الوجوه نواعم الأبدان

وعجز سليمان المستعين عن حسم الفوضى السائدة والاضراب العام ، أغرى بعض القادة والزعماء بالطمع فى عرش الخلافة ، وكان على رأس هؤلاء الطامعين على بن حمود الذى اختاره سليمان حاكما لسبتة فلم يقنع بها وتطلع الى الخلافة . ويروى لنا ابن حيان [2] أن هشاما المؤيد عندما رأى من

(١) القسم الأول المجلد الأول من كتاب الذخيرة لابن بسام صفحة ٣٣ .

(٢) القسم الأول ــ المجلد الاول من كتاب الذخيرة صفحة ٢٦ .

اضطراب أمره وتيقنه من انصرام دولته بما منى به قديما وحديثا من تمالؤ بنى عمه آل الناصر عليه وقيامهم واحدا بعد واحد فى خلعه صيَّر الى على بن حمود ولاية عهده ، وأوصى اليه بالخلافة من بعده ، وراسله بذلك الى سبتة ، يستمد معونته ، ويلتمس تأييده ، واستكتمه السر الى أوانه .

وكان سليمان قد نظم أبياتا من الشعر استراح بها الى بعض خواصه وفيها تعريض بالبربر ورغبة فى استئصال شأفتهم والقضاء عليهم وهى قوله ضمن الأبيات المشار اليها [1] :

فواعجبا من عبشمى مملك
برغم المعالى والعوالى تبربرا
فلو أن أمرى بالخيار نبذتهم
وحاكمتهم للسيف حكما محررا
فاما حياة تستلذ بفقدهم
واما حمام لا نرى فيه مأزرا

فلما دعا على بن حمود لنفسه اعصوصب عليه البربر الذين كانوا يتوجسون من سليمان ، وأيده فى دعوته خيران العامرى صاحب المرية من الصقالبة ، وكانوا ناقمين على سليمان المستعين ، وكتب اليه خيران أن يعبر اليهم من سبتة ، فلبى الدعوة وعبر الى الجزيرة الخضراء فى أواخر سنة ٤٠٦ وسار فى أشياعه من البربر الى مالقة فسلمها اليه صاحبها عامر بن فتوح .

---

(١) الجزء الاول من نفح الطيب صفحة ٤٠٥ .

وتقدم خيران فى قواته ، والتقى بعلى بن حمود فى ثغر المنكب ما بين مالقة والمرية ، وزحف الزعيمان على قرطبة ، وترامت الأنباء الى سليمان المستعين ، فخرج من قرطبة للقائهما فى جند البربر ودارت معركة حامية هزم فيها سليمان ودخل على بن حمود قرطبة ، وقتل سليمان بن الحكم صبراً ، ضرب على بن حمود عنقه بيده ، وقتل أخاه وأباه الحكم بن سليمان بن الناصر ، ولما لم يجد هشاما المؤيد أعلن وفاته وبويع بالخلافة ، وتلقب بالناصر لدين الله ، وذلك فى شهر محرم سنة ٤٠٧ .

وانقطعت دولة بنى أمية فى هذا الوقت وبطل ذكرهم على المنابر فى جميع أقطار الأندلس الى أن عادت بعد ذلك حينما نصب المستظهر خليفة .

وأحسن على بن حمود معاشرة أهل قرطبة نحوا من ثمانية أشهر ، وكبح جماح البربر ، ثم انقلب من التجمل الذى كان يظهره لهم ، وانصرف الى حزبه البربرى ، وأغضى على سوء ما كانوا عليه من الظلم والحيف ، وصب على أهل قرطبة ضروبا من التنكيل والمغارم ، وانتزع منهم السلاح ، وقبض أيدى الحكام عن انصافهم ، فكرهه أهل قرطبة وسلّط عليه صبيان أغمار من صقالبة الأمويين فقتلوه فى الحمام طعنا بالخناجر .

ويقول ابن حيان عنه (١) « وكان الأغلب على علىّ بن حمود السخاء والشجاعة على عطوله من الفهم والمعرفة ، وبراءته من

---

(١) القسم الأول ــ المجلد الأول من الذخيرة صفحة ٨٣ .

الخير جملة » . وقد قتل فى شهر ذى القعدة سنة ٤٠٨ هجرية، وكانت سنه وقت مقتله خمسا وخمسين سنة ، ولم يمكث فى الخلافة سوى عام وتسعة أشهر واجتمع أنصاره من بربر زنانة ، ووجهوا من حينهم الى أخيه القاسم صاحب اشبيلية يومئذ ، فوافى قرطبة رسوله ليقف على صحة وفاة أخيه بالمعاينة ، وخاف أن تكون حيلة منه عليه ، فكشف له عنه وتحققه فانكفأ الى القاسم وأكد له وفاة أخيه فأسرع القاسم الى قرطبة ، وأخرج اليه جسد أخيه فصلى عليه ، وأمر بانفاذه الى مدينة سبتة ، فدفن بها ، وقبض على الفتيان الثلاثة الذين قتلوا أخاه وأعدمهم لوقته .

ولما قتل الناصر على بن حمود كان ابنه يحيى واليا على سبتة ، وولده الآخر ادريس واليا على مالقة ، واختلف البربر على مسألة الخلافة ، فمال أكثرهم الى القاسم لكونه غبن أولا وقدم عليه أخوه الأصغر ، وكان القاسم يكبر أخاه بعشر سنوات ، ولكونه قريبا من قرطبة ، وبويع القاسم بالخلافة بعد ستة أيام من قتل أخيه ، وأحسن السيرة ، وتلقب بالمأمون ، وأحس القاسم من البربر الميل الى يحيى بن أخيه صاحب سبتة فتهالك فى اقتناء السودان ، وابتاع منهم كثيرا ، ودربهم على أعماله ، وأنفت البرابر من ذلك وانحرفوا عنه .

وتمكنت أمور القاسم ، واستتب له الأمر ، وترفق فى معاملة الناس ، ومال الى سياسة اللين والموادعة ، وأخذ يحيى ابن أخيه يعمل على خلع طاعته ، فكتب من سبتة الى أكابر البربر بقرطبة

يقول لهم [1] « ان عمى أخـذ ميراثى من أبى ، ثم انه قدم فى ولايتكم التى اتخذتموها بسيوفكم العبيـد والسودان ، وأنا أطلب ميراثى ، وأوليكم مناصبكم ، وأجعل العبيـد والسودان كما هم عند الناس » ، وصادفت هذه الدعوة هوى فى نفوس البربر لأنهم كانوا ناقمين على السـياسة التى اتبعها القاسم ، فوعدوا يحيى بالمساعدة . فجاز البحر من سـبتة بجمع وافر ، وأقبل الى قرطبة ، وأحس القاسم ضعف موقفه ، ورأى قلة أنصاره ، وتخلى البربر عن مناصرته ، فآثر الانسحاب وفر الى اشبيلية . ودخل يحيى ابن أخيه قرطبة ، فبايعه البربر والسودان وأهل البلد ، وتلقب بالمعتلى ، واسـتقبل البربر والأندلسيون خلافته بالاستبشار والارتياح ، وكان المعتلى فارسـا شجاعا كريما ، وانما كانت آفته شدة اعجابه بنفسه واصطناع السّفلة ، ولما كان مدينا بخلافتـه الى حد كبير للبربر فقد اشـتط عليه أكابرهم ، وطلبوا منه ما وعدهم به من اسقاط مراتب السودان ، ولم يسـتطع مخالفتهم ، ونزل على أمرهم ، ولكنهم لم يقنعوا بذلك وصاروا يفعلون معه ما يخرق الهيبة ، ويفرغ بيت المال ، وفر السودان الغاضبون الى عمه القاسم باشبيلية ، ونقم عليه بعض البربر لأنه احتجب عنهم وتكبر عليهم ، واختلت أحواله بقرطبة ، وكان القـاضى ابن عباد قد بايع للقاسم فى قرطبـة ، وتلقب القاسم بالمستعلى ، ولما علم باختلال أمور ابن أخيه ترقب الفرصة للعودة الى قرطبة ، وخشى يحيى عاقبة اضطراب أحواله

---

(١) نفح الطيب الجزء الثانى صفحة ٣١ .

وحروجة موقفه فغادر قرطبة ليلا مع خواصه الى مالقة ، فلما بلغ عمه القاسم فراره ركب من اشبيلية الى قرطبة ، وخطب له بها ، وجددت بيعته ، وذلك فى شهر ذى القعدة سنة ٤١٣ ، ولم تصلح أحواله مع ذلك فى قرطبة ، فقد كان هوى السودان معه ولكن البربر كانوا يميلون الى يحيى ابن أخيه ، أما أهل قرطبة فكانوا يؤثرون عودة الخلافة الى بنى أمية ، وكان القاسم مضطرا الى مداراة البربر والوقوف فى جانبهم ، فلما وقع الخلاف بين البربر وأهل قرطبة وثار أهل قرطبة بالبربر أعلنوا خلع القاسم ، وأخرجوه وبرابرته من قرطبة ، فحاصرهم وقاتلهم ولكنهم انتصروا عليه ففر مع السودان الى اشبيلية ، وفر البرابرة الى ابن أخيه يحيى بمالقة وكان ذلك فى شهر شعبان سنة ٤١٤ .

وكان ابنه محمد بن القاسم واليا على اشبيلية ، وكان ثقته المدبر لأمره محمد بن زيرى من أكابر البرابرة ، وقاضيها محمد بن عباد ، وأطمع القاضى ابن زيرى فى تملك اشبيلية ، وكانت أخبار هزيمة القاسم قد سبقته اليها ، فلما وافى باب اشبيلية بمن معه امتنع أهلها عن السماح له بالدخول اليها ، ووثبوا على ولده وأصحابه وحصروهم بدار الامارة ، وأحاطوا بهم ، واشتد الأمر عليهم ، ورضى القاسم من أهل المدينة باسلامهم اليه جميعا موفورين بماله وأهله ، ولما خرج ولده محمد وأهله ذهب الى شريش ، وملك أهل اشبيلية مدينتهم ، وأغرى بعد ذلك القاضى بن عباد أهل اشبيلية بالوثوب على محمد بن زيرى فخرج ، وصفت

اشبيلية من البربر ، وأسفرت الحرب بين القاسم وابن أخيه يحيى عن هزيمة القاسم ، وحمله أسيرا مقيدا الى مالقة ، وقدم أهل اشبيلية على أنفسهم ثلاثة من أكابر البلد ، أحدهم القاضى أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد ، ومحمد بن ريم ومحمد ابن الحسن الزبيدى .

وسئم أهل قرطبة حكم البربر ، فاتفق رأيهم على اعادة الأمر الى بنى أمية ، واختاروا منهم ثلاثة للترشيح للخلافة ، وهم سليمان بن المرتضى ، ومحمد بن العراقى ، وعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر ، وعقدوا من أجل ذلك اجتماعا بالمسجد الكبير حضره الوزراء وأعيان الدولة والخاصة والعامة ، وكاد الأمر يتم لسليمان بن المرتضى ، ولكن فوجىء القوم بحضور عبد الرحمن بن هشام فى خلق عظيم من الجند والعامة ، وتم عقد البيعة له ، واتخذ لقب المستظهر ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٤١٤ وكان المستظهر فتى واعدا غض الشباب ، اذ كانت سنه لا تتجاوز حينذاك الثالثة والعشرين ، ولكن كان له من التجربة والثقافة ما يؤهله للاضطلاع بأعباء الخلافة ، وقد اختار وزراءه من بقايا موالى بنى أمية ، منهم أبو عامر بن شهيد الشاعر اللامع والأديب الذائع الصيت ، ومنهم أبو محمد بن حزم وعبد الوهاب ابن عمه وكلاهما كان من أكمل فتيان عصره فهماً ومعرفة ونفاذاً فى العلوم الرفيعة ، ويقول عنه ابن حيان انه (1)

---

(1) القسم الاول ــ المجلد الأول من الذخيرة صفحة ٣٦ .

« كان فتى لو أخطأته المتالف » ولكن الخراب كان قد استولى على الدولة ، وسرعان ما تكاثرت عليه المشكلات ، وتفرّى به الأمر ، وسفك دمه ، وانحسم الأمل من دولته ، وكان قد وثب عليه ابن عمه محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن النـــاصر ، وبويع فى شهر ذى القعدة سنة ٤١٤ . وكانت امارة المستظهر الى أن قتل ســـبعة وأربعين يوما لم تنتشر له فيها طاعة ، ولا التأمت عليه جماعة ، وكان على حداثة سنة شاعرا جيد القريحة ، مستجاد الشعر ، والظاهر من مجمل تاريخ خلافته القصيرة المدى أنه لم يعط الفرصة الكافية للكشف عن ملكاته السياسية واظهار قدرته ، وقد روى له ابن بسام فى الذخيرة طائفة من شـــعره وتوقيعاته وهى تدل على رسوخ قدمه فى الشعر ، وتمكنه من الأدب .

وتلقب محمد بن عبد الرحمن حينما ولى الخلافة بالمستكفى ، واســـتقل بأمر قرطبة ، وهو والد الأديبة الأندلســـية الشهيرة ولاّدة ، وكان المستكفى يوم ولايته فى الثانية والخمسين من عمره ، ولكنه كان رجلا سيىء السيرة ، عاجز الرأى ، مستسلما لأهوائه ونزواته ، قال عنه المراكشى صاحب المعجب[1] « كان فى غاية السخف وركاكة العقل وسوء التدبير ، وزر له رجل حائك كان هو المدبّر لأمره والمدير لدولته » . وكان مما أثار عليه غضب أهل قرطبة أنه أمر بخنق ابن عمه محمد العراقى ، ونعاه

(١) المعجب صفحة ٥٦ .

للناس ، واضطهد الكثيرين من أبناء الأسر القديمة فى قرطبة ، واعتقل البارزين من وزراء الخليفة السابق . ومنهم أبو محمد ابن حزم وعبد الوهاب ابن عمه . وخشى أبو عامر بن شـــهيد وغيره من أعيان قرطبة أن يصيبهم ما أصاب اخوانهم المعتقلين فغادروا قرطبة ولاذوا ببلاط يحيى بن حمود بمالقة وحرضوه على أن يضع حدا للفوضى السائدة فى قرطبة ، ولم يكن يحيى ميالا الى العودة الى قرطبة ، ولكن جهودهم مع ذلك لم تذهب أدراج الرياح فقد استفاضت الاشاعات بأن يحيى يتأهب لمهاجمة قرطبة ، وكان القرطبيون قد ضاقوا ذرعا بولاية المستكفى ، وساءهم انغماسه فى الشهوات ، واغفاله لشؤون الدولة ، فنادوا بخلعه ، وحاصروا قصره ، وقتلوا وزيره الحائك طعنا بالخناجر ، وطلب اليه وزراؤه وكبراء قرطبة التخلى عن الأمر ، ولما وجد أنه لا يستطيع البقاء تنكر فى زى فتاة مغنية ، ووضع على وجهه حجابا ، وغادر القصر فى ربيع الأول سنة ٤١٦ واتجه صوب الثغر ومعه أحد قواده ، ونزل بقرية تعرف بشمنت بالقرب من مدينة سالم ، وكره هذا القائد التمادى معه فدس له سما فى الطعام ، ولما مات مكانه غسّله ودفنه وختمت بذلك حياة هذا الامعة .

وظلت قرطبة قاعدة الخلافة أشهرا بلا خليفة يحكمها مجلس من أعيان البلد ، ولم يكن هذا النوع من الحكم مألوفا ولا مرجو البقاء ، فقد كان النظام القديم يتساقط وينهار ، ولكن النظام الجديد كان لايزال حلما لم يتحقق وجنينا فى بطن الغيب ،

وكان الرأى العام السائد لا يزال يرى أن النظام الملكى هو النظام الوحيد القمين بالاستقرار والذى يمكن أن تؤمن مغبته ويرجى خيره ، ولكن أين الأموى الذى يصلح للخلافة ؟ لقد كان عبد الرحمن المستظهر أحسن الأمراء الأندلسيين وأسماهم ثقافة وأكثرهم استقامة ، ولكنه لم يجد الى جانبه جيشا يحمى حوزته ويفرض به سلطانه على الدهماء والمشاغبين النزاعين الى السلب والنهب والتخريب فلم يطل عهده ، وذهب ضحية العجز والفوضى ، ورأى أعيان قرطبة أن على بن حمود يستطيع أن يحسم الفوضى ويعيد الأمن والطمأنينة لأن له جيشا من البربر يستطيع أن يقيم به دعائم الحكم ، ويحمى الدولة والنظام القائم . ففاوضه أهل قرطبة وراسلوه فى ملقا ليقبل العودة الى خلافة قرطبة ، فقبل هذا العرض ولكن فى تردد وفتور فقد أدرك أنهم لجأوا اليه مضطرين حينما أعيتهم الحيل فى علاج الموقف وتفريج الأزمة ، وظل مقيما فى ملقا ، واكتفى بارسال جزء من جيشه الى قرطبة ، وأثبتت الأيام أنه كان مصيبا فى سوء ظنه بأهل قرطبة ، فقد ثار القرطبيون فجأة ، وفتكوا بالحامية البربرية ، واجتمعت كلمتهم على رد الأمر للأمويين ، وكان عميد أهل قرطبة فى ذلك والذى تولى الأمر وسعى فى تمامه الوزير أبو الحزم جهور بن محمد ، وراسل جهور من كان يرى مثل رأيه من أهل الثغور والمتغلبين بها على الأمور ، وداخلهم فى هذا الأمر ، واتفقوا بعد مدة طويلة على تقديم أبى بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر ، وكان هشام

هذا مقيما بحصن يدعى ألبنت ، فبايعوه في ربيع الأول سنة ٤١٨ وتلقب بالمعتد بالله ، وكانت سنه يوم بويع له أربعا وخمسين سنة ، والعجيب فى أمر هذا الخليفة أنه بقى فى مقره بألبونت مدةسنتين وسبعة أشهر وفى رواية أخرى أنه لم يستقر بموضع فى الثغر بل كان يتنقل من مدينة الى أخرى لأن الرؤساء كانوا يقيمون العقبات فى طريق وصوله الى قرطبة ، وتمكن أخيرا من دخول قرطبة فى شهر ذى الحجة سنة ٤٢٠ هجرية ، وسر القرطبيون بمقدمه ، واستقبلوه استقبالا حماسيا رائعا ، ولكن هذا الرجل ـ هشاما الثالث ـ لم يكن أهلا لأن تناط به الآمال ويركن اليه فى اصلاح الأحوال ، فقد كان وكلة خائر العزم ، وأدرك أعيان المدينة فى اليوم التالى لقدومه أنهم قد أساءوا الاختيار ، وازدادت الأمور تعقيدا وسوءا لأنه ألقى زمام الأمور الى يد رجل يدعى الحكم بن سعيد القزاز لم يحسن السياسة ، وأهان زعماء البيوتات الكبيرة ، وأغضب رجال الدين ، واستعان بالسفهاء العارين من الفضائل ، وأحاط الخليفة بحاشية من فاسدى الأخلاق ، فساءت الأمور ، واستقر الرأى فى النهاية على الخلاص من بنى أمية جملة ، فقد أعطيت لهم آخر فرصة فأثبتوا أنهم لم يعودوا صالحين لتقلد الخلافة ، وفى شهر ذى القعدة سنة ٤٢٢ حدث شغب فى المدينة ، وقتل الوزير الحكم بن سعيد ، وهوجم قصر الخليفة ، وخلع الخليفة ، وأجلى عن المدينة، وأبطل رسم الخلافة ، ونفى بنو أمية ، وبخلع هشام المعتد انتهت

الدولة الأموية فى الأندلس ، وانقطع ذكرها من منابر الأندلس والمغرب الأقصى .

وفر الخليفة السابق هشام الثالث الى لاردة ، ونسى أمره ، وأغفل ذكره ، ولما مات بعد ذلك بخمس سنوات لم يشعر بفقده ولم يذكر اسمه .

وهكذا غربت شمس الخلافة الأموية الأندلسية ،وبدأ ذلك العهد المعروف فى تاريخ الأندلس باسم عهد ملوك الطوائف ، وكان أبرز هؤلاء الملوك وأضخمهم دولة وأبعدهم شهرة وأخلدهم تاريخا ، وأكثرهم مآثر ، بنو عباد ملوك أشبيلية وعلى رأسهم المعتمد على الله الذى ختمت به دولتهم .

نشأة الأسرة العبادية

كان للخطأ السياسى الخطير الذى تورط فيه الحكم المستنصر بتوريثه عرش الخلافة الأموية فى الأندلس لابنه الغلام الناشىء هشام أفدح العواقب وأسوأ النتائج ، فقد أوسع ذلك المجال للصراع الشديد بين الوزراء ورجال الدولة البارزين على الحكم ، وكان فى وسع الحكم أن يجنب الخلافة الأموية مثل هذه الحالة التى جرت على الدولة المحن وجشمتها الأهوال بترشيح أحد اخوته لوراثة العرش ، وكان فيهم من هو جدير بذلك ، ولكن حب الولد أذهل هذا الرجل الفاضل الطيب النفس الجليل القدر عن كل اعتبار آخر ، وقد مكن ذلك المغامر الشديد البأس الماضى العزم المنصور بن أبى عامر من التغلب على منافسيه والاستئثار بالسلطة ، وكان المنصور حاكما من الطراز الأول ومن أقدر رجال الدولة الذين عرفتهم الحكومات الاسلامية ، ولكنه فى سبيل توطيد سلطانه اعتدى على الصفة الشرعية للخلافة ، وأضعف شعور رجالات الأندلس بالولاء لها ، ونصب لهم القدوة ، وضرب لهم مثلا شرودا فى الاعتداء عليها والاستخفاف بها ، وفضلا عن ذلك فانه رغبة فى استبقاء نفوذه والمحافظة على كيانه استكثر من البربر والصقالبة فى الأندلس للاستعانة بهم فى غزواته المتلاحقة ، ومغالبة أهل

الأندلس أن تنكروا له أو ثاروا به ، وقد استطاع بدهائه وقوة شخصيته أن يسخر العناصر الثلاثة القوية فى الأندلس وهى العرب والبربر والصقالبة فى تحقيق غاياته وقضاء لباناته ، ولكن المنصور كان مثل سائر البشر من أبناء الفناء ، والعظمة لا تورث ، فلما انتهت رحلته الدنيوية ، وسقطت الدولة العامرية ، اشتدت الأعاصير السياسية ، وقذف بالدولة فى لجة الفوضى ، وغلب على أمرهم الخلفاء الضعاف الذين تداولوا الحكم بعد العامريين ، ونجمت نواجم الفتنة فى كل ناحية من نواحى الأندلس .

وكان أغلب أهل الأندلس قد أشربت نفوسهم حب الخلافة الأموية وصاروا يرون لزوم طاعتها أمرا واجبا ، وفرضا لازما ، لأنها رفعت لواء الاسلام فى شبه الجزيرة ، وأحسن خلفاؤها وأمراؤها السياسة والنهوض بالأعباء ، ولذلك ساءهم أن يروا انحلال أمر الأسرة الأموية وادبار سلطانها وهى منحدرة الى السقوط مشفية على الهاوية ، وأخذوا يتطلعون الى المستقبل فى خوف ويأس .

ولكن الرؤساء والزعماء والقادة كانوا ينظرون الى المسألة من زاوية أخرى ، كانت قوة الخلافة الأموية قادرة على أن تردهم الى الطاعة ، وتأخذهم بالاذعان والخضوع اذا حدثتهم أنفسهم بالخروج على الخلافة والمجاهرة بالعصيان ، فلما رأوا ما توالى على الخلافة من الأحداث العارمة جاشت فى نفوسهم الأطماع ، وحرصوا على اغتنام الفرصة ، والاستفادة من الموقف ، وقد

اطمأنوا الى أن الخلافة آذنت بالزوال ، ولذلك بدأت حركة أمراء الطوائف وملوكها قبل سقوط الخلافة الأموية النهائى بأعوام ، ولما سقطت الخلافة الأموية وعفّى على آثارها الزمن اشتدت تلك الحركة وسارت فى طريقها لا تلوى على شىء ، ولا تصادف عقبة فى طريقها ، واقتسم البربر والصقالبة والعرب تركة الخلافة .

وقد نقل البربر ولاءهم لأسرة المنصور الذى استقدم الكثيرين منهم وأظلهم برعايته الى الأسرة الحمودية الادريسية وأيدوا ممثلها فى ذلك العهد وهو الخليفة يحيى بن على بن حمود الذى آثر الاقامة فى ملقا على تولى مقاليد الخلافة فى قرطبة وكان أقوى الخاضعين لهذه الأسرة من البربر أمراء غرناطة وعلى رأسهم زاوى بن زيرى وابن أخيه حبّوس ، وكانت فى حوزتهم مالقة وما حولها ، كما استأثر زعماء آخرون من البربر بقرمونة وموررور ورندة .

وكان أبرز زعماء الصقالبة خيران الذى بسط سلطانه على المرية ، وزهير الذى خلفه بها ، ومجاهد العامرى صاحب دانية وجزائر البليار ، وملك الصقالبة بلنسية حينا من الزمن ، ولكن فى سنة ٤١٢ هجرية تمكن أحد حفدة المنصور ، وهو عبد العزيز ابن عبد الرحمن (شنجول) من الاستيلاء عليها .

وفى سرقسطة أصبح بنو هود أصحاب السلطة وهم ينتمون الى أصل عربى ، أما طليطلة فقد أصبحت ملكا لأسرة ذى النون وهى أسرة من أصل بربرى .

أما قرطبة وأشبيلية فقد نشأ فيهما لون من ألوان الحكم الجمهورى ، ففى قرطبة بعد سقوط الدولة الأموية صمم أصحاب الرأى فى المدينة على تسليم زمام الأمور الى يد أبى الحزم جهور بن محمد بن جهور ، وهو من أسرة قديمة برزت فى عهد الخلفاء ، وكان من المشهود لهم بالكفاية وحسن السمعة ومن الموصوفين بالدهاء وبعد الغور ، وحصافة العقل وحسن التدبير ، وقد جهد فى أن لا يتورط فى الفتن السابقة ، وقد ولى الوزارة فى عهد الدولة العامرية ، ويقول عنه المراكشى [1] : «انه دبر الأمور تدبيرا لم يسبق اليه ، وذلك أنه جعل نفسه ممسكا للموضع الى أن يجىء من يتفق الناس على امارته فيسلم اليه ذلك ، ورتب البوابين والحشم فى القصور على ما كانت عليه أيام الدولة ، ولم يتحول عن داره اليها ، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدى رجال رتبهم لذلك وهو المشرف عليهم ، وصير أهل الأسواق جندا له ، وجعل أرزاقهم رءوس أموال تكون بأيديهم محصاة عليهم يأخذون ربحها ورءوس الأموال باقية ، وفرّق السلاح عليهم ، حتى اذا دهمهم أمر فى ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه» .

وكان يعاونه فى حكم المدينة مجلس من شيوخها ، ولكنه كان مع ذلك صاحب الكلمة الفاصلة والرأى الأعلى فى مختلف الأمور ، لأن مجلس الشيوخ كان لا يعصى له أمرا ، ولا يعارض له رأيا » وكان معروفا بالحرص على المال ومراعاة الاقتصاد ،

---

(١) المعجب صفحة ٦٠/٥٩ .

ولكن حبه للمال لم يغره بأخذ شيء من أموال الدولة ، وقد توفى فى سنة ٤٣٥ وخلفه فيما كان يتولاه من أمر قرطبة ابنه أبو الوليد محمد بن جهور ، وجرى فى السياسة وحسن التدبير على سنن أبيه .

واستأثر بنو الأفطس بناحية بطليموس وما اليها وبنو رزين بناحية السَّهلة وبنو الفهرى بناحية البونت .

وكان مصير اشبيلية مرتبطا فى أكثر الأوقات بمصير قرطبة ، وقد خضعت لبنى حمود العلويين حينما استولوا على قرطبة ، ولما ثارت قرطبة على القاسم بن حمود وطرد منها حاول الالتجاء الى اشبيلية ، وكان بها ابناه وحرس من البربر يقودهم محمد بن زيرى اليفرنى ، وأمر القاسم أهل اشبيلية باخلاء ألف منزل لجيشه ، وأثار هذا الطلب نقمة أهالى اشبيلية لأنهم كانوا يعرفون ما طبع عليه جنود القاسم من الميل الى السلب والنهب والعدوان ، وقد ضربت لهم قرطبة مثلا فى طرد البربر والخلاص منهم ، ولكنهم كانوا يخشون بأس الحامية البربرية المقيمة بالمدينة كما يخشون استعانتها ببربر قرمونة القريبة منها ، ولكن قاضى اشبيلية محمد أبى القاسم بن اسماعيل بن عباد نجح فى اكتساب ثقة رئيس الحرس البربرى واستماله الى صفه ، وأكد له أنه قد يصبح صاحب اشبيلية اذا كف أذاه عن أهل المدينة وأيدهم فى موقفهم من القاسم ، واحتاط القاضى للأمر فعقد اتفاقا مع بربر قرمونة ، وشجع ذلك أهل اشبيلية على مهاجمة ولدى القاسم محمدا والحسن ومحاصرتهما فى قصرهما ، فلما جاء

القاسم الى أبواب المدينة وجدها مغلقة فى وجهه ، فحاول أن يترضى العامة ويبذل لهم الوعود ولكنهم لم يستجيبوا له ، ولما كان ولداه وأهل بيته محصورين بالمدينة فقد قبل أن يتخلى عن المدينة اذا أسلموا اليه ولديه وأهل بيته وأمواله ، ولما ضمن له الاشبيليون تنفيذ هـذا الشرط حول ركابه عن المدينة ، واتجه صـوب الجزيرة الخضراء واغتنم القاضى بعد ذلك الفرصـة للخلاص من الحامية البربرية .

ولما استردت المدينة حريتها اتفق رأى أهل اشبيلية على تقديم رجل منهم يرجع اليه أمرهم وتجتمع به كلمتهم ، فتوارد اختيارهم بعـد فحص الرأى وتنقيح التـدبير على القـاضى أبى القاسم محمد بن اسماعيل ، وكان لمـا ولى قضاء اشبيلية أحسن السياسة مع الرعية والملاطفة لهم حتى رمقته القلوب ، ورأوا أن يولوه الأمر لما كانوا يعلمون من حصافة عقله وسعة صـدره وعلو همته ، وكان واسـع الثراء يملك ثلث أراضى اشبيلية ، ولما عرضوا عليه ما رأوا تهيب الاستبداد بالأمر وخاف عاقبة الانفراد بالحكم ، ولم يغب عنه أن بعض المرتسمين فى الوزارة كانوا يؤيدونه فى ذلك ويحثون على قبول هذا العرض ابقاءً على ما يتقلبون فيه من جاه ونعمة وحسدا له لوفرة ثرائه ، وقبول الولاية لم يكن فى تلك الأوقات العاصفة المتقلبة من المسائل المأمونة العاقبة ، فاشترط القاضى لقبوله اشراك طائفة من أعيان المدينة معه فى الحكم ، واستقر الرأى على أن يكون منهم أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى العالم النحوى والذى

سبق أن اختاره الحكم ليكون معلما لابنه هشام ، ومحمد بن يريم الألهانى وأبو الأصبغ عيسى بن حجاج الحضرمى وأبو محمد عبد الله بن على الهوزنى ، ورجال آخرون من سلالة البيوتات المعروفة فى المدينة ، وأخذ يدبر أمور المدينة وهؤلاء المذكورون وزراؤه .

وعمل على التقرب الى العامة ، فلما انقادت له الأمور أقبل يضم الرجال الأحرار ويشترى العبيد ، وحينما اطمأن الى مكانته وتوطد نفوذه قبض أيدى أصحابه وسما بنفسه وأسقط جماعتهم .

ولم يكن القاضى أبو القاسم من ذوى النسب الضخم والحسب العريق كما نقل بعض الرواة عن الكتّاب والشعراء الذين كانوا يتملقون الأسرة العبادية حينما علا نجمها وعظم شأنها ، وكانت هذه الأسرة تنتسب الى اللخميين الذين كان منهم ملوك الحيرة وعمال الفرس على أطراف العراق ، وكانت دولتهم تسمى دولة آل نصر أو دولة المناذرة ، وكان الشعراء الذين يمدحونهم يتقربون اليهم بالاشارة الى هذا النسب تأكيدا لحقيقته ، مثل قول أحدهم فى مدحهم :

من بنى المنذرين وهو انتساب زاد فى فخرهم بنو عباد
فتية لم تلد سواها المعالى والمعالى قليلة الأولاد

وقال شاعر آخر فى تأييد هذا النسب وربط أصولهم بملوك الحيرة :

من حلبة السبق لا برق يخاطفها الى مداها ولا ريح يجاريها
تردهم نسبة نحو السماء فهم من مائها وعلاهم من دراريها

يشير الى المنذر بن ماء السماء أحـــد ملوك الحيرة ، وقال هذا الشاعر نفسه مكررا هذه النغمة التى كانت تروق مسامع العباديين :

نفـــر الى ماء السماء نماهـــمو
نسب على أوج النجـــوم مخيم
بالبيض والبيضات والحلق اكتسوا
فتوشحوا وتتوجـــوا وتعمموا

ويضرب على هذه النغمة الفتح بن خاقان فى المطمح فيقول فى ترجمته لأبى القاسم محمد بن عباد : [1] « هذه بقية منتهاها فى لخم ، ومرتماها الى مفخر ضخم ، وجدهم المنذر بن ماء السماء ومطلعهم من جو تلك السماء » .

والظاهر أن بنى عباد كانوا يحبون الاشارة الى هذا النسب وتأكيده والمفاخرة به ليثبتوا لأهل الأندلس انحدارهم من سلالة ملكية حتى يخول لهم ماضى الأسرة ادعاء الملك وتسنم العرش ، والمعروف عن بدء أمرهم فى بلاد الأندلس أن جدهم عطافا هو الداخل منهم الى الأندلس فى طلائع بلج بن بشر القشيرى ، وكان عطاف من أهل حمص من صقع الشام ، وموضعه من حمص العريش وهى آخر الجفان بين مصر والشام ، وقد نزل بالأندلس بقرية يومين من اقليم طشانة من أرض اشبيلية ، وقد قدم عطاف الأندلس على رأس كتيبة من جنود بلج .

وامتد لعطاف عمود النسب من الولد الى الظافر محمد بن

---

(١) مطمح الانفس صفحة ١١ .

اسماعيل القاضى ، وقد كان اسماعيل والد القاضى أول من أخرج الأسرة من ظلمـات الخفاء وخمول الذكر وسما بها الى مرتبة الأعيان البارزين ، وكان عالما فقيها ، وجنديا بارعا ، تولى قيادة فرقة فى حرس هشام الثانى ، واختير اماما لجامع قرطبة ، ثم قاضيا لاشبيلية ، واشتهر بغزارة العلم وجزالة الرأى ومتانة الخلق والاستقامة ، وعرف فى المجتمع الفاسد الذى عاش فيه بالنزاهة والارتفاع فوق الريب والشكوك ، وقد اتصف بالكرم والنجدة فكان غياث الملهوفين ، وملاذ القاصـدين ، وأكسبته هذه الخلال البارعة لقب أنبل رجال غرب الأندلس ، وتوفى عام ٤١٠ للهجرة .

وكان ابنه القاضى أبو القاسم محمد نظيره فى الذكاء وسعة المعرفة ، ولكنه قصر عن مستواه الأخلاقى ، فقد كان شديد الطموح ، بعيد المطامع ، لايتردد فى اختيار الوسـيلة الملائمة لتحقيق أهدافه ، وحينما مات والده عمل على أن يخلفه فى خطة القضاء ، وفضّل عليه أحد المرشحين ، وكانت اشبيلية حينذاك تحت سيطرة بنى حمود ، فاستنجد أبو القاسم بالقاسم بن حمود ، وكان حاكم اشبيلية ، وتدخل الأمـير القاسم فى الأمر ونال أبو القاسم بغيته ، ولكنه مع ذلك لم يحفظ للقاسم بن حمود هذه اليد ولم يرع عهده ، وأعمل الحيلة فى ابعاده عن اشبيلية واخراج ولديه منها والقبض على زمام أمورها .

وقد استبد بالأمر فى اشبيلية بعـد أن تخلص من الأعيان الذين اختارهم للاشتراك معـه فى الحكم ، وقد مكّن لملكه

بانشاء جيش حتى ساوى ملوك الطوائف وزاد عليهم بكثافة سلطانه وكثرة غلمانه ، وقد مكنه هذا الجيش من شن غارات على أملاك جيرانه ، ولكن هذا الجيش لم يكن كافيا لرد هجوم خطير على المدينة كما أدرك ذلك سنة ٤١٨ هجرية ، فقد حاصر يحيى بن على الحمودى اشبيلية فى تلك السنة وعاونه فى حصارها محمد بن عبد الله البرزالى صاحب قرمونة وأحد زعماء البربر ، وخشى الاشبيليون دخول البربر المدينة ، فدارت مفاوضات بينهم وبين يحيى ، وأعلنوا رغبتهم فى الدخـول تحت طاعته ولكنهم اشترطوا ألا يدخل البربر المدينة ، وقبل يحيى هـذا الشرط ، ولكنه اشترط من ناحيته أن يسلموا اليه رهائن من أبناء أعيان المدينة البارزين ، وأن هؤلاء الشبان سيعرضون للقتل اذا نكث الاشبيليون العهد وخالفوا شروط الاتفاق ، فأحجم أعيان اشبيلية عن قبول هـذا الشرط ، وكبر عليهم أن يعرضوا أولادهم للقتل عند أول شبهة تقوم بنفوس البربر ، ولكن القاضى لم يتمهل فى قبول ذلك وبادر الى تقديم ابنه عباداً ليكون رهينة ، ولما كان يحيى يعرف مدى نفوذ القاضى فى اشبيلية ومكانته بين أهلها فقد اكتفى بأخـذ ابنه رهينة ، وارتد جيشه عن اشبيلية ، وقوى هـذا الموقف نفوذ القاضى وزاد الأهالى تعلقا به وقبولا لحكمه ، وقد مكنه ذلك من اخراج ابن حجاج والهوزنى من المجلس الاستشارى تمهيدا للانفراد بالحكم ، ولم يبق معه سوى الزبيدى وابن بريم ولكنه ما عتم أن عزلهما ، وأرسل الزبيدى الى المنفى ، واختار رجـلا من

الشعب اسمه حبيب نشأ فى أحواز اشـــبيلية ، ولم يكن هذا الرجل من أبناء البيوتات ولا من أصحاب المبادىء القويمة ، وانما كان رجلا موفور الذكاء جم النشاط شديد الاخلاص لسيده الذى أخذ بضبعه وانتشله من وهـــدة الخمول وبوّأه المنصب العالى وحباه السلطة والنفوذ .

واعتزم القاضى توسيع رقعة أملاكه بضم مدينة باجة اليها ، ولكن ابن الأفطس أمير بطليوس لمـــا سمع بذلك أرسل جيشا يقوده ابنه محمد ـــ وهو الذى خلفه واتخـــذ لقب المظفر ـــ واستولى على المدينة ، فلما ظهر عند أبوابها الجيش الذى قاده اسماعيل بن القاضى أبى القاسم وحليفه صاحب قرمونة محمد ابن عبد الله البرزالى بدأ حصار المدينة وبالرغم من مساعدة ابن طيفور صاحب مارتلة لمحمد بن الأفطس هزم محمد ووقع أسيرا فى يد العدو وأرسل الى قرمونة ، وقتل كبار رجاله وحبس محمد عند صاحب قرمونة ، وقتل فى المعركة أخ لابن طيفور ، وأطلق محمد بن عبد الله محمد بن الأفطس بموافقة القاضى بعد أن اعتقله حينا من الزمن وعرض عليه يوم أطلقه أن يجتاز على القاضى ابن عباد ليشـــكره على اطلاق سراحه ، ولكن محمـــدا كان يكره القاضى كراهة شـــديدة فأبى ذلك وقال لمحمـــد بن عبد الله البرزالى : « مقامى فى أسرك أشرف عندى من تحمل منّته فاما انفردت باليد عندى والا أبقيتنى على حالى » فأعجب ابن عبد الله مقاله ، ونافس فى اسداء اليد اليه وأكرم تشييعه الى بطليوس ، ورجع الى مقاومة القاضى ابن عباد ، وفى سنة ٤٢٦ ، انتقم محمد

ابن الأفطس لنفسه من القاضى ابن عباد بطريقة غير مشرفة ، فقد وجه ابن عباد مع ابنه اسماعيل حملة لشن غارة على مملكة ليون ، وكان قد تم الاتفاق بين القاضى وبين ابن الأفطس على السماح للجيش الاشبيلى بالمرور من أملاك ابن الأفطس ، فلما أوغل الجيش فى بلاده جمع رجاله ورصده فى شعب ضيق قريب من حدود مملكة ليون ، وهاجمه على غير انتظار ، وقتل كثيرون من جند اسماعيل ، وجرت عليه فى مهربه مع جماعة من أصحابه شدة لجأ فيها الى ذبح خيله والاغتذاء بلحومها ، وشق طريقه الى مدينة اشبونة بصعوبة ، ومن ذلك الوقت أصبح القاضى يضمر أشد العداوة لأمير بطليوس .

وقد اعترف ابن عباد بسلطة الخليفة الحمودى ، ولكن هذا الاعتراف مع ذلك لم ينتقص من سلطته ، لأن يحيى بن حمود كان أضعف من أن يستطيع فرض سلطانه واثبات حقوقه ، ولكن سلطان يحيى أخذ يقوى ، فقد عمل على أن يجمع حوله زعماء البربر جميعهم ، وتزعم الكتلة الافريقية ، وثبّت قدميه فى قرمونة بعد أن أجلى عنها صاحبها محمد بن عبد الله البرزالى ، وهدد بذلك اشبيلية وقرطبة معا ، وقد أوحى هذا الخطر الى القاضى فكرة جريئة بدا له أنه يستطيع بها توحيد صفوف العرب والصقالبة ومواجهة جماعة البربر ، ولم يجد حيلة أخرى لدفع الكارثة المتوقعة ، ولذلك وضع تصميم خطة تمكنه من أن يضم اليه أعداء الافريقيين جميعهم ، وانتوى أن يتزعم هذا الحزب المناهض للحزب الافريقى ، ولم يكن غافلا عما يعترض

سبيله من العقبات ، فقد كان يعرف سوء ظن زعماء الصقالبة وكبرياء زعماء العرب وفـرط تأبيهم على الطاعة والانقياد اذا وضع نفسه على رأس ذلك الحزب ، ولكنه مع ذلك لم ييأس ، وواتته الظروف لتحقيق آماله الى حد ما .

كانت مسألة موت هشام الثانى المؤيد لا تزال موضع شك ، وحينما دخـل على بن حمود قرطبة بعد تغلبـه على سليمان المستعين ، سأل سليمان فى مجلس حافل بالوزراء ورجال الدين عما حدث لهشام المؤيد ، فأجاب بأنه قتل ، ولكن سليمان لم يكن قد أبرز جثته حينما قتله لينتفى الشك فى موته ويقطع باليقين ، وطلب اليه ابن حمود أن يدله على قبره ، ولما عين مكان القبر فتح وأخرجت الجثة ، وسأل ابن حمود أحد خدم هشام هل الجثة التى وجدت فى قبر مولاه هى جثة هشام ؟ فأجاب الخادم مؤكدا انها جثة مولاه ، وفى رواية أن الخادم كان يعلم أن هشاما ما زال حيا ولكنه خشى بطش ابن حمود الذى كانت مصلحته تقتضى أن يكون هشام ميتا ليفوز بلقب الخلافة ، واستـدل الخادم على أن الجثة التى فى القبر لهشام لسن له سوداء كان يتميز بها ذلك الخليفة ، وأقر بعض الحاضرين هذه الشهادة تقربا الى على بن حمود ، وبذلك أصبح الصقالبة أمام أمر واقع وهو الاعتراف بخلافة على بن حمود ، ولما اقتاد الجند الحكم والد سليمان ليقتلوه قال له ابن حمود : « اذا لقد قتلت هشاما أيها الشيخ » فأجاب ذلك الرجل التقى الذى قضى حياته فى العبادة ولم يشترك فى الحوادث السياسـية : « لا والله شـهيد على

ما أقول ، اننا لم نقتل هشاما وانه ما زال حيا » وقبل أن يتم كلماته هذه أشار ابن حمود الذى كان يخشى انتشار أمره فهوى بالسيف على سليمان فقتله ، وواضح من ذلك أن موت هشام لم يكن حينذاك من الأمور المقطوع بها مما حمل أحد الرجازين على أن يقول مشيرا الى هذه الحادثة :

ذاك الذى مات مراراً ودفن   فانتفض الترب ومزق الكفن

وكان المعروف أن هشاما الثانى المؤيد التعس الحظ هرب من قصره فى أثناء حكم سليمان المستعين ، وفى الأغلب مات مجهولا فى آسيا ، ولكن الشعب الأندلسى كان شديد التعلق بذكرى الدولة الأموية الأندلسية ، ورفض أن يصدق قصة موت هشام ، وصار يتصيد كل اشاعة تحوم حول اسمه مهما تبلغ من الغرابة ومجافاة الواقع ، وذاعت اشاعات كثيرة حول حياته فى الشرق بآسيا ، منها أنه ذهب الى مكة ومعه كيس فيه جواهر وياقوت ونفقة ، وطمع فيه عبيده ، فسرقوه وانتهبوا ما عنده ، وظل يومين يعانى الجوع حتى أشفق عليه خزّاف واتخذه معينا له فى عمل الخزف ، وكان يعطيه أثناء ذلك فى كل يوم رغيفا ودرهما ، ولكنه سئم ذلك ، وانضم الى قافلة ذاهبة الى بيت المقدس ، وتعلم عمل الحصر وأصبح حصريا بارعا ، ثم عاوده الحنين الى الأندلس فرجع اليها وظهر أولا فى مالقة ، وفى رواية أخرى أنه استقر فى قرية من قرى اشبيلية يؤذن فى مسجدها ويعمره ويتقوت من العمل فى الحلفاء ، وهى أخبار غير جديرة بالتصديق ، وانما راق السياسيين الطامعين أن يستغلوا

هذه الأسطورة الهشامية ، واتفق وجود رجل صانع حصر اسمه خلف ، وكان يشبه هشاما شبها عجيبا ، فرأى القاضى ابن عباد أن يفيد من ذلك ، ويهتبل الفرصة ليدفع شر ابن حمود وينظم الناس على حربه ، فخرج الى هذا المشـــبه بهشام ومعه ولده اسماعيل وجميع خاصته وعبيده ، وحمـــل معه أثواب الخلفاء وملابســـهم وزيهم ومراكبهم ، فلم يشـــعر الرجل وهو خارج المسجد يعمل فى حلفائه حتى غشيه القوم وأحاطوا به ، فترجل القاضى وابنه وجميع من جاءوا معه وقبلوا الأرض بين يديه ، وترامى القاضى وابنه على رجليـــه يقبلانهما ، فبهت الرجل مما عاين ، وجعل يقـــول : « لست بالذى تعنـــون ولا أنا بالذى تطلبون » وهم لا يردون عليه شيئاً سوى التضرع والرغبة الى أن أقاموه من مكانه وأركبوه ومشى القـــاضى وجميع من جاء معه بين يديه ، ولما أتوا اشبيلية صاح صائح « يا أهل اشبيلية اشكروا الله على ما أنعم به عليكم فهذا مولاكم أمير المؤمنين هشام قد صرّفه الله عليكم وجعل الخلافة ببلدكم لمكانه فيكم ونقلها من قرطبة اليكم فاشكروا الله على ذلك » ودخل المدينة على هذه الصورة واســـتقر فى القصر بقية يومه ، فلما كان من الغد حشر الناس للدخول عليه ، وتســـابق اليه الخاص والعام لبيعته ، وقعد لهم هذا الرجل وبينه وبينهم ستر مسدول يتكلم من ورائه ويقول انه اختار القـــاضى حاجبا له ، وأظهره لنساء هشام وكن يعرفن المطلوب منهن فأقررن أن الرجل هو الخليفة السابق هشام المؤيد ، وأقر القاضى شـــهادتهن وأعلن القاضى

مجلس شيوخ قرطبة وزعماء العرب والصقالبة أن هشاما عنده فى قصره ودعاهم الى حمل السلاح للدفاع عنه ونجحت الخطة ، واعترف بخلافة هشام محمد بن عبد الله البرزالى أمير قرمونة المخلوع وكان مقيما فى اشبيلية ، وعبد العزيز العامرى أمير بلنسية ، ومجاهد العامرى أمير دانية وجزائر البليار وأمير طرطوشة ، ورحب الأهالى فىقرطبة بأنباء ظهور هشام وتحمسوا له ، وكان أبو الحزم بن جهور يحرص على سلطانه فى قرطبة ولذلك لم يصدق هذه الأسطورة ، ولكن لم ير من الرأى الوقوف فى وجه تيار الرأى العام ورأى حاجة العرب والصقالبة الى التحالف تحت علم زعيم واحد وكان يخشى هجوم البربر على قرطبة ، لذلك سمح لأهل قرطبة أن يجددوا البيعة لهشام الثانى سنة ٤٢٧ .

ولم يكن يحيى غافلا عن تحالف العرب والصقالبة عليه فحاصر اشبيلية وشرع فى تخريب المنطقة الواقعة حولها انتقاما من القاضى الداهية ، ولكنه كان محاطا بطائفة من الخونة الكارهين لحكمه ، وكان بربر قرمونة الذين أكرهوا على قبول طاعته لا يزالون موالين لأميرهم السابق محمد بن عبد الله البرزالى ، وفى سنة ٤٢٧ وفد على قرطبة لمة من أبناء عم محمد ابن عبد الله وذكروا لابن عمهم وللقاضى ابن عباد أن يحيى الحمودى منغمس فى لهوه وشربه وأنه لا يكاد يفيق من شربه ويمكن التغلب عليه بهجوم مفاجىء على قرمونة ، وأخذ القاضى بنصيحتهم وأرسل جيشا يقوده ابنه اسماعيل ومعه محمد بن

عبد الله ، وقدّما سرية من الجيش ، وكمن باقى الجيش ناحيـة أخرى ، وطار الخبر الى يحيى وهو على شرابه وقد أخذ منـه الشراب ، فوثب قائما يقول[1] : « وابياض بختى الليلة وابن عباد زائرى ! » وأمر بالاسراج وتقدم الى أصـحابه وغلمانه وبادر الخروج من باب قرمونة وأصحابه يتلاحقون ، والتأمت عدته فى نحو من ثلثمائة فارس أكثرهم دغل السريرة غير راض عن أسلوبه فى الحكم ، وأسفرت المعركة عن قتله وحز رأسه ، وطير به الى القاضى ابن عباد فى اشبيلية ، فخر ساجدا وسجد من حضر لسجوده ، واستمرت الهزيمة على أصحاب يحيى حتى سـاء ذلك محمـد بن عبد الله وبدت عصـبيته لقومه ، وكلم اسماعيل ابن القاضى فى رفع السيف عنهم ، لأنهم أرغموا على متابعة يحيى . وتم لمحمد ما أراد من حقن دماء قومه ، وأسرع الى قرمونة ورد عليه ملكه .

وزال مؤقتا الخوف من بنى حمـود ، ورأى القـاضى أن الأحوال مناسبة لحلوله مع المشبه بهشام فى قصر الخلافة بقرطبة ، ولكن ابن جهور لم يكن مسـتعدا للتنازل عن نفوذه والغاء وجوده ، فصـارح أهل قرطبة بأن الخليفة المزعوم رجل دجال كذاب ومنع الدعاء لهشام على المنابر ، ولما وصل القاضى الى أبواب قرطبة وجدها مقفلة فى وجهه ، واضطر الى الارتداد لأنه لم يكن معه قوة كافية للاستيلاء على مثل هذه المدينة الكبيرة

---

(١) نقل ابن بسام عن ابن حيان تفاصيل عن هذه الوقعة فى القسم الأول ـ المجلد الأول من كتاب الذخيرة صفحة ٢٧١ .

المحصنة ، فعقد العزم على أن يوجه جيشه الى محاربة الأمير الصقلبى الوحيد الذى رفض الاعتراف بهشام المزعوم وهو زهير العامرى صاحب المرية ، وكان مواليا لبنى حمود ، ولما علم زهير بتأهب جيش اشبيلية لمحاربته عقد اتفاقا مع حبّوس صاحب غرناطة ، واستطاع الجيشان - جيش زهير صاحب المرية وجيش حبّوس صاحب غرناطة - أن يردا هجوم الجيش الاشبيلى ، وكان يمكن أن يتحول الجيشان من الدفاع الى مهاجمة اشبيلية وأحوازها ولكن الحظ ابتسم للقاضى فى هذا الظرف العصيب فقد حدث خلاف بين الحليفين انتهى بقتل زهير العامرى وهزيمة جيشه ، وقد استولى عبد العزيز العامرى على المرية بعد مصرع زهير ، وكانت علاقة عبد العزيز العامرى باشبيلية مرضية ولذلك حوّل القاضى اهتمامه الى مشكلة البربر ، وكان قد وقع الخلاف بينه وبين محمد بن عبدالله البرزالى صاحب قرمونة ، وكان حبّوس صاحب غرناطة قد مات فى تلك الفترة وخلفه ابنه باديس ، وسار باديس فى أول عهده سيرة حسنة ولكن سرعان ما تكشفت حقيقة أخلاقه ، وظهرت قسوته ووحشيته حتى نقم عليه أهل غرناطة وعابوا عليه اسرافه فى الشراب وفى سفك الدماء .

وبدأ القاضى حركة مقاومة البربر بمهاجمة محمد بن عبد الله فى قرمونة ، وقاد جيشه ابنه اسماعيل ، وأحرز انتصارات باهرة واستولى على أشونة واستِجّة ، وحاصر قرمونة ، واستنجد محمد بادريس الحمودى صاحب مالقة ، وكان قد خلف أباه يحيى

عليها بعد مقتله ، وبباديس صاحب غرناطة ، وكان ادريس حينذاك مريضا فأرسل جيشا يقوده وزيره ابن بقَنّة ، وقاد باديس جيشه ، وكان اسماعيل واثقا من قوة جيشه ولذلك أراد الاشتباك مع الجيشين المتحدين فى معركة ، ولكن باديس وابن بقَنّة غلب عليهما الاعتقاد بأن جيش اشبيلية يفوق جيشهما عدداً ، فأحجما عن الاستلحام له ، وشرعا فى الارتحال من نواحى قرمونة ، تاركين صاحبها لمصيره ، وتبع اسماعيل جيش غرناطة فى انسحابه ، فاستغاث باديس بالجيش الذى يقوده ابن بقَنّة واجتمع الجيشان عند استجة وانتظرا قدوم الجيش الذى يقوده اسماعيل ، واعتقد الاشبيليون أنهم يحاربون عدوا آثر الانسحاب من الميدان ولما خاب ظنهم فت ذلك فى عضدهم ، وشاعت الفوضى فى صفوفهم ، وعبثا حاول اسماعيل أن يستثير حميتهم ، ويعيد النظام الى صفوفهم ، وذهب ضحية شجاعته .

ومات القاضى سنة ٤٣٣ بعد أن وضع أساس دولة بنى عباد وأرسى قواعدها . قال عنه الفتح فى المطمح وهو يتحدث عن بنى عباد (١) : « والقاضى أبو القاسم هو جدهم وبه سفر مجدهم ، وهو الذى اقتنص لهم الملك النافر ، واختصهم منه بالحظ الوافر ، فانه أخذ الرئاسة من أيدى جبابر وأضحى فى ظلالها أعيان أكابر عندما أناخت بها أطماعهم ، وأصاخت اليها أسماعهم ، فاقتعد سنامها وغاربها ، وأبعد عنها عجمها وأعاربها

(١) مطمح الانفس صفحة ١٢/١١ .

وفاز من الملك بأوفر حصة وغدت سمته بها مختصـــة ، فلم يمح رسم القضاء ، ولم يتسم بسمة الملك مع ذلك النفوذ والمضاء ، وما زال يحمى حوزته ويجـلو غرته حتى حوته الرجام وخلت منه تلك الآجام » . وكان القاضى أبو القاسم يعد فى عصره من أهل العلم والأدب والمعرفة التامة بتدبير الملك ، وقد دفن بقصره فى اشبيلية .

عهد المعتضد بالله

كان المنظور أن الذى يخلف القاضى أبا القاسم ابنه اسماعيل الذى قاد الجيوش وخاض غمرات الحروب لتثبيت أركان الدولة وتوسيع رقعتها ، ولكن شاء القدر أن يقتل اسماعيل فى أوج مجده وعنفوان قوته وهو يحارب البربر ، وفسح مصرعه الطريق ليرث الولاية أخوه عباد الذى حل محل اسماعيل عند أبيه ، ولقب فى أول أمره بفخر الدولة حاجب الخليفة هشام المؤيد ، وقد اشتهر بعد ذلك بلقب المعتضد ولكنه لم يطلق على نفسه هذا اللقب الا بعد زمن من تسنمه الولاية ، وكانت سنه حينما خلف أباه لا تتجاوز السادسة بعد العشرين .

وكان هذا الرجل من أقوى الشخصيات التى عرفها تاريخ الأندلس فى عصر ملوك الطوائف ، وقد عرف المعتضد بالدهاء وبعد الغور والشدة المتناهية والقسوة البالغة ، وكان مع ذلك أديبا يجيد النظم ، ويحسن تذوق الشعر ، ويجيز الشعراء ، ويشجع الأدب والعلم .

قال عنه ابن بسام فى الذخيرة « المعتضد بالله عباد ابن ذى الوزارتين القاضى أبى القاسم محمد بن عباد ، أفضى اليه الأمر بعد أبيه وتسمى بفخر الدولة ثم بالمعتضد ، قطب رحى الفتنة ، ومنتهى غاية المحنة ، من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد ،

ولا سلم عليه قريب ولا بعيد ، جبار أبرم الأمور وهو متناقض وأسد فرس الطلى وهو رابض ، ثار والناس حرب ، وكل شيء عليه الب ، فكفى أقرانه وهم غير واحد ، وضبط شأنه بين قائم وقاعد حتى طالت يده واتسع بلده ، وكثر عديده وعدده » .

وذكره المؤرخ الأندلسى الشهير ابن حيان وقد عاصره فقال حينما بلغت قرطبة أخبار موته سنة احدى وستين وأربعمائة : « نعى المعتضد عباد زعيم جماعة أمراء الأندلس فى وقته ، أسد الملوك ، وشهاب الفتنة ، وداحض العار ، ومدرك الأوتار ، وذو الأنباء البديعة ، والحوادث الشنيعة ، والوقائع المبيرة ، والهمم العلية ، والسطوة الأبية ، فرماه الله بسهم من مراميه المصمية أحمد ما كان فى اعتلائه وأرقى ما كان الى سمائه وأطمع ما كان فى الاحتواء على الجزيرة توفاه الله من علة ذبحة قصيرة الأمد » .

ويحدثنا ابن بسام عن صورته وأدبه فيقول : « كان عباد أوتى من جمال الصورة وتمام الخلقة ، وفخامة الهيئة وسباطة البنان وثقوب الذهن ، وحضور الخاطر ، وصدق الحس ، ما فاق به على نظرائه ، ونظر مع ذلك فى الآداب قبل ميل الهوى به الى السلطان أدنى نظر بأذكى طبع حصل منه لثقوب ذهنه على قطعة وافرة علقها من غير تعهد لها ، ولا امعان فى غمارها ولا اكثار من مطالعتها ولا منافسة فى اقتناء صحائفها ، أعطته نتيجتها على ذلك ما شاء من تحبير الكلام وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة ، فى معان أمدته بها الطبيعة ، وبلغ فيها الارادة ، واكتتبها

الأدباء للبراعة ، جمع هذه الخلال الظاهرة والباطنة الى جود كف بارى بها السحاب » .

ويقول عنه الفتح فى المطمح : « ارتمى الى أبعد غايات الجود بما أناله وأولاه ، لولا بطش فى اقتضاء النفوس كدَّر ذلك المنهل ، وعكَّر أثناء ذلك صفو العل والنهل ، وما زال للأرواح قابضاً وللوثوب عليها رابضا ، يخطف أعداءه اختطاف الطائر من الوكر ، وينتصف منهم بالدهاء والمكر ، الى أن أفضى الملك الى ابنه المعتمد » .

وقد شبهوه لشهامته وصرامته وشجاعة قلبه وحدة نفسه بأبى جعفر المنصور ثانى خلفاء بنى العباس ، وكان رجلا غامضا لا يسبر غوره ولا يحاط بمداه يأخذ بالحزم فى توقع الحوادث واستطلاع الأمور ويسلك فى عداد الماكرين الموسومين بفرط الدهاء وكانت له نظرة فاحصة تصل الى أعماق السرائر وخفايا النفوس ، وبالرغم من أنه كان شجاعاً مقداما فانه لم يقد جيشه سوى مرتين ، وكان وهو مخدر فى عرين قصره باشبيلية يضع الخطط المحكمة لقواده ، وروى عنه فى أثناء محاربته لبربر قرمونة أنه [1] كان له بها عين يوافيه بأخبار البربر ويطلعه على الأحوال السائدة بالمدينة ، وأراد المعتضد أن يكتب الى ذلك الرجل كتابا فى بعض أمره ، فاستدعى رجلا من أهل اشبيلية شديد البله كثير الغفلة ، وأمره بخلع ثيابه ، وألبسه جبة جعل

(١) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب صفحة ٩٩ .

فى جيبها كتابا وخاط عليــه ، وقال له « اخرج الى قرمونة ، فاذا وصلت بقربها فاجمع حزمة حطب وادخل بها البلد ، وقف حيث يقف أصحاب الحطب ، ولا تبعهــا الا لمن يشــتريها منك بخمســة دراهم ، وكان قد قرر هــذا كله مع صاحبــه الذى بقرمونة ، فخرج البــدوى كما أمره المعتضــد ، فلما قرب من قرمونة جمع حزمة من الحطب ، ولم يكن قبل هذا يعانى جمعه ، فجمع حزمة صغيرة ودخل بها البلد ووقف فى موقف الحطابين ، فجعل النــاس يمرون به ، ويســومون منه حزمتــه ، فاذا قال لا أبيعها الا بخمسة دراهم ضحك من يسمع هذا القول منه ومر عنه ، فلم يزل كذلك الى أن جنَّه الليل والناس يسخرون منه ، فبعضهم يقول هــذا آبنوس ! ويقــول الآخر لا بل هو عود هندى ! وما أشبه ذلك ، حتى مر به صاحب المعتضد ، فقال له « بكم تبيع حزمتك هذه ؟ » فقال « بخمسة دراهم ! » فقال « قد اشتريتها فاحملها الى البيت » ، فقام يحملها والرجل بين يديه حتى بلغ بيته ، فوضع الحزمة ودفع اليه الخمسة الدراهم ، فلما أخذها وهم بالانصراف قال له « أين تريد فى هذا الوقت وقد علمت خوف الطريق ؟ فبت الليــلة عندى ، فاذا أصبحت رجعت الى منزلك » ، فأجابه ، وأدخله الرجل الى بيت وقدَّم له طعاماً ، وسأله كأنه لا يعرفه « من أين أنت ؟ » فقال « أنا من بادية اشبيلية » فقال له « يا أخى ، ما الذى جاء بك الى هذا الموضع وقد علمت نكد البربر وشؤمهم وهوان الدماء عليهم ؟ » فقال « حملنى على هــذا الحاجة » ولم يظهر له أن المعتضــد

أرسله ، فلم يزل الرجل يحادثه الى أن أخذه النوم ، فلما رأى غلبة النوم عليه قال له « تجرد من ثوبك هذا فهو أهنأ لنومك وأروح لجسمك ! » فتجرد الرجل ونام ، وأخذ صاحب المعتضد الجبة ففتق جيبهـا ، واستخرج الكتاب فقرأه وكتب جوابه ، وجعله فى جيب الجبة وخاط عليه كما كان ، فلما أصبح الرجل لبس جبتـه ، ورجع الى اشبيلية ، وقصـد باب دار الامارة واستأذن ، فأدخل على المعتضد ، فقـال له « اخلع تلك الجبة وكساه ثيابا حسانا فرح بها البـدوى ، وخرج من عنده فرحا يرى أنه قد خلع عليه ولم يعـلم فيم ذهب ولا بم جاء ! وأخذ المعتضد الكتاب من جيب الجبة فقرأه وتمم ما أراده من أمره » .

وكانت حيل المعتضـد لا تنفد ، والويل لمن كان يتعرض لغضبه ونقمته فليس ينجيه منه شيء ولا يعصمه من أذاه عاصم ، وسيتبعه بنقمته الى آخر الدنيا ، روى عنه أنه[1] وضع يده على بعض مال لرجـل أعمى من بادية اشـبيلية ، وذهب باقى مال الرجل حتى افتقـر ، ورحل الى مـكة ، فلم يزل يدعو على المعتضد بها الى أن بلغه عنه ذلك ، فاسـتدعى بعض من يريد الحج وناوله حقاً به دنانير مطلية بالسم ، وقال له لا تفتح هذا حتى تدفعه الى فلان الأعمى بمكة ، وسلم عليه عنّا ! فاتفق أن سَلِم الرجل ومعه الحق ، فحين وصـل الى مكة لقى الأعمى ودفع اليه الحق وقال له : « هذا من عند المعتضد » فأنكر ذلك

(١) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب صفحة ٩٨ .

الأعمى وقال « كيف يظلمنى باشبيلية ويتصدق على بالحجاز ؟ » فلم يزل الرجل يخفّضه الى أن سكن وأخذ الحق ، فكان أول شيء فعله أن فتح الحق وعمد الى دينار من تلك الدنانير فوضعه فى فمه ، وجعل يقلب سائرها بيده الى أن تمكن منه السم فما جاء الليل حتى مات .

وكان للمعتضد من وثاقة الجسم وقوة البنية ما مكنه من أن يضطلع بأعباء الحكم الثقال مع الافراط فى الشراب والانغماس فى أنواع المتعة ، وكان هذا الطاغية الجبـار يتلطف مع نسائه ويستميلهن بالقول اللين ، ومن شعره فى تقسيمه زمنه شطرين : شطر لتدبير الملك وشطر للمرح واللهو وادمان الخمر :

لعمرك انى بالمدامة قوال
وانى لما يهوى الندامى لفعال
قسمت زمانى بين كد وراحة
فللرأى أسحار وللطيب آصال
فأمسى على اللذات واللهو عاكفا
وأضحى بساحات الرياسة أختال
ولست على الادمان أغفل بغيتى
من المجد انى فى المعالى لمحتال
اذا نام أقوام عن المجد ضلة
أسهد عينى أن تنام بى الحال
وان رأى أقواما من الناس منطق
يروق بدا منى مقال وأفعال

وكان كلفاً بابتناء القصور العالية ، واعتمار العمارات المغلة ، واقتناء الملابس الفاخرة وغالى الأعلاق ، وارتبط الخيول السابحة ، واتخذ من الرجال الذادة عدداً ليس بالقليل ودربهم على الحرب ليمتنع بهم ويعز على من رامه ويطول ، واتخذ فى ساحة قصره خشبا جللها برءوس الملوك والأمراء الذين قتلهم عوضا عن الأشجار التى تكون فى القصور وكان يقول : « فى مثل هذا البستان فليتنزه » .

وقد استهل حكمه بالخلاص من حبيب وزير أبيه فقتله ، وسار بعد ذلك على السياسة التى بدأها أبوه القاضى ، واتخذ موقف المدافع عن العرب ضد البربر ، واستأنف الصراع الذى بدأه أبوه مع أسرة برزال أصحاب قرمونة ، وكان هناك باعث شخصى يدفعه الى محاولة استئصال شأفتهم ، فقد أخبره قراء الطوالع أن الذين سينتزعون الملك من أسرته ويستذلون ذريته قوم ليسوا من اسبانيا ، ولذلك بذل جهده فى محاربة البربر . وقد قتل محمد بن عبد الله البرزالى فى كمين سنة ٤٣٤ وخلفه ابنه اسحق واستمر النزاع بينه وبين المعتضد .

ولم يكتف المعتضد بمناوشة البربر فى الجنوب بل أخذ كذلك يمد أملاكه فى الغرب ، فانتزع مارتلة من يد ابن طيفور سنة ٤٣٦ وهاجم بعد ذلك فتح بن يحيى أمير لبلة وكان ابن يحيى من العرب لا من البربر ، ولكن المعتضد فى سبيل توسيع أملاكه لم يقم وزنا لهذا الاعتبار ، وقد استنجد ابن يحيى بالمظفر صاحب بطليوس فأجاره وجمع جيشه وأقبل الى لبلة

ناصرا له ودافع ابن عباد عنها ، وشرع المظفر فى تكوين حلف لمقاومة المعتضد من باديس صاحب غرناطة ومحمـــد بن ادريس صاحب مالقة ومحمد صاحب الجزيرة الخضراء وأشفق أبو الوليد ابن جهور الذى خلف أباه أبا الحزم فى الاشراف على حكومة قرطبة ســـنة ٤٣٥ من تلك الحركة على عادته من التخوف من أمثال هـــذه الحركة ، وجهـــد جهده فى التوفيـــق بين الطرفين المتنازعين وأرسل رسله تخوفهم سوء العاقبة ، ولكنه لم يوفق فى مسعاه ، ولج الفريقان فى العناد ، وأعد البربر خطة للزحف على اشبيلية حينما تجتمع أشتات الجيوش ، ولكن المعتضـــد أفسد عليهم تدبيرهم ، فقد انتهز فرصة غيـــاب المظفر وهاجم أحواز بطليـــوس ، وقاد الجيش على خـــلاف عادته الى لبلة ، وهاجم أعداءه فى مضيق على مقربة من أبواب المدينة ، واضطر ابن الأفطس الى التراجع ، ولكنه أعاد تنظيم صـــفوفه وهاجم جيش المعتضد ، وجعله يعود أدراجه وتمكن المظفر من الانضمام الى حلفائه ، وأخذ الحلفاء فى تخريب نواحى اشبيلية ، ولكن الظاهر أن المعتضد استطاع بدهائه أن يحمـــل ابن يحيى على ترك حلفائه ، ولعله حذره عاقبة انتصار البربر ، ومهما يكن من الأمر فان ابن يحيى كوّن حلفـــا مع المعتضـــد ، وكان فى أيام تورطه فى حرب المعتضـــد قد أودع مالا عنـــد المظفر ، فعاقب المظفر ابن يحيى بمصادرة هذا المال ، وأغارت خيـــله على لبلة فاستغاث بالمعتضد ، فلحقت به خيله ، واقتتلت مع خيل المظفر وهزمتها ، ولم يكتف المعتضد بذلك بل أرسل ابنه اسماعيل

على رأس جيش للتخريب فيمـــا حول يابرة ، وأراد المظفر أن يستنهض عزيمة رعيتـــه لمحاربة المعتضد فقـــلد كل من يستطيع القتال سلاحا ، وجاء مدد من حليفه اسحق صاحب قرمونة ، فاعتزم الخروج للقاء جيش المعتضد ، وعبثا حاول بربر قرمونة أن يثنوا عزمه ، وحذروه من ضخامة جيش المعتضد ، ولكنه لم يعبأ بنصحهم وركب رأسه وهزم هزيمة شنعاء ، وفقد فى الميدان ما لا يقل عن ثلاثة آلاف قتيل منهم اسحق أمير قرمونة الذى كان يقود جيش أبيه ، وقد حز رأسه وأرســل الى المعتمد ، واعتصم المظفر ببطليوس وجعــل يشكو الى حلفائه فلا يجد ظهيرا ولا نصيرا ، وسعى ابن جهور أمير قرطبة بينهما بالصلح كعادته سنة ٤٤٣ ، ولما سكنت الحال بين المعتضد وابن المظفر فرغ المعتمد لحرب الأمراء الأصـــاغر بالغرب كابن يحيى وابن هارون وابن مرين والبـــكرى ، وكان ابن يحيى أمير لبله قد أصبح وحيدا بعد تخليه عن حلفائه ، وكان يعلم أنه لا قبل له بمدافعة المعتضـــد فلم يحاول الدفاع عن المدينة وقصـــد قرطبة ليقضى بقية أيامه بهـــا ، وترفق به المعتضد فأرسل معه ثلة من فرسانه لتشيعه فى طريقه الى قرطبة .

وأدرك عبد العزيز البكرى صاحب ولبة وجزيرة شلطيش أنه قد حان وقته وجاء دوره فحاول أن ينقـــذ ما يمكن انقاذه فكتب الى المعتضد يهنئه بانتصاره ويذكره بصلات المودة القديمة بين الأسرتين ويعـــلن قبوله ســيادة المعتضد على ولبة على أن يتنازل له عن جزيرة شلطيش ، وقبل المعتضد هـــذا العرض ،

وقصد ولبة وطلب لقاء عبد العزيز ، ولكن عبد العزيز حمل أمواله الى الجزيرة لأنه وجد من الحزم أن لا ينتظر قدوم المعتضد ، فعاد المعتضد الى قرطبة وأوصى أحد قواده أن يمنع عبد العزيز من مبارحة الجزيرة ويمنع الناس من الذهاب اليها ، ولما علم بذلك عبد العزيز اتفق مع القائد على أن يبيع سفنه ومعداته الحربية لصاحب اشبيلية لقاء ستة آلاف مثقال وحصل على اذن بالارتحال الى قرطبة ، وانتوى المعتضد أن يرسل بعض أعوانه لينهبوا ما معه من المال فى أثناء سفره الى قرطبة ، ولكن عبد العزيز أدرك غايته وسحب معه حرسا أرسله اليه أمير قرمونة ووصل قرطبة سالما ومعه أمواله .

وجه المعتضد هجومه بعد ذلك على مدينة شلب وهى قاعدة كورة أكشونبة وبقبلى مدينة باجة ، ولها بسائط فسيحة ، وبطائح عريضة ، ولها غلات وجنات يقول عنها صاحب الروض المعطار (*) انها : « حسنة الهيئة بديعة البناء » وكان أهلها وسكان قراها فى تلك الفترة عرب من اليمن وغيرها وكلامهم بالعربية الصريحة ، وهم فصحاء يقولون الشعر وهم نبلاء خاصتهم وعامتهم وكانت تحكمها أسرة من بنى مزينة العرب ، وكان لهذه الأسرة أملاك واسعة فى هذا الجزء من شبه الجزيرة ، وقد تقلدوا مناصب هامة فى عهد الخلافة الأموية ، وقد استماتوا فى الدفاع عن مدينتهم ، ولكن جيش اشبيلية شدد الحصار على المدينة وكان يقوده قيادة اسمية محمد بن المعتضد ــ وهو الذى

(*) الروض المعطار صفحة ١٠٦ .

لقب فيما بعد بلقب المعتمد على الله — وكانت سنه حينذاك لا تتجاوز الثالثة عشرة — وقذف ابن مزينة بنفسه فى معمعان المعركة مستهدفا الموت ، ولكن المعتضد أبقى على حياته واكتفى بابعاده عن المدينة واستولى على المدينة وأقام ابنه محمداً حاكما عليها ، ووجه الأمير جيوشه الى مدينة شنتمريّة وهى من مدن أكشونبة وواقعة على المحيط الأطلسى — أو البحر الأعظم كما كان يسميه العرب — وبازائها جزائر فى البحر وكان صاحبها سعيد بن هارون وقد استقل بها منذ موت سليمان المستعين وقد خلفه ابنه محمد عليها بعد موته ، ولما هاجمه الاشبيليون لم تطل مقاومته ، وضم المعتضد ناحية شنتمريّة الى ناحية شلب ، وجعل ابنه محمدا واليا على المنطقتين وذلك سنة ٤٤٤ هجرية .

وبهذه الفتوحات المتوالية السريعة مد المعتضد حدود سيطرته الى الغرب امتداداً كبيرا ، وكان يحاول توسيع أملاكه فى الجنوب ولكن البربر كانوا يعترضون طريقه ويقفون له بالمرصاد ، وقد سالموه وسالمهم فى تلك الفترة واعترفوا له بسلطانه أو بسلطان هشام الثانى المؤيد الذى كان ينوب عنه ويتولى حجابته ، ولكن المعتضد لم يكن الرجل الذى يكتفى بالسيادة الاسمية ، وكان هدفه القضاء على أمراء البربر والاستيلاء على أملاكهم ، ولكنه كان يتمهل ويستأنى فى تنفيذ خطته ويلتزم الحذر ولا يريد أن يتورط فى مثل هذا العمل الضخم الا بعد أن يأخذ له أهبته ويستكمل عدّته .

وقام بعد ذلك بمغامرة تدل على أنه فى بعض الأحايين كان

يخالف ما عرف عنه من فرط الحذر وأخذ الحيطة ، والواقع أن المعتضد على دهائه وحـذره لم يكن تنقصـه الشجاعة ، ففى احدى ليالى سنة ٤٤٤ بعد أن شرب مع رجاله وندمائه خرج فى جنح الليل لا يصحبه سوى خادمين وقصد مدينة مورور لزيارة صاحبها ابن نوح ومدينة رندة لزيارة صـاحبها ابن أبى قرة ، وكان هذان الزعيمان البربريان يعترفان بسيادة اشبيلية وخلافة هشـام الثانى ولكن البربر بوجه عام كانوا يضمرون للمعتضد العداء الشديد والكراهة الصماء ، وقد قوبل فى مورور بحفاوة بالغة وأكد له ابن نوح سروره بالزيارة المفـاجئة ولم يقصر فى اكرامه ، ولكن المعتضد لم يخاطر بنفسه لكرم الوفادة وتبادل التحايا فقـد كان يحاول الوقوف بنفسـه على أحوال المدينة ويستميل بعض أعيان البربر وسرعان ما أدرك أن العنصر العربى من أهل المدينة ناقم على حكم البربر متطلع الى الخلاص منهم وأن العرب ينتظرون الفرصة المناسبة لتحرير أنفسهم من سيطرة البربر وانه يستطيع الاعتماد عليهم فى الوقت المناسب ، ووزع سرا بعض المال على طائفة من البربر البـارزين ولم يفطن ابن نوح لهذه الدسائس التى كانت تحاك حوله .

وتابع المعتضد رحلته الى رندة ، وتلقاه أميرها ابن أبى قرة بالحفاوة والترحيب ولقى فيها نجاحا أكثر مما لقيه فى مورور لأن عرب رندة كانوا أشد سخطا على حكم بنى أبى قرة لأنهم على ما يظهر كانوا أكثر منهم اضطهادا للعرب ، وكاد يفقد حياته فى رندة ثمنا لهـذه المغامرة ، فقد شعر بأنه فى حاجة ماسة الى

الراحة بعد أن تناول الطعام وعب فى الشراب ، وقال لابن أبى قرة آنه يريد أن يستجم قليلا ، وقاده ابن أبى قرة الى الفراش . وتظاهر المعتضد بالنوم ولكنه كان يسمع حديث القوم ، فقال بعض القوم لبعض : « هذا كبش سمين حصل لكم ، والله لو أنفقتم عليه ملك الأندلس ما قدرتم على حصوله فى أيديكم ، وهو شيطان الأندلس ، واذا قتل خلصت لكم البلاد » فقام رجل منهم يدعى معاذ بن أبى قرة وكان من كبرائهم فقال : « والله لا فعلنا هذا ولا رضينا به ، رجل قصدنا ونزل بنا ، ولو علم أنا نرضى فيه بقبيح لما أتانا مستأمنا الينا ، كيف تتحدث القبائل ؟ اننا اذا قتلنا ضيفنا وخفرنا ذمتنا فعلى من يَرْضى هذا لعنة الله » وسمع المعتضد هذا الحديث كله ، ولهض من الفراش وأقبل على القوم فقاموا له بأجمعهم اجلالا وقبّلوا رأسه وجددوا السلام عليه ، فقال لحاجبه : « أين نحن ؟ » فقال له : « فى منزلك وبين أهلك واخوانك » فقال : « ائتونى بدواة وقرطاس » .

فأتوه بهما ، فكتب أسماء القوم ، وكتب لكل واحد بخلعة ودنانير وأفراس وعبيد وجوار ، وأمر أن يرسل كل واحد منهم رسولا ليقبض ذلك ، ثم ركب وخرج القوم يشيعونه الى قرب اشبيلية ، فصرفهم ودخل مدينته ، وأرسلوا من قبض لهم ما كتب به ، ثم أغفلهم ستة أشهر ، وكتب اليهم يستدعيهم لوليمة ، فجاءه ستون رجلا منهم ، فأنزلهم عند رجاله وأنزل معاذاً عنده ، ودعا معهم ابن خزرون صاحب أركش — وهى مدينة

واقعة على نهر وادي لَكَّة ــ وشَرِيش القريبة منها وأعد لهم استقبالا فخما ، وكما كانت العادة المتبعة دعاهم لدخول الحمام ، واختلق عذرا لابقاء معاذ معه ، وذهب زعماء رندة وموررور وأركش الى الحمام الذى أعد لهم وكان يماثل نظائره في البلاد الاسلامية فهو مشيد من الحجارة وأرضه وحيطانه مغطاة بالرخام وله قبة بها نوافذ ركّب بها زجاج غير شفاف ، وكانت مسالك الهواء فيه متصلة بمستوقد وتتخلل الحيطان ولذلك كانت حرارته مرتفعة ، وفى أثناء استمتاع البربر بالحمام سمعوا صوتا خفيضا كأنه صوت البنائين وهم يباشرون عملهم ، ولكنهم لم يعيروه اهتماما ، وبعد قليل أخذت الحرارة تشتد وترتفع وأحسوا بالضيق ، وحاولوا فتح الباب فوجدوه مسدودا فى وجوههم قد بنيت عليه حائط وسدت المنافذ جميعها فماتوا جميعا مختنقين .

وعز ذلك على معاذ بن قره فقال له المعتضد : « لا ترع فانهم قد حضرت آجالهم وقد أرادوا قتلى ولولاك ما كنت ناجيا منهم ، وانما جعل الله صيانة دمى بك ، فان أردت أن أقاسمك فى جميع ما أنا فيه فعلت ، وان أحببت الرجوع الى بلدك رددتك على أجمل الوجوه وأحسنها وأسرها ، فقال له معاذ : « بأى وجه أرجع أنا دونهم » . فأمر له المعتضد بألف ألف دينار وعشر أفراس وثلاثين جارية وعشرة أعبد وأنزل فى قصر من أعظم قصوره ، وأقطعه فى كل عام اثنى عشر ألف دينار ، وكان ينفذ اليه فى كل يوم التحف والطرف ، ولم يكن يحضر أحد مجلسه قبله ، الى أن مات المعتضد ، فأوصى ولده بمعاذ

وقال له : « يا بني احفظني فيه » فجرى ابنه المعتمد على عادة أبيه ، وعاش معاذ فى اشبيلية حتى انقراض دولة بنى عباد .

وأرسل المعتضد بعد هذه الفعلة الشنعاء جيشا للاستيلاء على مورور ورندة وأركش وشريش، وساعدت العرب الكارهون للبربر وحكمهم هذا الجيش ولذلك لم يجد مقاومة تذكر فى اقتحام هذه المدن والاستيلاء عليها ، وكان المنظور أن يجد هذا الجيش صعوبة فى أخذ رُنْدة لأن أبا نصر خلف أباه بها والمدينة واقعة على جبل شاهق ومحفوفة بأجرف صعبة التسلق وهى لذلك تعد من المدن المنيعة ، ولكن العرب المقيمين بها ثاروا بالبربر وأثخنوا فيهم قتلا وهلك أبو نصر نفسه وهو يحاول الهرب والتماس النجاة فقد تسلق حائطا وزلقت قدمه وسقط فى هاوية عميقة لقى بها حتفه .

وسر المعتضد سرورا عظيما باستيلائه على رُنْدة ، وبادر الى تحصينها لتزداد مناعة ولما تم تحصينها ذهب اليها ليشرف بنفسه على تحصينها واستفزه الطرب وتملكه الزهو فنظم أبياتا من الشعر يقول فيها :

لقد حصنت يا رندة ... فصرت للملكنا عقدة
أفادتنيك أرماح ... وأسياف لها حدة
وأجناد أشداء ... اليهم تنتهى الشدة
غدوت يرونني مولى ... لهم وأراهم عدة
وتبلى به نملالتهم ... ليزداد الهوى حدة
فكم من عدة قتلت ... منهم بعدها عدة
نظمت رءوسهم عقدا ... فحلت لبه السدة

وكان المعتضد كلفا بنظم الشعر فى مناسبة تغلبه على البلاد التى يستولى عليها فلما حسب أن اقليم رية قد أصبح ضمن أملاكه نظم هذه الأبيات :

أرية أنت فائــدة الزمــان ... فقد قفت الممالك فى معان
وقد رمناك من بلد بعيــد ... فأدناك الالــه بلا تــوان
بذلنا جهــدنا عزما وحزما ... ووطنا الكماة على الطعــان
وأجهدنا العزائم والمساعى ... وأعملنا الحسام مع السنان
ليهنىء أهل مالقة انتصارى ... واعزازى لهم بعد الهــوان
ســينقذهم وينميهم جميعا ... رضاع الخير ان درت لبانى
وأرقيهم ذرى درج المعالى ... كما أجنيتهم ثمــر الأمانى
وأضعاف الذى يبدى لسانى ... اليهم ما يجــن لهم جنــانى
ألم أعتقهم من ذل كفــــر ... جرى فى ضيمهم ملء العنان

وأكتفى من هذه القصيدة بهذه الأبيات التى تدل على فرط سروره أكثر مما تدل على شاعريته بل ربما أثارت شكوكنا فى امتياز شاعريته .

وبقدر ما أدخل هذا النجاح على نفس المعتضد من السرور والابتهاج أثار ثائرة باديس بن حبوس صاحب غرناطة ، وحينما بلغه نبأ مصرع زعماء البربر فى حادثة الحمام شق ثيابه وأطبق عليه الحزن وتملكه الغضب ، وحينما علم أن أهل رندة من العرب قاموا قومة رجل واحد وعمدوا الى قتل البربر تمادى به الكرب وخشى أن يكون عرب غرناطة متآمرين مع ابن عباد على حياته وعرشه وساءت حالته النفسية الى حد أن وسوست له نفسه

بقتل العرب المقيمين فى داخل مملكته ، ولم يثنه عن هذا الخاطر النكد الا نصيحة المقربين منه ومستشاريه وحينما التجأ الى حماه البربر النازحون من موروور وأركش وشريش ورندة صمم على معاقبة حاكم اشبيلية عدو البربر ، وقام على رأس جيشه بهجوم على منطقة اشـبيلية ومعه البربر النازحون ، ونشبت معارك بين الاشبيليين ورجال باديس لم يسجل التاريخ أخبارها وتدل شواهد الأحوال على أنها كانت معارك شديدة دامية لأن البربر كانوا موتورين وأهل اشبيلية كانوا يكرهون بربر غرناطة بوجه خاص ويعدونهم من أعداء الاسلام ، وقد عبر عن عواطفهم أبو بكر بن عمار وهو يمدح المعتضد بقصيدته المشهورة التى يقول فى مطلعها :

أدر الزجاجـة فالنسـيم قد انبرى
والنجم قد صرف العنان عن السرى

وذلك بقوله فى هذه القصيدة :

شـقيت بسـيفك أمة لم تعتقـد
الا اليهـود وان تسـموا بربرا
أثمرت رمحـك من رءوس كماتهم
لمـا رأيت الغصـن يعشق مثمرا
وخضبت سيفك من دماء نحورهم
لما عهـدت الحسن يلبس أحمـرا

وكانت حالة اللاجئين تبعث على الشفقة ، فقد أبى المعتضد رجـوعهم الى بلادهم ورفض باديس اقامتهم فى غرناطة ، ولما

جاوزوا بحر الزقاق الى سبتة منعهم حاكمها سقوت من الاقامة بها ، وكانت افريقية تعانى مجاعة وقحطا فى ذلك الوقت مما أدى الى هلاك أكثرهم .

وفى سنة ٤٥٠ استولى المعتضد على الجزيرة الخضراء ، وقد انتزعها من يد القاسم بن حمود أضعف أمراء البربر فى ذلك الوقت .

ووجد المعتضد أنه لا حاجة به الى الخليفة هشام الدعى أو خلف الحصرى فقد اتسع ملكه وثبتت قوائم عرشه فأعلن وفاته ، وقد يكون الرجل قد مات موتا طبيعيا وقد يكون المعتضد قد رأى أن يتخلص منه بالقتـــل ، ومهما يكن من الأمر فانه دعا وجوه حضرته ونعى لهم امامهم وكشف لهم مقدم وفاته من علة زمانية ووصف أن الحالة التى كان بسبيلها من اشتداد الفتنةعاقته يومئذ عن البوح بوفاته ، فلما سكنت الحال وجب التصريح ، وهكذا انتهت هـــذه التمثيلية التى قال فيها شـــيخ مؤرخى الأندلس ابن حيان وفقيهها الكبير ابن حزم انها أخلوقة كبرى وأكذوبة لم يعرف الدهر لها نظيرا ، ولقد وجد القاضى أبو القاسم وابنه المعتضد فى هذه الأسطورة سندا للسياسة التى جريا عليها وكثيرا ما استعانت السياسة بالأسطورة ، وتشبه قصة خلف الحصرى من بعض الوجوه قصة الشاب البولندى الذى ادعى انه الأمير ديمترى بن ايفان الرابع من الأسرة المسكوفية ودخل موسكو دخول الظافر سنة ١٦٠٥ ولما أظهر ميله الى البولنديين ثار به الروسيون وقتلوه .

واحتفل المعتضد بدفن جثة خلف الحصرى أو هشام المزيف احتفالا فخما ومشى فى جنازته بوصفه الحاجب وقد خلع طيلسانه وأرسل البرد بنعيه الى حلفائه فى شرق الأندلس وطلب اليهم اختيار خليفة جديد ليبايعوه ، ولم يفكر أحد بطبيعة الحال فى أن يخطو خطوة فى سبيل تنفيذ ذلك ، فاغتنم المعتضد هذه الفرصة وأعلن أن الخليفة السابق عهد اليه أن يكون أميرا على الأندلس جميعها بعده ، ووقف المعتضد جهوده بعد ذلك على تحقيق هذه الغاية ، وعقد العزم على أخذ قرطبة لكنه صادف فى هذا السبيل خيبة أمل شديدة .

بدأت جيوشه تشن غارات متوالية على قرطبة ، وفى سنة ٤٥٥ أمر اسماعيل أكبر أولاده وقائد جيوشه أن يستولى على مدينة الزهراء ، فلم يخف اسماعيل الى طاعة أمر أبيه وكان قد بدأ منذ زمن يظهر استياءه من والده ونقمته عليه ويشكو قسوته فى معاملته وتعريضه للمهالك والقذف به فى المواقف الخطرة والمعارك الطاحنة وحصار المعاقل المنيعة دون امداده بالعدد الكافى من الجند وتزويده بالمعدات المناسبة ، وكان فى اشبيلية رجل مغامر يدعى أبو عبد الله البزليانى ، وقد هجر هذا الرجل مالقة حينما استولى عليها باديس ، وكان يطمع فى أن يكون حاجبا ويريد الوصول الى ذلك بأية طريقة ، وأراد أن يستغل الخلاف بين اسماعيل وأبيه لتحقيق أطماعه ، فعمل على توسيع شقة الخلاف وأخذ يحرض اسماعيل على الخروج على طاعة أبيه وزين له الاستقلال باحدى الامارات التابعة لأبيه

مثل الجزيرة الخضراء ، وكان غضب اسماعيل حينما تلقى أمر أبيه بمهاجمة الزهراء فى حاجة الى قليـــل من التحريض ليبلغ الذروة وينتهى الى الغاية ، وطلب اسماعيل من أبيه أن يمده من الجند بأكثر من العدد الذى وكل اليه قيادته ، ورفض المعتضد اجابة هذا الطلب ، وعبثا حاول اسماعيل أن يوضح له أن القوة التى يقودها ليست كافية للاستيلاء على الزاهرة ومنازلة حكومة قرطبة ، وأن باديس وهو حليف أمير قرطبة لن يقصر فى مساعدة أهل قرطبة ويعـــرض ذلك جيشه للوقوع بين نارين ، ولكن المعتضد أصر على رأيه ولم يقدر الحجج التى قدمها نجله ، واتهمه بالجبن ، وهدده بالقتل اذا امتنع عن تنفيذ الأمر الذى أصدره اليه .

وخرج اسماعيل من حضرة والده غاضبا ثائرا فلما استشار البزليانى فى الأمر أقنعه بأن ساعة تنفيذ الخطة التى اتفقا عليها قد دنت ، فلما كان الجيش على مسيرة يومين من اشبيلية أبلغ قادة الجند أن أباه أرسل يستدعيه لأمر هام ، وقفل راجعا مع البزليانى وصـــحب ثلاثين فارسا من فرسان الحـــرس وقصد اشبيلية ، ولم يكن المعتضد فى اشبيلية وانما كان فى حصن الزاهر الواقع على الضفة المقـــابلة من نهر الوادى الكبير ، ووجـــد اسماعيل أن قلعة اشبيلية قليلة الحراس فاستولى عليها فى جنح الليل وأوقر ظهور البغال بالنفائس التى أخذها من قلعة أبيه ، ولكى يمنع تسرب الأخبار الى أبيه أمر باغراق الزوارق الراسية

الى جانب الحصن ، وحمـــل معه والدته وبعض نساء القصر ومضى مسرعا الى الجزيرة الخضراء .

وبالرغم من تكتمه واخفاء حركاته فان أحـــد الفرسان نقل الخبر الى والده لأنه لم يكن راضيا عن سلوكه ، وقد سبح في النهر لابلاغه ذلك ، فأنفذ المعتضد في اثره كتائب من الفرسان لتأخذ عليه مسالكه وبعث بالرسل الى حكام الحصون والقلاع ، ووافتهم أوامره في الوقت المناسب ، ووجد اسماعيل أن أبواب الحصون جميعها مقفلة في وجهه ، ولما كان يخشى أن يقع في يد القشتاليين فقد التمس الحماية من حسداى حاكم أحد الحصون الواقعة في اقليم شذونة ، ووافق حســـداى ولكنه اشترط أن يظل اسماعيل ورجاله عند سفح الجبل ، ونزل اليه في جماعة من جنده ونصح له بالعودة الى طاعة والده والسعى في مصالحته والتماس عفوه ، ورأى اسماعيل أن خطته لم تنجح فقبل مشورة حسداى ونزل على رأيه ، وأذن له حينذاك حسداى بدخـــول الحصـــن وعامله المعـــاملة اللائقة بمكانته وبادر بالكتابة الى المعتضد ، وذكر له أن اسماعيل نادم على ما فعل وأنه يرجو صفحه ويلتمس رضاه ، وتلقى حسداى رســـالة من المعتضد أعرب فيها عن استعداده لقبول عذر نجله والصفح عنه فعاد اسماعيل الى اشبيلية ورد والده اليه أملاكه ولكنه أقام حوله حراسة شديدة ، وأمر بقتل البزلياني والذين اشتركوا معه ، وكان اسماعيل يعلم شـــدة حرص والده على الانتقام ولذلك أدرك أن العفو عنه لم يكن سوى شرك استدرجه به والده

وصمم على قتل أبيه ، واستمال بعض الحراس والخدم ، وجمعهم بالليل وقدم لهم الشراب ليزيدهم جرأة وتسلق معهم ناحية من القصر رآها صالحة للمفاجأة وجال فى ظنه أنه سيجد والده يغط فى النوم فيجهز عليه ، وكأن المعتضد كان يتوقع مثل هذه المفاجأة فانه سرعان ما ظهر على رأس حرسه ففر المتآمرون وحاول اسماعيل أن يتسلق سور المدينة ولكن الحراس تعقبوه وأسروه ، واشتد الغضب بأبيه فجره الى داخل القصر وأمر الخدم والحراس بالخروج وقتله بيده ، ونكل بشركائه وأصدقائه وخدمه وحتى بنساء حريمه ، ولما هدأت ثورته ، وزالت حدة غضبه استولى عليه حزن شديد ويأس مؤلم ، وقد أخطأ ابنه وأثم فى حقه ولكنه لم ينس حبه له فقد كان المعتضد على جبروته وقسوته شديد الحب لأفراد أسرته وبخاصة نجله اسماعيل الذى كان يعهد فيه العقل الرشيد والتفكير الناضج والشجاعة فى خوض الغمرات ومعاناة الحروب ، ويرى فيه الانسان الجدير بوراثة عرشه واكمال خططه واتمام رسالته وقد علت سنه ، وأفادت هذه الحادثة أهل قرطبة فقد تركها المعتضد آمنة فى سلام .

وقد ترك مصرع اسماعيل جرحا عميقا فى نفس أبيه ، ولكن المعتضد لم يكن الرجل الذى يستسلم للحزن وينسى مطامعه ، وكان دأبه أن يسير الى تحقيق أهدافه بخطى ثابتة غير مترددة. وكانت محاولاته وجهوده منتجهة الى تحقيق غرض لا يتغير وهو بسط سلطانه على الأندلس جميعها ، وقد وصل بالمثابرة الدائمة

والكد المتواصــل الى تحقيق جانب من أطماعه ، ولكن كان لا يزال أمامه الكثير .

وكان العرب فى مالقة قد ضاقوا ذرعا بحكم باديس ، وكانوا يعرفون أن المعتضـــد طاغية جبار مثل باديس ولكنهم كانوا يفضلون طاغية من جنسهم على طاغية من جنس آخر ، ولذلك فاوضوا المعتضد ودبروا معه مؤامرة ، وكان باديس يشجعهم على المضى فى الاستعداد لهذه المؤامرة بادمانه الشراب وتهاونه فى شئون الدولة ، وفى اليوم المحدد لتنفيذ المؤامرة اشتعلت نيران الثورة فى عاصمته وفى خمسة وعشرين حصنا من حصونه ، وفى الوقت نفسه عبرت الحدود جيوش اشبيلية يقودها محمد المعتمد بن المعتضد لمساعدة الثائرين ، وأذهلت المفاجأة البربر فاستحر فيهم القتل ولم ينج منهم الا من ابتدر الفرار ، وفى أقل من أسبوع أصبحت الولاية برمتها فى يد أمير اشبيلية ، ولم يمتنع عن التسليم سوى حصن مالقة ، وكان هذا الحصن شديد المناعة وواقعا على قمة جبل وحراسه من الزنوج ، وكان فى وسعه أن يقاوم زمنا طويلا ، ولذلك كان يخشى أن يفيد باديس من تأخير التغلب على هذا الحصن ويجىء لمساعدة المدافعين عنه ، وكان هــذا رأى زعماء الثائرين وقد نصحوا محمدا المعتمد بتشديد الحصار على الحصن وأن لا يغفل عن مراقبته ولا يضع ثقته فى جماعة البربر المحيطين به والذين يكونون جزءا من جيشه ، ولكن المعتمد لم يعر نصيحتهم الاهتمام الكافى وعكف على الشراب والاســتمتاع وأعجب أهالى المدينة بدماثة خلقه

وكريم خـــلاله ، واغتر هو بما قاله زعماء البربر في تهوين أمر الحصن وكانوا يخدعونه لميلهم الخفى الى باديس ، وأدخلوا فى روعه أن الحصن لا يلبث أن يفتح أبوابه وتستسلم حاميته ، وأهمل جيش المعتمد الحراسة ولم يتخذ الحيطة اللازمة ، وكانت عواقب هذا الاهمال شـــديدة الشؤم فقد طير حراس الحصن الخبر الى باديس ووصفوا له حال جيش المعتمد ، وذكروا له أن مفاجأة الجيش الاشبيلى ميسورة وأرسل باديس كتائبه فلم تجد مجالا للحرب والنزال وانما أصابت فرصة للقتل والابادة فقد كان جنود اشبيلية متفرقين فى ارتياد الملذات ، وأصحاب المعتمد كانوا عاكفين على الشراب ، وهرب المعتمد الى رندة ، وأخفقت الحملة ، واسترد باديس ولايته وعاد الى قاعدته .

وغضب المعتضد غضبا شديدا على ابنه الذى أضاع ولاية وبدد جيشا ، وأمر باعتقاله فى رندة ونسى ندمه على قتل أكبر أبنائه وهم بقتل المعتمد لاهماله وتقاعده واضاعة فرصة ثمينة لا تسنح فى كل وقت ، وهى الاستيلاء على مالقة .

وكان المعتمد يجهل المدى الذى وصل اليه غضب أبيه فأخذ يرسل اليه القصائد يمدح فيها كرمه ، ويلتمس عفوه ، ويستميل قلبه ، ويطلب رضـــاه ويهون عليه الخسارة بالاشادة بسابق انتصاراته ، وباهر فتوحاته ، وحاول أن يبرىء نفسه ويلقى عبء اللوم على البربر الخونة ووصف ما انتابه من الحزن لاخفاق الحملة وما ألم به من الكرب ، وأنه قد أصبح زاهدا فى كل متع

الدنيا ولا يرجو شيئا سوى عفو والده ، وقال فى أولى هذه القصائد التى استعطف بها أباه :

سكن فؤادك لا تذهب بك الفكر
ماذا يعيد عليك البث والحذر
وازجر جفونك لا ترض البكاء لها
واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبر
وان يكن قدر قد عاق عن وطر
فلا مرد لما يأتى به القدر
وان تكن خيبة فى الدهر واحدة
فكم غزوت ومن أشياعك الظفر
ان كنت فى حيرة من جرم مجترم
فان عذرك فى ظلمائها قمر
كم زفرة فى شغاف القلب صاعدة
وعبرة من شئون الدهر تنحدر
فوض الى الله فيما أنت خائفه
وثق بمعتضد لله يغتفر
واصبر فانك من قوم ذوى جلد
اذا أصابتهم مكروهة صبروا
من مثل قومك من مثل الهمام أبى
عمرو أبيك له مجد ومفتخر
سميدع يهب الآلاف مبتدئا
ويستقل عطاياه ويعتذر

له يد كل جبار يؤيدها
لولا نداها لقلنا انها حجر
يا ضيغما يقتل الفرسان مفترسا
لا توهنني فاني الناب والظفر
وفارسا تحذر الأبطال صولته
صن عبدك القن فهو الصارم الذكر
هو الذي لم تَشِم يمناك صفحته
الا تأتى مراد وانقضى وطر
قد أخلفتني ظروف أنت تعلمها
وغال مورد آمالى بها كدر
فالنفس جازعة والعين دامعة
والصوت منخفض والقلب منكسر
وحلت لونا وما بالجسم من سقم
وشبت رأسا ولم يبلغنى الكبر
ومت الا ذماءً فىّ يمسكه
أنى عهدتك تعفو حين تقتدر
لم يأت عبدك ذنبا يستحق به
عتبا وها هو ناداك يعتذر
ما الذنب الا على قوم ذوى دغل
وفى لهم عهدك المعهود اذ غدروا
قوم نصيحتهم غش وحبهم
بغض ونفعهم ان صرفوا ضرر

يتميز البغض فى الألفاظ ان نطقوا
ويعرف الحقد فى الألحاظ ان نظروا
ان يحرق القلب نفث من مقـالهم
فانمـا ذاك من نار القـلى شرر
مولاى دعـوة ممـلوك به ظمـأ
برح وفى راحتيك السلسل الخَصر
أجب نداء أخى قلب تملـكه
أسى وذى مقلة أودى بها السـهر
لم أوت من زمنى شـيئا ألذ به
فلست أعهـد ما كأس ولا وتر
ولا تملكنى دل ولا خفـر
ولا سبى خلدى غَنج ولا حور
رضـاك راحة نفسى لا فجعت به
فهو العتـاد الذى للدهر يدخـر
هـو المدام التى أسـلوا بها فاذا
عـدمتها عبثت فى قلبى الفـكر
أجل ولى راحة أخـرى كلفت بها
لنظم الكلى فى القنـا والهام تنتثر
ما تركى الخمر من زهد ولا ورع
فلم يفـارق لعمرى سنى الصـغر
وانمـا أنا سـاع فى رضـاك فان
أخفقت فيه فلا يفسح لى العمـر

ما سرنى وأحاشى عصـــر عطفكم
يوم أخـــل به فى عينى القصــَرُ
كم وقعة لى فى الأعـــداء واضحة .
تفنى الليـــالى وما يفنى لها الخبر
لا زلت ذا عـــزة قعســـاء شامخة
لا يبلغ الوهم أدناها ولا الصـــبر
ولا يزل وزر من حســـن رأيك لى
آوى اليـــه فنعم الكهف والوزر

وكان المعتضد ممن يهزهم الشعر ويؤثر فى نفوسهم ، ولم يكن المعتمد يطيل فى قصائده وأكثر شعره مقطوعات يبث فيها خوالج نفسه ولكنه تعمد الاطالة فى هذه القصيدة على غير عادته لأنه عرف شدة غضب أبيه ، وأراد أن يستلين قلبه ، ويلتمس عفوه ، ولم يكتف بهذه القصيدة التى استوفى بها شرح قضيته ، ووصف حالته ، بل تبعها بمقطـــوعات أخرى يكرر اعتـــذاره ويعترف بخطئه ويرجو الصفح والغفران منها قوله :

أيا ملكا يجل عن الضريب ... ومن يلتذ غفـــران الذنوب
ومن فى كفه بؤسى ونعمى ... تصرف فى العدو وفى الحبيب
تسخطك الممض أعل نفسى ... ومالى غير عفوك من طبيب
ولست بمســـكر ذنبى ولكنـ ... ـى قد جئت فى حال المريب
فان عاقبتنى فجـــزاء مثلى ... وان تصفح فليس من الغريب
بقيت مـــؤيدا ما لاح برق ... وما غنى الحمام على قضيب

ومنها هذه المقطوعة التى أرسلها اليه ليسترضيه بها فى هذه المناسبة :

مولاى أشكو اليك داءً ... أصبح قلبى به جريحا
ان لم يرحه رضاك عنى ... فلست أدرى له مريحا
سخطك قد زادنى سقاما ... فابعث الىّ الرضا مسيحا
واغفر ذنوبى ولا تضيق ... عن حملها صدرك الفسيحا
لو صور الله للمعالى ... جسما لأصبحت فيه روحا

وقد استطاع المعتمد بهذه الأشعار البليغة المؤثرة أن يستل الغضب من نفس أبيه ويستعيد رضاه عنه فسمح له بالعودة الى اشبيلية ، والأشعار التى كان يرسلها المعتمد الى أبيه تدل بوجه عام على ما كان يكنه لأبيه من الاجلال والاعظام ، وفى أكثر المقطوعات التى كان يوجهها الى أبيه كان يجعل نفسه فى مكان العبد الشاكر ويرخص قدره ليعلى من قدر أبيه ، من ذلك قوله :

ألا يا مليكا ظل فى الخطب مفزعا
ويا واحدا قد فاق ذا الخلق أجمعا
ترفق بعبد وده لك شيمة
اذا كان ود من سواه تصنعا
أقلنى تجد عبدا شكورا وصارما
يحز من الأعداء ليتا وأخدعا

وهو لم يكتف بأن يجعل نفسه فى مخاطبته لأبيه « عبدا » وكأنه استكثر أن يكون عبدا فجعل نفسه « عبيدا » فى قوله :

مولاى يا ذا الأيادى ... كواكفات الغوادى
أنا عبيد معد ... لحسم داء الأعادى

وبعث الى أبيه مرة أبياتا من الشعر يطلب بها جوادا فرأى أن يقرن هذا الطلب بذكر « العبودية » فقال :

لعبــدك همة هامت بركض الضمــر القود

وواضح أن المعتمد كان يشعر بأن أباه الطاغية الجبار يروقه مثل هذا الخضوع ، وكان بمثل هذا الشعر يتقى غضباته ويأمن شره ، واقدام المعتضد على قتل ابنه اسماعيل بيده جعل أقرب الناس اليه وخاصته يخشون بأسه ويهابون سطوته .

وفى عهد المعتضد قويت حركة الاسترداد الاسبانية فقد استطاع فرناندو الأول ملك قشتالة وليون أن يوجه جيوشه لمحاربة مسلمى الأندلس ، وكانت تحدو رجاله الروح الحربية والحماسة الدينية ولذلك أحرز انتصارات باهرة ، ولم يكن فى وسع أحد من ملوك الطوائف أن يكون له نداً أو أن يثبت أمام هجوم جيوشه ، ولم يجد المظفر صاحب بطليوس والمأمون سيد طليطلة وحاكم سرقسطة حيلة يدفعون بها شر فرناندو ويستبقون بها نفوذهم ســوى أن يقدموا له كميات وافرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة والاعتراف بسلطانه وأداء الجـزية السنوية له .

وفى سنة ٤٥٥ جاء دور المعتضد ، فأخذت جنود فرناندو تعيث فسادا فى منطقة اشبيلية ، وتحرق القرى ، وكان المعتضد أقوى ملوك الأندلس المسلمين ، ولكنه لم يكن له طاقة على مقاومة جيش فرناندو ، ولذلك وجــد من الحزم أن يصنع كما صنع أضرابه من ملوك الطوائف ، فزار معسكر فرناندو وقدم

له الهدايا الثمينة وتوســل اليه أن يبقى عليه ملكه ، ولم تكن سن المعتضد حينما مثل بين يدى فرناندو قد تجاوزت السابعة بعد الأربعين ، ولكن الاكباب على العمل واحتمــال التبعات الثقــال ومعاناة الهموم التى تخترم الجسيم نحافة والافراط فى الشهوات أنهكت جسمانه ، وهدت وثيق بنيــانه ، فبدا أمام فرناندو شــيخا أبيض الشــعر متغضن الجبين قد عــلاه وقار الشيخوخة وجلله الشعر الأبيض مهابة مما أثر فى نفس فرناندو وجعله يستجيب لرجائه ويكتفى بقبول الهدايا الثمينة وفرض الجزية السنوية .

وكان المعتضد فى السنوات الأخيرة من حياته ، كاسف البال مكروبا قد أطبقت عليه الشجون وتناهبته الخواطر السود ، ولم يكن يخشى على عرشه الذى ارتكب كل ضروب القسوة لتثبيت قوائمه من القشتاليين أو غيرهم من سكان الجزيرة ، فقد أخبره المنجمون وأصحاب الملاحم وقراء الطوالع أن خالعيه أو خالعى ولده ومخرجيه من ملكه قوم يأتون من العدوة ، وقد اعتقد فى بادىء الأمر أن هؤلاء القوم هم جيرانه من البربر الوافدين على الأندلس ولكن بعد أن تغلب عليهم وابتز ملكهم وظن أنه قد كذّب المنجمين وأبطل أحكام قراء الطوالع وجد أنه قد أخطأ فى حسبانه ، ففى الجانب الآخر من مضيق بحر الزقاق ظهر زعيم دينى جليل الشأن عظيم الخطر تجمعت حوله جمــوع غفيرة من بربر الصحراء الكبرى ، وقويت حركته ، وتفاقم خطره ، وبلغ المعتضد نزول هذا الزعيم ورجاله من قبيلتى لمتونة ومسوفة ـــ

وهما من قبائل البربر — رحبة مراكش ، فكثرت مخاوفه ، ودخل عليه بعض وزرائه وفى يده كتاب قد أطال فيه النظر ، فاذا به من سقوت المنتزى يومئذ بسبتة يذكر أن القوم الملثمين المدعوين بالمرابطين قد وصلت مقدمتهم رحبة مراكش ، فقال له الوزير المذكور حينما شاهد فرط اهتمامه بهذا الخبر : « وأين رحبة مراكش ؟ ودخلوها فكان ماذا ؟ ان بيننا وبينهم اللجج الخضر والمهامه الغبر والليالى والأيام والجماهير العظام » .

فأجابه المعتضد « هو والله الذى أتوقعه وأخشاه ، وان طالت بك حياة فستراه ، اكتب الى عاملنا على الجزيرة باحتراس جبل طارق حتى يأتيه أمرى » وأخذ يريش فى تحصينه ووضع أرصاده هناك وعيونه .

وجمع ولده وجعل ينظر اليهم مصعداً ومصوباً ويقول : « ياليت شعرى من تناله معرة هؤلاء القوم أنا أو أنتم ؟ » فقال له أبو القاسم — المعتمد — « جعلنى الله فداك وأنزل بى كل مكروه يريد أن ينزل بك ! » ويقول المراكشى الذى روى لنا هذه الرواية [١] : « انها كانت دعوة وافقت المقدار » .

والواقع أن المعتضد كان لا يغفل عن مراقبة التيارات السياسية والأحداث الهامة التى تقع فى عصره ، وقد ترامت اليه أخبار حركة المرابطين وتقدمهم السريع ، وكان هو من أسبق أمراء الأندلس الى تقدير خطورة هذه الحركة وادراك ما تنطوى

---

(١) المعجب صفحة ١٠١ .

عليه من تهديد للأمراء والملوك الأندلسيين ، ولذلك أوصى عامله على الجزيرة الخضراء أن يكون شديد اليقظة ، كامل الأهبة ، وأن يديم مراقبة حركة المرابطين .

وتداعت بنيته القوية ، ودب فيها المرض ، وأصابته علة الذبحة فلم تطل مدتها ، ولما أحس بتدانى حمامه استدعى مغنيا يغنيه ليجعل أول ما يبدأ به فألا ... فأول ما غنى :

نطوى الليالى علماً أن ستطوينا   فشعشعيها بماء المزن واسقينا

فتطير من ذلك ، ولم يعش بعدها سوى خمسة أيام ، وقيل انه ما غنى منها الا بخمسة أبيات ، وشاءت الأقدار أن يذهب المعتضد الى قبره مكلوم الفؤاد موجع النفس فقد فجع بابنة له غضة السن صغيرته أصابها الخناق فشيعها الى القبر دامع العين مسلوب العزاء متأجج الحسرات وعزاه عن فقدها الشاعر الأندلسى الكبير الوزير ابن زيدون بقصيدة بليغة يقول منها :

سرّك الدهر وساء   فاقن شكرا وعزاء
كم أفاد الصبر أجرا   واقتضى الشكر نماء
أنت ان تأس على المف   قود الفا واجتباء
فاسل عنه غيرة واحـ   ـتمل الرزء اباء
أيها المعتضد المنـ   ـصور مليت البقاء

ولكن هذه الدعوة التى أرسلها شاعره لم تستجب فان بقاءه لم يطل بعد ابنته العزيزة عليه ، وقد توفيت يوم الخميس وكان قد مضى يومان على سماعه المقطوعة التى تغنى بها المغنى وتشاءم المعتضد منها ، وشيعها الى القبر مساء يوم الجمعة ،

وبعد انتهاء الاحتفال بالجنازة شكا ألما شديدا فى رأسه وأصابه فى عقبه نزيف كاد يذهب بحياته ، وأراد الطبيب أن يفصده ، ولكنه تمرد على أمر الطبيب وأمره أن ينتظر الى الغد التالى ، وزاد هذا التأخير حالته خطورة واشتد النزيف فى اليوم التالى وهو يوم السبت ثم فقد النطق ، ولفظ النفس الأخير (١) يوم الاثنين غرة جمادى الآخرة سنة ٤٦١ ودفن ثانى يوم بمدينة اشبيلية ، وقام بالمملكة بعده ابنه أبو القاسم محمد الذى اتخذ فيما بعد لقب المعتمد على الله ، وفى ذلك يقول الحصرى (٢) :

مات عباد ولكن   بقى الفرع الكريم
فكأن الميت حى   غير أن الضاد ميم

وقد رثاه ابن زيدون بقصيدة طويلة حسنة النظم جيدة السبك مثل سائر شعر هذا الشاعر القدير قال فى مطلعها :

هو الدهر فاصبر للذى أحدث الدهر
فمن شيم الأحرار فى مثلها الصبر
ستصبر صبر اليأس أو صبر وحشة
فلا تؤثر الوجه الذى معه الوزر
حذارك من أن يعقب الرزء فتنة
يضيق بها عن مثل ايمانك العذر
اذا آسف الثكل اللبيب فشفه
رأى أقدح الثكلين أن يذهب الأجر

(١) وفيات الأعيان الجزء الرابع صفحة ١١٥ .
(٢) نفح الطيب الجزء الخامس صفحة ٣٧٧ .

مصـــاب الذى يأسى بمـــوت ثوابه
هو البَرْح لا الميت الذى أحرز القبر
حيـــاة الورى نهـــج الى الموت مهيع
لهم فيه ايضاع كما يوضـــع السفر
اذا الموت أضحى قصـــد كل معمـــر
فان ســـواء طـــال أو قصر العمـــر
وعرج على ذكرى المعتضد فقال :
ألم تـــر أن الدين ضـــيم ذمـــاره
فلم تغن أنصـــار عديدهم كـــثر
بحيث اســـتقل الملك ثانى عطفـــه
وجرر من أذياله العســـكر المجـــر
أأنفس نفس فى الورى أقصد الردى
وأخطر علق للهدى أفقـــد الدهر
أعبـــاد يا أوفى المـــلوك لقـــد عدا
عليك زمان من سجيتـــه الغـــدر
فهلا عـــداه أنّ عليـــك حَلْيَه
وذكرك فى أردان أيامـــه عطـــــر
غشيت فلم تغش الطراد ســـوابح
ولا جردت بيض ولا أشرعت سمر
لئن كان بطن الأرض هنيء أنســـه
بأنك تأويه لقـــد أوحش الظهـــر

ولا ثنت المحذور عنك جلالة
ولا عدد دثر ولا نائل غمر

وانتقل الى ذكر خليفته المعتضد محمد أبى القاسم المعتمد فقال :

فهل علم الشلو المقدس أننى
مسوغ حال ضل فى كنهها الفكر
وأن مكانى لم يضعه محمد
خليفتك العدل الرضا وابنك البر
وأرغم فى برى أنوف عصابة
لقاؤهم جهم ولحظهم شزر
اذا ماستوى فى الدست عاقد حبوة
وقام سماطا حفله فلى الصدر
وفى نفسه العلياء لى متبوأ
يساجلنى فيه السماكان والنسر
لك الخير ان الرزء كان غيابة
طلعت لنا فيها كما طلع البدر
فقرت عيون كان أسخنها البكا
وقرت قلوب كان زلزلها الذعر

ويختم ابن زيدون قصيدته العصماء بمدح المعتمد قائلا :

عطاء ولا من وحكم ولا هوى
وحلم ولا عجز وعز ولا كبر

قد استوفت النعماء فيـك تمامها (1)
علينا فمنـا الحمـد لله والشكر

---

(1) قال ابن بسام فى الذخيرة (فى القسم الأول ــ المجلد الأول صفحة ٣٦٩) بعد أن أورد طائفة من أبيات القصـيدة التى أشرت اليها وذكرت ما يناسب المقام من أبياتها : « وبلغنى أنه وجد لابن زيدون اثر مرت عباد (المعتضد) شعر يقول فيه :

لقـد سرنا أن النـعى مـوكل بطاغية قد حُمّ منه حِمـام
تجانب صوب المزن عن ذلك الصدى ومر عليه الغيث وهـو جَهَام

والمعروف عن حياة الشاعر الناثر القدير ابن زيدون أنه نشأ فى قرطبة ، ونبغ فى الأدب ، وتقلد الوزارة لأبى الوليد بن جهور أحد أمراء الطوائف ، وظل موضع ثقته زمنا طويلا ، وتمكن من دولته ، واعتمد عليه فى السفارة بينه وبين ملوك الأندلس ، واتفق أن نقم عليه أمرا فحبسه ، وتغير قلبه عليه ، وحاول ابن زيدون أن يسترد مكانته عنده فاستعطفه برسائل عجيبة ، وقصائد بديعة ، ولكنها لم تنجح ، فهرب من سجنه ، ولاذ بحمى المعتضد صاحب أشبيلية ، فتلقاه بالقبول والاكرام ، وأنزله منزلة الوزير ، وجعله من خواصه ، يجالسه فى خلواته ، ويركن الى اشاراته ، ولما توفى المعتضد وخلفه ابنه المعتمد جرى على سنة أبيه فى اكرام ابن زيدون ، وفيأه ظل رعايته ، ولم يقبل الوشاية فيه كما سيرى القارىء فى الفصل القادم ، ولما توفى ابن زيدون فى سنة ٤٦٣ قرب المعتمد ابنه أبا بكر ومنحه ثقته ثم اختاره وزيرا له وظل أبو بكر بن زيدون فى دست الوزارة حتى قتل يوم اقتحام المرابطين مدينة أشبيلية سنة ٤٨٤ ، وواضح من ذلك أن الأسرة العبادية أكرمت ابن زيدون وولده أبا بكر فآوت الأول وهو طريد شريد هارب من السجن مغضوب عليه من أميره وسيده ورقت بابنه الى مراقى الوزارة ، فاذا صحت نسبة البيتين اللذين رواهما ابن بسام لابن زيدون فهو موقف منه يدعو الى شىء من التعجب ولا يدل على خلق كريم ، وقد كان للمعتضد أعداء كثيرون وربما يكون أحدهم قد نظم هذين البيتين ودسهما على ابن زيدون ، ويا حبذا لو كان ابن بسام نفسه قد صارحنا برأيه فى هذا الموضوع فى احدى تعليقاته التى كثيرا ما كان يوردها فى كتابه القيم ورحض عن الشاعر عار مثل هذا الموقف المتناقض .

المعتمد على الله وابن عمار

ولد المعتمد سنة ٤٣٢ بمدينة باجّه ، احدى مدن غرب الأندلس ، وهى من أقدم مدائنها وكانت بهـا معاقل موصوفة بالمنعة والحصانة ، وكان فى التاسعة بعد العشرين حينما خلف أباه المعتضد على عرش اشبيلية ، وقد حاول أبوه أن يدربه على الحكم وقيادة الجيوش فى بواكير نشأته ، فقلده وهو فى الثانية عشرة من عمره على الأكثر الحكم بمدينة أونَبَة وهى مدينة ممتنعة بين جبال ضيقة المسالك تعد من المدن البرية البحرية (١) وبينها وبين البحر ـ المحيط الأطلسى ـ نحو ميل ، وأسند اليه بعد ذلك قيادة الجيش الذى حاصر مدينة شلب ، وبهذه المدينة الواقعة فى قاصية غرب الأندلس عرف المعتمد هذا المغامر الذى كان يكبره بتسع سنوات وكان له تأثير بعيد المدى فى حياته ، وهذا المغامر هو محمد بن عمار ، وكان يكنى أبا بكر ، وأهله من شلب من قرية من أعمالها يقال لها شنبوس ، وكان مولده ومولد آبائه بها ، وكان هذا الرجل خامل البيت ، ليس له ولا لأسلافه نصيب من شيوع الذكر ولا عراقة الأصـل ، وقد ورد مدينة شـلب طفلا ، فنشـأ بها وتلقى الأدب على جمـاعة من علمائها

---

(١) كتاب الروض المعطار للحميرى صفحة ٣٥

ومتأدبيها ، ثم رحل الى قرطبة فتأدب بها ، وكان من أصحاب المواهب الأدبية ، فمهر فى صناعة الشعر ودراسة الأدب ، وكان قصاراه التكسب بهما ، وقد ظل يتنقل فى نواحى الأندلس يلتمس الرزق ، وينشد بسطة الكف ، وينظم عقود الثناء لكل من يستطيع أن ينفحه بالقليل من المال الذى يقيم به أوده ، وكان شعراء عصره المشهورون لا يتنازلون الا لمدح الأمراء الأمجاد ، والأعيان الغطاريف ، وكبار الوزراء والحجاب وعلية القوم من ذوى الأحساب والأنساب ، ولكن هذا الشاب الخامل الذكر المتواضع النشأة كان فى حاجة الى ما يتبلغ به ويسد خلته ، فلم يزل يجول فى الأندلس مسترفداً لا يبالى ممن أخذ ولا من استعطف من أعيان أو سوقة .

روى عنه المراكشى[1] أنه ورد فى بعض سفراته شلب لا يملك الا دابة لا يجد علفها ، فكتب بشعر الى رجل من وجوه أهل السوق ، فكان قدره عند ذلك الرجل أن ملأ له المخلاة شعيرا ووجّه بها اليه ، فرآها ابن عمار من أجل الصلات وأسنى الجوائز .

ولم يزل ابن عمار يعانى هذه الحالة الخشنة ويتجرع مرارتها ويتقلب فى بلاد الأندلس للاستجداء والاستعطاف الى أن ورد سدة المعتضد فامتدحه بقصيدة طنانة تدل على أنه فى ذلك الوقت كان قد أتقن صناعة الشعر يقول فى مطلعها :

---

(١) المعجب للمراكشى صفحة ١١٤ .

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى

والنجم قد صرف العنان عن السرى

والصبح قد أهدى لنا كافورة

لمّا استرد الليل منا العنبرا

والظاهر أنه كان قد استكمل ثقته بنفسه فى نظم الشعر فقد عارض بهذه القصيدة قصيدة أبى الطيب المتنبى فى مدح الوزير الكاتب الأديب ابن العميد التى يقول فى مطلعها :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا

وجواك ان لم يجر دمعك أو جرى

وقد استحسن المعتضد هذه القصيدة ، وكان المعتضد حسن التذوق للشعر ، يرتاح لجيده ويجيز عليه ويشجع قائليه ويظلهم برعايته ، فأمر لابن عمار بعد سماعه هذه القصيدة بمال وثياب ومركب ، وأن يكتب اسمه فى ديوان الشعراء ، فكان كذلك وأتاح له ذلك فرصة الاتصال بالمعتمد وهو شاب ناشىء نزاع الى الأدب أوتى الموهبة الشعرية ، وتوثقت بينهما الصداقة ، وكان ابن عمار على ما يبدو شائق الحديث ، جذاب الشخصية ، طب باستهواء النفوس ، واختلاب الألباب ، وقد عركته الحوادث ، وصقلته التجارب ، فلما ولى المعتمد الحكم فى مدينة شلب استوزر ابن عمار ، وأولاه ثقته ، ووكل اليه أموره ، وأكد بينهما الود أن الاثنين كانا من هواة الشعر والأدب ، وغواة المغامرات والانطلاق وراء المتع والملذات ، ومدينة شلب التى كانت ميدان لهوهما تعد جنة بلاد البرتغال ،

ولقد كانت ذكرى تلك الأيام الهانئة السعيدة التى قضياها فى تلك المدينة ما تنفك تطالعهما بأخيلتها المحببة ، ولم يكن الحب قد وجد سبيله بعد الى قلب المعتمد فاتجهت عواطفه كلها الى تأكيد هذه الصداقة وتقويتها واستدامتها ، وكان هناك بطبيعة الحال فرق كبير بين نشأة هذين الصديقين ، فالمعتمد نشأ فى ظلال الملك ومقاصير العز ، وصاحبه نشأ محروماً مصدوماً ، وتعرض لألوان من الشدائد ، وعرف ضيق الرزق وذل الحاجة فلما قربه المعتمد واصطفاه وأخذ بضبعه كانت آثار ما عاناه من البؤس والعيشة الضنك لا تزال عالقة بنفسه مخلفة فيها من العقد ما ينغص عليه متعه ، ويلقى على حياته ظلالا كامدة اللون ، وقد قرّبه المعتمد أشد تقريب ، وخلط به نفسه حتى كان كما يقول المراكشى [1] : « يشاركه فيما لا يشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه » ، ويروى لنا المراكشى خبرا عجيبا حدث لهما وهما ينعمان معا فى شلب ، ذلك أن المعتمد استدعاه ليلة الى مجلس أنسه على ما كانت العادة جارية به ، الا أنه فى تلك الليلة زاد فى التحفى به ، والبر له على المعتاد ، فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه : « لتضعن رأسك معى على وساد واحد ! » فكان ذلك ، قال ابن عمار : « فهتف بى هاتف فى النوم يقول : « لا تغتر أيها المسكين ، انه سيقتلك ولو بعد حين ! » قال : « فانتبهت من نومى فزعا وتعوذت ثم عدت ،

---

(١) المعجب صفحة ١١٧ .

فهتف بى الهاتف على حالته الأولى ، فاتنبهت ثم عدت فسمعته ثالثة ، فاتنبهت فتجردت من ثيابى والتففت فى بعض الحصر ، وقصدت دهليز القصر مستخفيا به ، وقد أزمعت على أنى اذا أصبحت خرجت مستخفيا حتى آتى البحر فأركبه وأقصد بلاد العدوة فأكون فى بعض جبال البربر حتى أموت ، فاتنبه المعتمد ، فافتقدنى فلم يجدنى ، فأمر بطلبى ، فطلبت له فى نواحى القصر ، وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه ، فكان هو الذى وقع على ، وذلك أنه أتى دهليز القصر يفتقد الباب هل فتح ، فوقف بازاء الحصير الذى كنت فيه ، فكانت منى حركة فأحس بى ، وقال ما هذا يتحرك فى هذا الحصير ؟ ثم أمر به فنفض فخرجت عرّيان ليس على الا السراويل ! فلما رآنى فاضت عيناه دموعا وقال : « يا أبا بكر ، ما الذى حملك على هذا ؟ فلم أر بدا من أن أصدقه ، فقصصت عليه قصتى من أولها الى آخرها ، فضحك وقال : « يا أبا بكر ، أضغاث أحلام ، هذه آثار الخمار ، ثم قال لى : « وكيف أقتلك ؟ أرأيت أحدا يقتل نفسه ؟ وهل أنت عندى الا كنفسى ؟ فشكر له ابن عمار ، ودعا له بطول البقاء ، وتناسى الأمر فنسيه » .

وكان ابن عمار يصحب المعتمد فى غدواته وروحاته ،[1] وقد ركب المعتمد فى بعض الأيام قاصدا الجامع وابن عمار يسايره ، فسمع أذان المؤذن فقال المعتمد :

---

(١) نفح الطيب الجزء الخامس صفحة ١٤٩ .

هذا المؤذن قد بدا بأذانه .

فقال ابن عمار :

يرجو بذاك العفو من رحمانه .

فقال المعتمد :

طوبى له من شاهد بحقيقة .

فقال ابن عمار :

ان كان عقد ضميره كلسانه .

وفى هذه المحاولة الشعرية العابرة يظهر لنا جانب من الفرق بين العقليتين أو المزاجين ، العقلية الواثقة المطمئنة والعقلية المتوجسة المتشككة ، والتجارب التى مر بها ابن عمار تركت فى نفسه مرارة ، وأعقبته سوء ظن بالطبيعة الانسانية ، ولم يغير هذه الحالة ما أحاطه به المعتمد من الود وما اختصه به من الرعاية ، والشك وسوء الظن اللذان غلبا على طبعه كانا يجعلانه لا يثق الا بنفسه ، وقد قوّى فى نفسه هذه النزعة أن الرجل كانت فيه طبيعة المغامرين الوصوليين ، فاتجاه تفكيره ومحور سياسته اقتناص الفرص وانتزاع المناسبات لتوطيد مكانته واعلاء شأنه ، فالدنيا وجدت لتحقيق غاياته ، واشباع شهواته ، والناس خلقوا ليستغلهم ويسخرهم فى سبيل مطامعه ، وهو القائل فى مطلع احدى قصائده المشهورة :

علىّ والا ما بكاء الغمائم
وفىّ والا ما نياح الحمائم

وعنى أثار الرعد صرخة طالب

لثأر وهز البرق صفحة صارم

وما لبست زهر النجوم حدادها

لغيرى ولا قامت له فى مآتم

فهو مثل للفردية الشديدة التى غلبت على ذلك العصر المضطرب المائج الذى كان كل انسان طموح فيه يحاول أن يصنع القيم حسب مشيئته وطوعا لأهوائه ، فالخير هو كل ما أعانه على النجاح ، والشر هو كل ما أقام فى طريقه العقبات ، وكانت فى الرجل كفاية وذكاء وسعة حيلة ودهاء ، ولكنه مع فرط ذكائه وعظيم دهائه كانت شدة تكالبه على النجاح السريع ربما أذهلته عن اعتبارات قد تفسد عليه أمره ، وكانت العقد النفسية التى منى بها فى ابان نشأته وأيام بؤسه وشقوته تتلوى فى أعماق نفسه كالأفعى وتنفث سمومها وتجعله لا يصفى أى انسان الود ولا يخلص له الصداقة .

وكان المعتمد حينما يزور اشبيلية يذهب اليها مع صديقه ابن عمار الذى ألف صحبته وتعود ملازمته له ، واشبيلية تعد من عواصم الأندلس الجليلة الجميلة الموفية على نهر الوادى الكبير وهو يجرى فى غربيها ، (١) وكان ملوك اسبانيا قبل الفتح الاسلامى يتداولون بمسكنهم أربعا من المدن الاسبانية وهى : اشبيلية وماردة وقرطبة وطليطلة ، ويقسمون أزمانهم على

(١) الروض المعطار صفحة ٢٠ .

الكينونة بها ، ويطل على اشبيلية جبل الشرف وهو كريم التربة دائم الخضرة يمتد فراسخ طولا وعرضا ، ويقول عنه صاحب الروض المعطار : « لا تكاد تشمس منه بقعة لالتفاف زيتونه واشتباك غصونه » ، ووفرة الخيرات بالمدينة وكثرة مشاهدها الجميلة كانا يجعلان أهلها ميالين الى اللهو والمرح ، وقد[1] جرت مرة مناظرة بين يدى ملك المغرب المنصور يعقوب بين الفقيه أبى الوليد بن رشد والرئيس أبى بكر بن زهر ، فقال ابن رشد لابن زهر فى تفضيل قرطبة : « ما أدرى ما تقول ، غير أنه اذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها ، وان مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت الى اشبيلية » .

ويروى لنا المقرى أنه قيل لأحد من رأى مصر والشام [2] : « أيهما رأيت أحسن ؟ أهذان أم اشبيلية ؟ فقال بعد تفضيل اشبيلية : « شرفها غابة بلا أسد ونهرها نيل بلا تمساح » .

وكان الصديقان فى اشبيلية يسترسلان كدأبهما فى اللهو والاستمتاع ، واتفق مرة أنهما كانا يتنزهان فى مرج الفضة — أحد منتزهات المدينة التى كان يغشاها الناس لجمال مناظره وطيب هوائه وحسن موقعه ، وجلسا الى جانب نهر الوادى الكبير فى أمسية رق فيها النسيم وطاب الهواء ، وشاء القدر أن يلقى المعتمد المرأة التى صار لها تأثير كبير فى حياته ، كانت

---

(١) نفح الطيب الجزء الاول صفحة ١٤٧ .

(٢) نفح الطيب الجزء الاول صفحة ١٤٩ .

النسمات تحرك مياه النهر حركات خفيفة ، فقال المعتمد لصديقه الشاعر أجز : « صنع الريح من الماء زرد » فأطال ابن عمار الفكرة ، ولم يكن فى نظمه الشعر ممن أوتوا البديهة الحاضرة [1] ، وكانت امرأة من الغسالات على مقربة منهما ، وسمعت ما قاله المعتمد لابن عمار ، ولما عجز ابن عمار عن الاجابة قالت المرأة على البديهة أ « أى درع لقتال لو جمد »

فتعجب المعتمد من حسن ما أتت به مع عجز ابن عمار ، ونظر اليها فاذا هى حسناء فاتنة ، فأعجب بها وأخذ بجمالها ، فسألها : « أذات زوج هى ؟ » فقالت : « لا » فلما ذهبت فى سبيلها قال لخادم كان يتبعه : « سل عن هذه الفتاة واعرف مكان أهلها » وعلم أنها جارية رميك بن حجاج وأن اسمها اعتماد ، فلما عاد الى قصره استدعى صاحبها واشتراها منه ، وتزوجها ، وكانت أحظى نسائه عنده ، وقد كانت الرميكية معاصرة لولادة بنت المستكفى ، وربما كانت تقصر عنها فى الأدب والشعر ، ولكنها لم تكن أقل منها فى الحديث الطلىّ الجذاب والنكات البارعة ، وربما كانت تفوقها فى المعابثة والمداعبة واكتمال الأنوثة ، وكان المعتمد كثيرا ما يأنس بها ويستطيب حديثها ويستظرف نوادرها ، ولم تكن لها معرفة بالغناء وانما كانت مليحة الوجه حسنة الحديث حلوة النادرة

---

(١) نقل المقرى رواية هذا الحديث عن المسهب فى أخبار المغرب فى الجزء الخامس صفحة ٣٤٢ من النفح ، وذكر أن صاحب البدائة نسبها الى بعض أدباء الاندلس .

كثيرة الفكاهة ، وكان لها فى ذلك نوادر محكية ، ومن مشهور أخبارها مع المعتمد القصة المعروفة فى قولها « ولا يوم الطين ». وذلك أنها رأت الناس يمشون فى الطين ، فاشتهت المشى فى الطين ، فأمر المعتمد فسحقت أشياء من الطيب ، وذرّت فى ساحة القصر حتى عمته ، ثم نصبت الغرابيل وصب فيها ماء الورد على أخلاط الطيب ، وعجنت بالأيدى حتى عادت كالطين وخاضتها مع جواريها ، وغاضبها فى بعض الأيام ، فأقسمت أنها لم تر منه خيرا قط ، فقال لها : « ولا يوم الطين ! » فاستحيت واعتذرت .

وقد كانت نزواتها واسرافها فى دلالها باعث تعب ومتعة لمحبها المأخوذ بمحاسنها ، فمن نزواتها المسرفة أنها شاهدت وهى فى قرطبة من نوافذ القصر فى الشتاء السماء وهى تندف بالثلج وكان هذا المنظر نادر الحدوث فى منطقة يقل فيها اشتداد الشتاء فبكت وسالت الدموع على وجنتيها فسألها المعتمد فى رفق ولين عن سبب بكائها فأجابته وهى تجهش بالبكاء : « انك طاغية جبار غشوم ، انظر الى جمال ندف الثلوج البارقة اللينة العالقة بغصون الأشجار ، وأنت أيها الناكر للجميل لا يخطر ببالك أن توفر لى مثل هذا المنظر الجميل كل شتاء ولا تصحبنى الى بلد يتساقط فيه الثلج فى الشتاء » فمسح المعتمد دموعها وقال لها فى لين ورقة : « لا تحزنى ولا تستسلمى لليأس يا سلوة النفس ومنية القلب فانى أعدك وعدا صادقا أنك سترين هذا المنظر الذى أدخل على قلبك السرور كل شتاء » وأمر بزرع أشجار اللوز

على جبل قرطبة حتى اذا نوّر زهره بدت الأشجار وكأنها محملة بقطع الثلج الناصعة البياض .

وكانت أخبار نزواتها وتدلهه فى حبها واستجابته لنزواتها تشيع وتستفيض فينقم عليها رجال الدين بوجه خاص ، وكانوا يرون أنها العقبة بينهم وبينه وأنها تورطه فى الكثير من ضروب الخلاعة والاستهتار ، ولا يذكرون اسمها الا مصحوبا باستنزال اللعنات ، وكانت هى لاتحفل بهم ولا تعلم ماتخبئه لها الأقدار ، وأنهم سيكونون يوما ما أصحاب الكلمة الحاسمة فى تقرير مصيرها ، وأنهم سيكونون هم الذين يضحكون أخيرا ويشمتون كثيرا .

وكان المعتمد مع فرط حبه لها لا يزال يخص وزيره المحبوب وصديقه المقرب بجانب كبير من وده وعطفه ، وقد أرسل اليها مرة هذه الأبيات التى يتضمن الحرف الأول فى كل بيت منها حرفا من حروف اسمها وهو مع صديقه ابن عمار :

أغائبة الشخص عن ناظرى
وحاضرة فى صميم الفؤاد
عليك سلام بقدر الشجو
ن ودمع الشئون وقدر السهاد
تملكت منى صعب المرا
م وصادفت ودى سهل القياد
مرادى لقياك فى كل حين
فياليت أنى أعطى مرادى

أقيمى على العهد ما بيننا
ولا تستحيلى لطول البعاد
دسست اسمك الحلو فى طيه
وألفت فيه حروف « اعتماد »

وذيل الكتاب بقوله انه سيعود اليها « ان شاء الله ربى أو شاء ابن عمار » .

ولما علم ابن عمار بالأمر وجّه اليه هذه الأبيات :

مولاى عندى لما تهوى مساعدة
كما يتابع خطف البارق السارى
ان شئت فى البحر فاركب ظهر سابحة
أو شئت فى البر فاركب ظهر طيار
حتى نحل وحفظ الله يكلؤنا
رحاب قصرك واتركنى الى دارى
وقبل خلع نجاد السيف فاسع الى
ذات الوشاح وخذ للحب بالثار
ضما ولثماً يغنى الحلى بينهما
كما تجاوب أطيار بأسحار

وبينما كان ينعم صاحبنا بحب زوجته وصداقة صديقه الشاعر الذى أصبح كما يقول المراكشى « ألزق بالمعتمد من شعرات قصه وأدنى اليه من حبل وريده » وكانت زوجته تغريه بالانطلاق فى المتعة ، وصديقه الأوسع منه تجربة والذى كان لا يقل عنه تعطشاً فى ارتياد المتع يزين له الاسراف فى اللهو

تناثرت الأقاويل عنهما وكثرت ، وأغضب ذلك المعتضد ، فاقتضى نظره التفريق بين الصديقين حتى يقطع دابر تلك الأقاويل ويصون سمعة ولده ، ونفى ابن عمار ، فما زال مغتربا فى أقاصى بلاد الأندلس الى أن توفى المعتضد بالله .

وكان هذا التفريق شديد الوقع فى نفس المعتمد ، ولكنه كان يعرف أن المعتضد لا يرجع فى كلمة صدرت منه ، ولا ينقض قراراً أمضاه .

وقضى ابن عمار أياما ممحلة مملة فى الشمال وبخاصة فى سرقسطة ، وتمكن بها من المؤتمن يوسف بن أحمد بن هود ، ولما خلف المعتمد والده وهو فى التاسعة والعشرين من عمره بادر الى استدعاء صديقه المنفى ، وسأله أن يختار المنصب الذى يرضيه ، فاختار ابن عمار أن يكون والى المنطقة التى ولد بها ونشأ فى نواحيها ، وقد كان يتطلع اليها وهو فى منفاه كما هو واضح فى قصيدته التى بعث بها الى المعتمد من سرقسطة ، والتى يقول فى مطلعها الذى سبق أن ذكرته : « علىّ والا ما بكاء الغمائم » وفيها يقول عن منشأ طفولته ومسرح نشأته التى ذاق فيها البؤس والنعيم ونعم بصداقة المعتمد :

أشلب ولا تنساب عبرة مشفق
وحمص ولا تعتاد زفرة نادم
كساها الحيا برد الشباب فانها
بلاد بها عق الشباب تمائمى

تذكرني عهد الصبا فكأنما
قدحت بنار الشوق بين الحيازم
ليالي لا ألوى على رشد لائم
عناني ولا أثنيه عن غي هائم
أنال سهادي من جفون نواعس
وأجني عذابي من غصون نواعم
هو العيش لا ما أشتكيه من السرى
الى كل ثغر آهل مثل طاسم

وكان المعتمد قد تلقب في باديء الأمر بالمؤيد ، ولذلك قال له ابن عمار في أحد اعتذاراته اليه :

ألا ان بطشاً « للمؤيد » يتقى
ولكن عفواً « للمؤيد » أرجح

وقال الداني يمدحه :

كان المؤيد بستانا بساحتها
يجني النعيم وفي عليائها فلكا

ثم تلقب بالمعتمد من أجل جاريته وزوجته اعتماد الرميكية ..

وبرغم أسف المعتمد على أن يكون هذا الصديق العزيز عليه الأثير في نفسه بعيدا عنه ، فانه رأى أن يضحي برغبته في قربه منه بالاستجابة لطلبه ، وقد ودعه وهو يرتحل الى شلب بهذه الأبيات :

ألا حي أوطاني بشلب أبا بكر
وسلهن هل عهد الوصال كما أدري

وسلم على عصر الشراجيب من فتى
له أبدا شوق الى ذلك القصر
منازل آساد وبيض نواعم
فناهيك من غيل وناهيك من خدر
وكم ليلة قد بت أنعم جنحها
بمخصبة الأرداف مجدبة الخصر
وبيض وسمر فاعلات بمهجتى
فعال الصفاح البيض والأسل السمر
وليل بسد النهر لهواً قطعته
بذات سوار مثل منعطف النهر
نضت بردها عن غصن بان منَعَّم
نضير كما انشق الكِمَام عن الزهر
وباتت تسلينى المدام بلحظها
فمن كأسها حينا وحينا من الثغر
وتطربنى أوتارها وكأننى
سمعت بأوتار الطلى نغم البتر

ويقول الفتح عن قصر الشراجيب الذى ذكره المعتمد (١) ؟ « انه متناه فى البهاء والاشراق مباه لزوراء العراق ، ركضت فيه جياد راحاته وأومضت بروق أمانيه فى ساحاته ، وجرى الدهر مطيعا بين بكره وروحاته أيام لم تحل عنه تمائمه ولا خلت من أزاهير الشباب كمائمه » .

---

(١) قلائد العقيان صفحة ٣٣ ، ونفح الطيب جزء ٢ صفحة ١٨٣ .

ودخل ابن عمار شلب فى موكب فخم وجملة عبيد وحشم وأظهر نخوة لم يظهرها المعتمد على الله حين وليها أيام أبيه المعتضد بالله ، وكان أول شيء سأل عنه الرجل صاحبة صاحب الشعير ، فقد سأل عنه ابن عمار قائلا « ما صنع فلان ؟ أهو حى ؟ » فأجابوه « نعم » فأرسل اليه بمخلاته بعينها بعد أن ملأها دراهم ، وقال لرسوله « قل له لو ملأتها برا لملأناها تبرا » .

على أن المعتمد لم يطق الصبر على فراق صديقه الشاعر الألمعى والماكر الداهية فما عتم أن استدعاه ، واختاره كبير وزرائه ، وكانت المشكلات المعقدة لتى تواجه المعتمد تجعله فى حاجة الى صديق يضع فيه ثقته ، ويستشيره فى موره . ويقدر نصائحه وبعد نظره .

ولم يمنع المعتمد اشتغال الوزير الشاعر بسياسة الدولة وحمله أعباء الحكم من استدعائه من الحين الى الحين الى مجالس لهوه ، واشراكه معه فى سويعات أنسه وطربه ، أدخلت عليه يوما باكورة نرجس فكتب الى ابن عمار يستدعيه :

قد زارنا النرجس الذكى ... وآن من يومنا العشى
وعندنا مجلس أليق ... وقد ظمئنا وفيه رى
ولى خليل غدا سميى ... يا ليته ساعد السمى

فأجابه ابن عمار :

لبيك لبيك من مناد ... له النّدى الرحب والندى
هأنا بالباب عبد قن ... قبلته وجهك السنى
شرفه والداه باسم ... شرفته أنت والنبى

واصطبح المعتمد يوم غيم مع زوجته اعتمـــاد الرميكية ـ واحتجب عن ندمائه ، فكتب اليه ابن عمار :

تجهم وجه الأفـــق واعتلت النفس
لأن لم تلح للعين آنت ولا الشمس
فان كان هـــذا منكما من توافق
وضمـــكما أنس فيهنيـــكما الأنس

فأجابه المعتمد بقوله :

خليلى قـــولا هـــل علىّ مـــلامة
اذا لم أغب الا لتحضرنى الشمس
وأهـــدى بأكواس المـــدام كواكبا
اذا أبصرتها العين هشت لها النفس
ســـلام ســـلام أنتما الأنس كلـــه
وان غبتما أم الربيع [1] هى الأنس

وغاب عنه ابن عمار حينا من الزمان ، وربما كان هـــذا فى احدى السفارات التى كان يرسله فيها أو المهمات التى كان يكل اليه القيام بها فلما عاد كتب اليه :

لمـــا نأيت نأى الكرى عن ناظرى
ورددته لمـــا انصـــرفت اليـــه
طلب البشير بشـــارة يُجزَى بها
فـــوهبت قلبى واعتـــذرت اليـــه

---

(1) أم الربيع هى اعتماد الرميكية وكان يروق المعتمد أن يشير الى اسمها بهذه الكنية .

وأهدى الناس فى يوم عيد الى المعتمد مما يهدى للملوك فى الأعياد ، فاقتصر ابن عمار على ثوب صـوف بحرى أصفر وكتب معه :

لما رأيت النـاس يحتفلون فى [1]
اهـداء يومك جئتـه من بابـه
فبعثت نحو الشمس شـبه اهابها
وكسوت متن البحـر بعض ثيابه

واستصحب المعتمد ذات ليـلة ابن عمار على مألوف عادته وخرجا يتجولان فى اشبيلية وهما متنكران لمشـاهدة أحوال الرعية ، فمرا بباب شيخ كان كثير التندر والتهكم والاتيـان بالحركات التى تثير الضحك ، فقال المعتمد لابن عمـار تعال نضرب على هذا الشيخ الشاذ الغريب الأطوار بابه حتى نضحك منه ، فلما ضربا عليه الباب قال : « من هذا ؟ » .

فقال ابن عباد : « انسان يرغب أن تَفْقِـد له هذه الفتيلة » .

فأجاب الشيخ : « والله لو ضرب ابن عباد بابى فى هـذا الوقت ما فتحت له » .

فأجاب المعتمد : « انى ابن عباد نفسه » .

فقال الشيخ : « مصفوع ألف صفعة » .

فضحك المعتمد حتى كاد يسقط على الأرض ، وقال لابن

(١) المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية صفحة ١٧٢ .

عمار « امض بنا قبل أن يتعدى الصفع من القول الى الفعل ، فهذا شيخ ركيك العقل » .

ولما كان من غد تلك الليلة وجّه له ألف دينار ، وقال لموصلها « قل له هذه حق الألف صفعة التى كانت البارحة » .

وهكذا كان المعتمد ان لم يتدفق كرما أينما حل تدفق شاعرية ، روى له الشقندى أنه مر على كرمة فتعلقت بردائه ، وغيره من الناس يكتفى بجذب ردائه ويمضى فى سبيله ، ولكن المعتمد لا يستهين بمثل هذه التجربة ، وقد سجلها شعراً فى قوله :

مررت بكرمة جذبت ردائى　　فقلت لهـا عزمت على اذائى
فقالت لم مررت ولم تسلم　　وقد رويت عظامك من دمائى

المعتمد بين شعراء بلاطه وجواري قصره

غير عجيب أن يكثر وفود الشعراء على اشبيلية وعلى عرشها ملك كريم وشاعر مطبوع وكبير مستشاريه وشيخ وزرائه كذلك شاعر طائر الصيت بارز المكانة بين شعراء الأندلس المعدودين ، وكان الشعارير والمتشاعرون والنظامون لا يجترئون على الدنو من ساحة المعتمد فقد كان شاعرا ناقدا للشعر .

ومن أشهر شعراء بلاطه الشاعر الأندلسي المعروف أبوالوليد ابن زيدون ، وكان قد لجأ الى اشبيلية بعد هروبه من سجن أبى الوليد بن جهور كما سبق أن ذكرت ، ولم يعش أبو الوليد طويلا فى عهد المعتمد فقد توفى سنة ٤٦٣ ومن مدحه للمعتمد قوله :

مهما امتدحت سواك قبل فانما
مدحى الى مدحى لك استطراد
تغشى الميادين الفوارس حقبة
كيما يعلمها النزال طراد

وقوله وهو لا يخلو من مبالغة :

وطاعة أمرك فرض أرا
ه من كل مفترض أوكدا

هى الشرع أصبح دين الضمير
فلو قد عصاك لقد ألحدا

وظاهر من المساجلات الشعرية التى دارت بينهما أن المعتمد كان شديد الاعجاب بابن زيدون عظيم التقدير لأدبه وشخصه ، كتب اليه مرة معاتبا قصيدة يقول فى مطلعها :

وعدت وأخلفتنى الموعدا   وخالفت بالمنتهى المبتدا (١)
وأطمعتنى ثم أيأستنى   ويمنعنى الود أن أحقدا
وأضعفت بالمطل حبل الرجا   ء فرث وأعهده محصدا
وعاد ضياء ارتقابى ظلاما   وأصبح مصباحه أرمدا

ومنها فى مدح ابن زيدون :

لك العلم مهما أرد بحره   لأروى به أحمد الموردا
وفيك تجمعت المأثرا   ت طراً فصرت بها مفردا
شمائل تنتثر شمل الهمو   م نثرك بالرأى شمل العدى
فمتعنى الله باللحظ منـ   ـك ولا زلت لى مؤنسا سرمدا
ودمت ودمنا على حالنا   كما يصحب الفرقد الفرقدا
فلولاك كانت ربوع السرور   مثنىً تجاوب فيها الصدى

فأجابه ابن زيدون بقصيدة يقول فى مطلعها :

أفاض سماحك بحر الندى   وأقبس هديك نور الهدى

وفى ديوان المعتمد قصائد أطلق عليها اسم (٢) «المعميات» ، وكانت هذه المعميات تدور بين المعتمد ووزيره الشاعر ابن

---

(١) ديوان المعتمد بن عباد صفحة ٥٤/٥٥ .
(٢) ديوان المعتمد بن عباد صفحة ٧٧ .

زيدون ، وكان أحدهما يرسل الى الآخر قصيدة يشير بها الى بيت أو بيتين من الشعر رامزاً الى كل حرف باسم طير من الطيور ، ولذلك كان يسمى هذا البيت بالمطيَّر ، وكانا يقصدان بهذه المعميات التسلية ، وقد استهل ابن زيدون احدى هذه القصائد المعميات بقوله فى مدح المعتمد :

يأيها الظافر نلت المنى ولا ينلنا فيك محذور
ان الخلال الزهر قد ضمها ثوب عليك الدهر مزرور
لا زال للمجد الذى شدته ربع بتعميرك معمور

ولما توفى المعتضد وأفضى الأمر الى المعتمد حاول أعداء ابن زيدون الذين كانوا يحسدونه على مكانته عند المعتضد وينقمون عليه نفوذه أن يفسدوا ما بينه وبين المعتمد ، فرموا اليه برقعة بها قصيدة يحرضونه فيها على ابن زيدون وغيره من رجال الدولة فى عهد أبيه ومطلعها :

يأيها الملك العلى الأعظم
اقطع وريدى كل باغ ينأم
واحسم بسيفك داء كل منافق
يبدى الجميل وضد ذلك يكتم

ويحذر المعتمد ناظم القصيدة الذى أخفى اسمه بأن التهاون فى الصغائر قد يجر الى الكبائر بقوله :

كم سقط زند قد نما حتى غدا
بركان نار كل شىء يحطم

وكذلك السـيل الجحاف فانما
أولاه طـل ثم ويل يسـجم

ويشير عليه بأن يسلك سلوك أبيه المعتضد فى الفتك بالمخالفين والقضاء على المتهمين فيقول :

واذكر صـنيع أبيك أول مرة
فى كـل متهم فانـك تعـلم
لم يبق منهم من توقـع شـره
فصفت له الدنيـا ولذ المطعم
فعلام تنكل عن صـنيع مثـله
ولأنت أمضى فى الخطوب وأشهم
فاجعله قدوتك التى تقتـادها
فى كل من يبغى ورأيك أحكم

فلما قرأه المعتمد عف عما أرادوه ، وأبى قبول السعاية فى فاتحة أمره ومستهل حكمه ، ووقع على ظهر الرقعة بهـذه الأبيات :

كذبت مناكم صرحوا أو جمجموا
الدين أمـتن والسـجية أكرم
خنتم ورمتم أن أخـون وانما
حاولتم أن يسـتخف يلـمْلـم
وأردتم تضييق صـدر لم يضق
والسمر فى ثغر النحور تحطم

وزحفتم بمحـــالكم لمجـــرب
ما زال يثبت للمحـــال فيهـــزم
أنى رجوتم غـــدر من جـــربتم
منه الوفاء وظـــلم من لا يظلم
أنا ذاكم لا البغى يثمر غرســـه
عندى ولا مبنى الصـــنيعة يثلم
كفّوا والا فارقبوا لى بطشـــة
يلقى الســـفيه بمثلها فيحـــلم

ولما بلغ ابن زيدون ما راجعهم به وتحقق حسن مذهبه وعلم أن سعايتهم قد أخفقت قال يمدح المعتمد من قصيدة بلغت خمسين بيتا :

ما كان حـــلم محمد ليحيـــله
عن عهـــده دغل الضمير مذمم
مـــلك تطلع للخـــواطر غـــرة
زهراء زين بهـــا الزمان الأدهم
خلق تود الشمس لو صيغت له
تاجا ترصـــع جانبيـــه الأنجـــم
سدت الجميع فليس منهم منكر
ان صرت فذهم الذى لا يتـــأم
فمتى أودى فرض أنعمك التى
وبلت كما يبل السحاب المسحم

أمطيتنى متن السماك برتبة
عليـاء منـكب عزها لا يزحم
وتركت حسادى عليك وكلهم
شاكى حشى يدوى وأنف يرغم
نصح العدى فى زعمهم فوقمتهم
والغش فى بعض النصائح مدغم
وثناهم ثبت قناة أناته
خلقاء يصلب متنها اذ يعجم
وزهاهم نظم الهراء فكفهم
نظم عقود السحر منه تنظم
أشرعت منه الى الغواة أسنة
نفذت وقد ينبو الطرير اللهذم
لى منك فليذب الحسود تلظيا
لطف المكانة والمحل الأكرم
الفخر ثغر من حياضك باسم
والمجد برد من وفائك معلم
فاسلم مدى الدنيا فأنت جمالها
وتسوغ النعمى فانك منعم

ومن فحول شعراء الأندلس الذين وفدوا على المعتمد وغشوا ساحته عبد الجليل بن وهبون ، وكان من أهل مدينة مرسية ، وأنشد يوما بين يدى المعتمد بعض الحاضرين بيتين لعبد الجليل هذا قالهما قديما قبل وصوله الى المعتمد وهما :

قل الوفاء فمـا تلقاه فى أحـد
ولا يمـر لمخـلوق على بال
وصـار عندهم عنقـاء مغربة
أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقال

فأعجب المعتمد بهما ، وقال « لمن هذان البيتان ؟ » فقالوا له « هما لعبد الجليـل بن وهبون أحد خدم مولانا ! » فقـال المعتمد عند ذلك « هـذا والله اللؤم البحت ، رجل من خدامنا والمنقطعين الينا يقول « أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقـال ! » وهل يتحدث أحد عنه بأسوأ من هـذه الأحدوثة ؟ » وأمر له بألف مثقـال ، فلمـا دخل عليه يتشـكر قال له المعتمـد : « يا أبا محمد ، هل عاد الخبر عيانا ؟ » .

فقال ابن وهبون : « أى والله يا مولاى » ودعا له بطول البقاء .

فلما هم بالانصراف قال له المعتمد : « يا عبد الجليـل الآن حدث بها لا عنها » .

ودخل ابن وهبون يوما على المعتمد وهو ينشد قول المتنبى فى سيف الدولة الحمدانى :

اذا ظفرت منك العيون أثـ ـاب بها معيى المطى ورازمه

وجعل المعتمد يردده استحسانا له ، فقال ابن وهبون بديها :

لئن جاد شعر ابن الحسين فانما
تجيد العطايا واللهى تفتح اللها

تنبأ عجبـــا بالقريض ولو دری

بأنك ترويـــه اذاً لتـــــألها

فأمر له المعتمد بمائتى دينار .

وجلس المعتمد يوما والبزاة تعرض عليه ، فاستحث الشعراء فى وصفها ، فقال ابن وهبون بديها :

للصيد قبلك ســـنة مأثورة   لكنها بك أبدع الأشـــياء
تمضى البزاة وكلما أمضيتها   عاطيتها بخواطر الشـــعراء

وممـــا يروى من بدائع بدائهه أن المعتمد جلس للشراب والغيث ينهمر ، وبين يديه جارية تســـقيه فاتفق أن لعب البرق بحسامه فارتاعت الجارية لخطفة البرق فقال المعتمد :

روّعهـــــا البرق وفى كفهـــــا   برق من القهوة لمـــاع
عجبت منها وهى شمس الضحى   كيف من الأنوار ترتاع

واستدعى عبد الجليل بن وهبون وأنشـــده البيت الأول مستجيزا ، فقال عبد الجليل :

ولن أرى أعجب من آنس   من مثل ما يمسك يرتاع

فاستحسنه المعتمد وأجازه (١) وكان فى قصر المعتمد فيل من الفضة على شاطىء بركة يقذف الماء ، وفيه يقول ابن وهبون :

ويفرغ فيه مثل النصل بدع   من الأفيال لا يشكو ملالا
رعى رطب اللجين فجاء صلدا   تراه قلمـــا يخشى هزالا

---

(١) الجزء الخامس من نفح الطيب صفحة ٣٩٥ .

ويذكر الفتح فى القلائد [1] أن ابن وهبون أحرج المعتمد وأضجره حتى أبعده وهجره فذهب الى المرية ، فلما كان يوم العيد حضر المعتصم صاحب المرية شعراؤه وبعث فى عبد الجليل فتأخر ، وقال « أبعد المعتمد أحضر منتدى أو أستمطر جودا ؟ وهل تروق الأعياد الا فى فنائه أو تحسن الأمداح الا فى سنائه ؟» ثم قال :

دنا العيد لو تدنو لنا كعبة المنى
وركن المعالى من ذؤابة يعرب
فوا أسفا للشـــعر ترمى جماره
ويابعد ما بينى وبين المحصب

ومن مدحه للمعتمد قوله :

تأتى البلاد فتندى منك أوجهها [2]
حتى يقول ثراها هل همى المطر
ما القفر الا مكان لا تحـــل به
وحينما سرت سار البدو والحضر

ومن شعراء المعتمد أبو بكر الدانى المعروف بابن اللبانة وكان المعتمد يميزه بالتقريب ويستعذب شـــعره ، ويوليه انعاما واحســـانا ، ولما نكب المعتمد وفى له الدانى بالرحـــلة اليه فى المغرب ، ومن شعره فى مدح المعتمد

---

(١) قلائد العقيان صفحة ٢٥٤ .
(٢) المطرب لابن دحية صفحة ١١٩ .

ملك اذا عقد المغافر للوغى
حلّ الملوك معاقد التيجان
واذا غدت راياته منشورة
فالخافقان لهن فى خفقان

ومن قصيدة له يمدحه ويذكر أولاده الأربعة : الرشيد والراضى والمأمون والمؤتمن :

بغيثك فى محل يعينك فى ردى
يروعك فى درع يروقك فى برد
جمال واجمال وسبق وصولة
كشمس الضحى كالمزن كالبرق كالرعد
بمهجته شاد العلا ثم زادها
بناءً بأبناء جحاجحة ألدّ
بأربعة مثل الطباع تركبوا
لتعديل ذكر المجد والشرف العد

وقد ألف الدانى كتابا عن الدولة العبادية سماه « الاعتماد فى أخبار بنى عباد » كما ألف كتابا فى أخبارهم بعد نكبتهم سمّاه « نظم السلوك فى مواعظ الملوك » ضمنه مقطعات وقصائد فى البكاء على أيام بنى عباد وانتثار نظامهم .

وكان فى طليعة الشعراء الوافدين على المعتمد الشاعر الصقلى الكبير أبو محمد عبد الجبار بن حمديس الصقلى ، وقد فارق بلده سرقوسة من جزيرة صقلية حينما استولى النورمنديون على الجزيرة سنة ٤٧٠ هجرية ودخل ابن حمديس

الأندلس سنة ٤٧٠ وقد استدعاه المعتمد من قرطبة الى اشبيلية ، وحكى ابن حمديس عن علاقته بالمعتمد قال « لما قدمت وافدا على المعتمد بن عباد أقمت باشبيلية مدة لا يلتفت الىّ ولا يعبأ بي ، حتى قنطت لخيبتى مع فرط تعبى ، وهممت بالنكوص على عقبى ، فانى لكذلك ليلة من الليالى فى منزلى اذا بغلام معه شمعة ومركوب ، فقال لى « أجب السلطان » فركبت من فورى ودخلت عليه ، فأجلسنى على مرتبة فَنَك ، وقال لى « افتح الطاق التى تليك » ففتحتها ، فاذا بكور زجاج على بعد والنار تلوح من بابيه ، وواقدة تفتحهما تارة وتسدهما أخرى ، ثم دام سد أحدهما وفتح الآخر ، فحين تأملتهما قال لى أجز ! .

انظرهما فى الظلام قد نجما

فقلت :

كما رنا فى الدجنة الأسد

فقال :

يفتح عينه ثم يطبقها

فقلت :

فعل امرىء فى جفونه رمد

فقال :

فابتزه الدهر نور واحدة

فقلت :

وهل نجا من صروفه أحد

فاستحسن ذلك وأمر لى بجائزة سنية وألزمنى خدمته .

ومن شعره يصف داراً بناها المعتمد [1] :

ويا حبــذا دار قضى الله أنهـــا
يجــدد فيهـــا كل عز ولا يبلى

مقدســـة لو أن موسى كليمـــه
مشى قدما فى أرضها خلع النعلا

وما هى الا خطَّة الملك الذى
يحط اليه كل ذى أمل رَحلا

اذا فتحت أبوابهـــا خلت أنهـــا
تقـــول بترحيب لداخلهـــا أهلا

وقد نقلت صنَّاعها من صفاته
اليها أفانينـــاً فأحسنت النقـــلا

فمن صدره رحبا ومن نوره سنى
ومن صيته فرعا ومن حلمه أصلا

نســـيت به ايوان كسرى لأننى
أراه له مولى من الحسن لا مثلا

ومن قصصه مع شـــعرائه أن جارية مشت بين يديه وعليها قميص لا تكاد تفرق بينـــه وبين جســـمها وذوائبها تخفى آثار مشـــيها ، فسكب عليهـــا ماء ورد كان بين يديه ، وقال لبعض خدمه سر الى أبى الوليد البطليوسى المشـــهور بالنحلى وخذه باجازة هذا البيت ولا تفارقه حتى يفرغ منه :

---

(١) نفح الطيب الجزء الخامس صفحة ١٥٠ ، وجزء ٦ صفحة ٧ .

عـلّقت جائلة الوشـــاح غزيرة
تختـــــال بين أســـنة وبواتر
فأجاب النحلى لأول وقوع الرقعة بين يديه :
راقت محاســنها ورق أديمهـــا
فتكاد تبصر باطنـــا من ظـــاهر
وتمايلت كالغصن فى دعص النقا
تلتف فى ورق الشـــباب الناضر
يندى بماء الورد مسبل شعرها
كالطل يســـقط من جناح الطائر
تزهى بروتقها وعز جمالهـــا
زهو المؤيد بالثنـــاء العـــــاطر
ملك تضـــاءلت الملوك لقـــدره
وعنـــا له صرف الزمان الجـــائر
واذا لمحـــت جبينـــه ويمينـــه
أبصرت بدراً فوق بحـــر زاخر

فلما قرأها المعتمد استحضره ، وقال له « أحسنت ، أو معنا كنت ؟ » .

فأجاب النحلى : يا قاتل المحـــل أما تلوت : وأوحى ربك الى النحل » ؟ .

وأهديت للمعتمد شمعة ، فوصفها [1] أبو القاسم بن مرزقان الاشبيلى وهو أحد الشعراء الذين استظلوا برعايته :

---

(١) نفح الطيب الجزء الخامس صفحة ٢٦٠/٢٦١ .

مدينة فى شمعة صورت قامت حماة فوق أسوارها
وما رأينا قبلها روضة تنقد النار بنوارها
تصير الليل نهارا اذا ما أقبلت ترفل فى نارها
كأنها بعض الأيادى التى تحت الدجى تسرى بأنوارها
من ملك معتمد ماجد بلاده أوطان زوارها

وحدث مرة أن جلس المعتمد فى مجلس احتفل فى تنضيده واحضار بعض الطرائف الملوكية فيه ، وكان فى جملة تلك الطرائف تمثال جمل من البلور ، وله عينان ياقوتيتان ، وقد حلّى بنفائس الدر ، وكان حاضر هذا المجلس الشاعر أبو العرب الصقلى ، وأنشد المعتمد قصيدة ، فأمر له المعتمد بذهب كثير مما كان بيده من السكة الجديدة ، وطمحت عين أبى العرب الى تمثال الجمل فقال معرضا بذلك : « ما يحمل هذه الصلة الا جمل ! » . فقال له المعتمد : « خذ هذا الجمل فانه حمّال أثقال » . (١) فارتجل أبو العرب شعرا يقول فيه :

أهديتنى جملا جوناً شفعت به
حملا من الفضة البيضاء لو حملا
نتاج جودك فى أعطان مكرمة
لا قد تصرف من منع ولا عقلا
فاعجب لشأنى فشأنى كله عجب
رفهتنى فحملت الحمل والجملا

---

(١) نفح الطيب الجزء الخامس صفحة ٣٩٣ .

وكان المعتمد فى بعض الأوقات يتولى هو بنفسه اجازة ما يسمع من الشعر ، غنّى مرة بين يديه بقول ابن المعتز [1] :

وخمّارة من بنات المجوس   ترى الزق فى بيتها شائلا
وزنّا لها ذهباً جامداً   فكالت لنا ذهبا سائلا

فقال المعتمد بديها يجيزه :

وقلت خذى جوهرا ثابتا   فقالت خذوا عرضا زائلا

ولم يكن مجلسه يخلو بطبيعة الحال من مباحثات أدبية وانتقادية ، وتناولت تلك الأحاديث مرة قول المتنبى الذى كان يعجب النقاد القدامى الى حد أن قالوا عنه انه أمير شعره وهو قوله :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى
وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

فقال المعتمد : « ما قصر المتنبى فى مقابلة كل لفظة بضدها ، الا أن فيه نقداً خفيا ، ففكروا فيه » فأخذ الحاضرون وهم من علية الشعراء والأدباء يفكرون فى البيت ويجيلون فيه بصيرتهم الناقدة ، وأطالوا الفكر ، ولكنهم لم يفطنوا الى ما لحظه المعتمد ، فقالوا له مقرين بعجزهم : « ما وقفنا على شىء » . فقال المعتمد : « الليل لا يطابق الا بالنهار ، ولا يطابق بالصباح . لأن الليل كلى والصبح جزئى » فتعجب الحاضرون وأثنوا على تدقيق انتقاده .

---

(١) نفح الطيب الجزء الخامس صفحة ١٤٩ .

وقد حاول صلاح الدين الصفدى ــ وهو من أقدر كتاب العصر المغولى ومن أوسعهم اطلاعا وأكثرهم تأليفا للكتب فى شتى الموضوعات وعلى أساليب حسنة ــ أن ينقض رأى المعتمد فقال : « ليس هذا بنقد صحيح ، والصواب مع الطيب لأنه قال « أزورهم وسواد الليل يشفع لى » فهذا محب يزور أحبابه فى سواد الليل خوفا ممن يشى به ، فاذا لاح الصبح أغرى به الوشاة ، ودل عليه أهل النميمة ، والصبح أول ما يغرى به قبل النهار ، وعادة الزائر المريب أن يزور ليلا ، وينصرف عند انفجار الصبح خوفا من الرقباء ولم تجر العادة أن الخائف يتلبث الى أن يتوضح النهار ، ويمتلىء الأفق نورا ، فذكر الصبح هنا أولى من ذكر النهار » .

وهو رد لا يخلو من الوجاهة وقوة الحجة ، ولكنه مع ذلك لم يمس صميم الموضوع الذى لحظه المعتمد ، وهو فساد مطابقة الليل بالصبح ، فان الذى يقابل الليل هو النهار ، والنهار نفسه يشمل الصبح وما بعد الصبح ، ورأى المعتمد ينم على ملاحظة دقيقة وبراعة ناقدة .

وكان المعتمد اذا خرج للنزهة بظاهر اشبيلية يخرج فى بعض الأوقات مع خواص شعرائه وندمائه ، واتفق أن خرج مرة وأبعد فى المسابقة بالخيول ، فجاء فرسه بين البساتين سابقا ، فرأى شجرة تين قد أينعت وزهت وبرزت منها ثمرة قد نضجت فسدد اليها عصا كانت فى يده فأصابها ، وثبتت على أعلاها ،

فأطربه ما رأى من حسنها وثباتها ، والتفت ليخبر من لحقه من أصحابه ، فرأى ابن جامع الصباغ أول من لحق به فقال له أجز :

كأنها فوق العصــا

فقــال :

هامة زنجى عصى .

فزاد طربه وسروره بحسن ارتجاله ، وأمر له بجائزة سنية ، وكان ابن جامع هذا من أرباب المهن ، وكان يحترف الصباغة . واشتهر بسرعة الخاطر ، وحسن الارتجال ، وسما به أدبه الى مجالسة المعتمد ومصاحبته والظفر باعجابه وتقديره .

وكان المعتمد بوجه عام يعجب بالنبوغ فى مختلف صوره ، ويميل بطبيعته الى العطف على كل من أوتى موهبة ، ويحرص على تشجيعه ، وتوجيهه الوجهة الصالحة ، وقصته مع السارق الاشبيلى الذى اشتهر باسم البازى الأشهب تكشف لنا بوضوح عن هذا الجانب من أخلاق المعتمد ، فقــد اشتهر هــذا الرجل بالافتنــان فى أســاليب السرقة والسطو ، وكان له فيهمــا كل غريبة ، وكان مسلطا على أهل البادية يهتبل غرتهم ، ويستغل سذاجتهم ، ويســتلب أموالهم ، ويسرق متــاعهم ، وبلغ من براعته فى السرقة والاحتيال أنه سرق وهو مصلوب : وذلك لأن المعتمد أمر بصلبه على ممر أهل البادية لينظروا اليه ويعرفوا شخصه بعد أن كثرت الشكوى منه وعم أذاه ، وبينما هو فوق خشبته على تلك الحال اذ جاءت اليه زوجته وبناته وجعلن يبكين حوله ويقلن « لمن تتركنا نضيع بعدك ؟ » واذا ببدوى على بغل

وتحته حمل ثياب وغيره من السلع التى جاء بها ليبيعها فى سوق المدينة ، فصاح به البازى الأزرق قائلا : « يا سيدى انظر فى أية حالة أنا ، ولى عندك حاجة فيها فائدة لى ولك » .

فقال البدوى : « وما هى هذه الحاجة ؟ » .

فقال البازى الأزرق : « انظر الى تلك البئر القريبة ، فانى لما أرهقنى الشرط فى الطلب رميت فيها مائة دينار ، فعسى تحتال فى اخراجها ، وهذه زوجتى وبناتى يمسكن بغلك خلال ما تخرجها » .

فعمد البدوى الى حبل ودلى نفسه فى البئر بعد ما اتفق معه على أن يأخذ النصف منها ، فلما حصل فى أسفل البئر قطعت زوجة السارق الحبل ، وبقى البدوى حائرا يصيح من أعماق البئر ، وأخذت زوجة البازى الأزرق ، ما كان على البغل مع بناتها وفرّت به ، وكان ذلك فى حمارّة الصيف والطريق يكاد يكون خاليا من المارة ، وظل الرجل يرسل صيحاته المزعجة مستغيثا حتى سمع استغاثته أحد المارة فى الطريق واحتال مع آخر على اخراجه من البئر ، وكانت امرأة البازى الأزرق وبناته قد غبن عن العين وخلصن بما حملن من المتاع ، وسئل البدوى عن حاله فأجاب : « هذا الفاعل الصانع احتال علىّ حتى مضت زوجته وبناته بثيابى وأسبابى » . واشتهرت القصة وذاعت وبلغت مسامع المعتمد ، فتعجب منها ، وأمر باحضار البازى الأشهب ، وقال له « كيف فعلت هذا مع أنك فى قبضة الهلكة ؟ » .

فقال البازى الأزرق : « يا سيدى لو علمت قدر لذتى فى السرقة خليت ملكك واشتغلت بها » .

فلعنه المعتمد وضحك منه ، وكان قد أعجب بذكاء الرجل وسعة حيلته ، ورأى أن يستصلحه ويوجه ذكاءه ، وجهة نافعة ، فقال له : « ان سرّحتك وأحسنت اليك وأجريت عليك رزقاً يقلّك أتتوب عن هذه الصنعة الذميمة ؟ » .

فقال البازى الأزرق : « يا مولاى كيف لا أقبل التوبة وهى التى تخلصنى من القتل ؟ » .

فعاهد المعتمد وقدّمه على رجال أنجاد ، وصار من جملة حراس أحواز المدينة .

وهذه التفاتة نفسية جميلة من المعتمد ، تتجه الى اصلاح المجرم عن طريق رفع مستواه ، وتهذيب نفسه ، واشعاره بالتبعة ، لا عن طريق الامعان فى عقوبته ، والتنكيل به ، وهى تدل على نزعة انسانية وطبيعة نزاعة الى الخير كلفة بالاحسان والبر .

وكان المعتمد فى حرمه وبين نسائه وجواريه كما كان بين شعرائه وخاصته ، يقربهن ويفرط فى تدليلهن ، ويعاملهن على قدم المساواة فلا يسترهبهن بجبروته وصولته بل يرق لهن ويلين ويحلم ويغضى ويحتمل قسوتهن وفى بعض الأحيان حماقاتهن ويستعطفهن بالشعر البليغ والكلم العذب . وقد روى (١) الفتح

(١) قلائد العقيان صفحة ٩/٨ والنفح الجزء السادس صفحة ٦ .

عن ذخر الدولة ـــ أحد أبناء المعتضد ـــ أن المعتمد استدعاه فى ليلة قد ألبسها البدر رداءه ، وأوقد فيها أضواءه ، وهو على البحيرة الكبرى فى قصره والنجوم قد انعكست فيها تخالها زهرا ، وقابلتها المجرة فسالت فيها نهرا ، وقد أرجت نوافج الند ، وماست معاطف الرند ، وحسد النسيم الروض فوشى بأسراره وأفشى حديث آسه وعراره ، ومشى مختالا بين لبات النور وأزراره ، وهو وجم ، ودمعه منسجم ، وزفراته تترجم عن غرامه ، وتجمجم عن تعذر مرامه ، فلما نظر اليه استدناه وقربه ، وشكا اليه من الهجران ما استغربه وأنشده :

أيا نفس لاتجزعى واصبرى   والا فان الهوى متلف
حبيب جفاك وقلب عصاك   ولاح لحاك ولا ينصف
شجون منعن الجفون الكرى   وعوضنها أدمعا تنزف

وانصرف ذخر الدولة دون أن يعلمه المعتمد بقصته أو يكشف له عن غصته .

وقد اتسع قلب المعتمد لحب الكثيرات من جواريه وتدله فى حب بعضهن من هؤلاء جاريته جوهرة ، فقد فتن بها وتملكه حبها فقال فيها : فى احدى نوبات غضبها عليه وهجرها له :

سرورنا بعدكم ناقص   والعيش لاصاف ولاخالص (١)
والسعد ان طالعنا نجمه   وغبت فهو الآفل الناكص
سموك بالجوهر مظلومة   مثلك لا يدركه غائص

(١) نفح الطيب الجزء الخامس صفحة ٢٣٢/٢٣٣ .

ولما تمادت فى الغضب ، وأسرفت فى الهجران وجه اليها هذه الأبيات :

جـــوهرة عـــذبنى منك تمادى الغضب
فـــزفرتى فى صـــعد وعبرتى فى صـــبب
يا كوكب الحسن الذى أزرى بزهر الشهب
مســـكنك القلب فلا ترضى له بالوصـــب

وجرى بينه وبينها عتاب ورأى أن يكتب اليها يسترضيها ويستلين قلبها فأجابته برقعة لم تعنونها باسمها فقال :

لم تصف لى بعد والا فلم لم أر فى عنوانها جوهره
درت بأنى عاشـــق لاسمها فلم ترد للغيظ أن تذكره
قالت اذا أبصـــره ثانيـــا قبّـــله والله لا أبصـــره

وكانت جواريه يثقن بحبه لهن ، ويطمعن فى حلمه عليهن ، وهو يستطيب منهن هـــذا الدلال وتلك المعابثة ، فهو يقول فى جاريته سحر التى أفرطت فى التجنى عليه حتى سأل الله الصفح عنها :

عفـــا الله عن ســـحْر على كل حالة
ولا حوسبت عما بهـــا أنا واجد
أسحْر ظلمت النفس واخترت فرقتى
فجمّعت أحـــزانى وهن شـــوارد
وكانت شجونى باقترابك نُزّحاً
فهـــا هن لمـــا أن نأيت شـــواهد
فان تستلذى بَرْدَ مائك بعـــدنا
فبعدك ما ندرى متى المـــاء بارد

وفى جاريته وداد يقول المعتمد :

اشرب الكأس فى وداد ودادك   وتأنس بذكرها فى انفرادك
قمـر غاب عن جفـونك مرآ   ه وسكناه فى سواد فؤادك

على أن زوجته وريحانة نفسه اعتماد الرميكية ظلت الحبيب الأول ومالكة زمامه ، وبرغم تدلهه فىحب الكثيرات من جواريه فانهن لم يستطعن أن يزحزحن زوجته الحبيبة عن مكانها وقد عبر عن ذلك فى قوله :

فما حل خل من فؤاد خليله   محل « اعتماد » من فؤاد محمد

ولما طافت بنفسها الشبهة مرة رأى أن يرد عليها ثقتها به بقوله :

تظن بنـا أم الربيـع سـآمة
ألا غفـر الرحمن ذنبا تواقعـه
أأهجر ظبياً فى ضلوعى كناسه
وبدر تمـام فى جفونى مطالعه
وروضة حسـن أجتنيها وباردا
من الظّلم لم تخطر علىّ مشارعه
اذاً عدمت كفى نوالا تفيضـه
على مقنعيها أو عـدواً تقارعه

وفىمقطوعة أخرى يقول لها :

حب اعتماد فى الجـوانح ساكن
لا القلب ضاق به ولا هو راحل

وفى ديوانه مقطوعات من الشعر الغنـائى عذبة الجرس ، حلوة النغم ، أغلب الظن أنها قيلت فى جواريه الكثيرات اللواتى

كان ينعم بقربهن فى قصوره ، ويروقه منهن القرب والصد والاقبال والنفور مثل قوله :

يا بديع الحسن والاحسـ ... ـان يا بـدر الدياجى
يا غـزالا صـاد منى ... بالطلى ليث الهياج
قد غنينـا بسنا وجهـ ... ـك عن ضـوء السراج

وقوله :

أنا فى عذاب من فراقك ... نشوان من خمر اشتياقك
لا تحسـبى أنى سـلو ... ت لما توالى من فراقك
صـبّ الفـؤاد الى لقا ... ئك وارتشافك واعتناقك
هـذى جفونى أقسمت ... لا ملتقى ما لم تلاقـاك
فصـلى جميل الظن بى ... وثقى فقـلبى فى وثاقك

وربما كانت شاعرية المعتمد وعطفه على الشعراء وتقديره لهم واعلاؤه لشأنهم يزرى به فى أمم أخرى غير الأمة الأندلسية فى عصره ، أما فى زمنه فانه كان للشعر عند الأندلسيين حظ عظيم وللشعراء من ملوكهم جميعا وجاهة ، وكان هذا هو الغالب الا أن يختل الوقت ويغلب الجهل فى حين ما ، ومما أورده المقرى فى النفخ أنه[1] : « اذا كان الشخص بالأندلس نحويا أو شاعرا فانه يعظم فى نفسه لا محالة ويسخف ويظهر العجب ، عادة قد جبلوا عليها » .

ونرى من ذلك أن الشعر زاد المعتمد جلالا فى النفوس ، وحباً فى القلوب ، ولم يزر به ، وينقص من قدره ، بل زاده علوا وانافة على معاصريه من الملوك والأمراء .

---

(١) الجزء الأول من نفح الطيب صفحة ٢٠٧ .

الاستيلاء على قرطبة

كان الميل الى اللهو والتسلى وحب الاستمتاع يطغيان على وقت المعتمد ويستأثران به الى حد كبير ، والأرجح أن هذا الحرص على اجتناء المتع والتنقل بين الغرام بجواريه الحسان وشعرائه الهائمين فى كل واد والذين كانوا لا يقلون عنه اقبالا على المتعة وجريا وراء اللذة ، بل لعل بعضهم مثل عبد الجليل بن وهبون قد بلغ به الانطلاق وراء اللذات الى حد الاستهتار والمجون ، أقول ان الأرجح أن هذا كله كان يشغله فى بعض الأوقات عن أعمال الدولة وشئون الحكم ، ولكن المعتمد مع ذلك كله لم يكن منصرفا الانصراف كله الى اللهو والمتعة ، وكانت خطورة الظروف التى تمر بها الأندلس الاسلامية فى تلك الأيام تستوجب ذلك ، ولم يكن فى المعتمد صرامة أبيه المعتضد ، ومضاء عزيمته ، وقوة ارادته ، وشدة طموحه ودهائه وبعد غوره ومتابعته بدقة وعناية وصبر البرنامج الذى فرضه على نفسه ، ووضع تحقيقه نصب عينه ، ولكن المعتمد مع ذلك كان لا يخلو من الطموح والشعور بالتبعة والحرص على توسيع أملاكه وبسط نفوذ أسرته ، وكانت الأسرة العبادية منذ نشأتها تطمع فى بسط سلطانها على الأندلس الاسلامية جميعها ، وتوحيدها تحت علم واحد ، ولو أنها استطاعت تحقيق هذا الهدف لكان

ذلك على الأرجح خيرا للأندلس ، وربما كان جنَّبها الكثير من الرزايا والنكبات التى حلَّت بها ، ولكن الظروف كانت أقوى من تلك الأسرة ، والعقبات القائمة فى سبيل ضم أشتات الولايات المتناثرة لم يكن من اليسير تذليلها ، كان الأمر فى حاجة الى عاملين هامين ، مواتاة الظروف وظهور أحد العبقريين الذين لا يظهرون الا فى الفلتات النادرة .

وقد تطلع جد المعتمد القاضى أبو القاسم وأبوه المعتضد الى الاستيلاء على قرطبة لأهمية ذلك لمن يريد بوجه خاص أن يبسط سلطانه على الأندلس الاسلامية ، فقد كانت قرطبة قاعدة الخلافة طوال العهد الأموى ، وكانت لها شهرتها الذائعة ، وذكرياتها التاريخية ، ومكانتها الأدبية ، وقد مهد المعتضد السبيل للاستيلاء عليها وكانت الظروف مواتية ، ولو امتد به طَلَق العمر لاستطاع على الأغلب الاستيلاء عليها ، وحقق بذلك أملا طالما راوده ، ولكن الموت أعجله قبل أن يظفر ببغيته .

وقد سبق أن ذكرت أن أهل قرطبة حينما يئسوا من ورثة الخلافة الأموية الأندلسية ونفضوا أيديهم من الولاء لهم وطردوا آخرهم من مدينتهم أقاموا حكما كثير الشبه بالحكم الجمهورى ، وكان صاحب الرأى الأعلى فيه أو ما يصح أن ندعوه برئيس الجمهورية هو الرجل السديد الرأى الراجح الفكر العف اليد أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور ، وقد ظل يسوس الأمور خير سياسة ، ويدبرها أحسن تدبير حتى طواه دهره فى سنة ٤٣٥ فخلفه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور الذى

جرى على سياسته واقتفى أثره غير مخــل بشيء منه فحسنت أحوال قرطبة ، واستتب بها الأمن ، وثقلت أعباء الرياسة على أبى الوليد فرأى فى سنة ٤٥٦ هجرية أن يقسم السلطة التى له بين ولديه عبد الرحمن وهو كبير جماعتهم وأخيه عبد الملك وهو أشهمهم فؤادا وأصلبهم عودا ، وكان قد أشار عليه بعض حلفائه من رؤساء الأندلس بايثار عبد الرحمن منهما بوصفه الأكبر ، فتمسك أبو الوليد بحظه من ارضاء ولده الصغير عبد الملك ، فمال الى قسمة الرياسة بينهما طوال حياته ، ومتّع نفسه بهواها فى صغير ولده وصدق قول الشاعر الأندلسى ابن الجزيرى :

واذا الفتى فقد الشباب سماله حب البنين ولاكحب الأصغر

فأرتع ولديه هذين فى دنياه ، وبسط أيديهما فى سلطانه ، فوقع بينهما ما كان منتظراً من التنافس ، وطفــق كل منهما يستميل طائفة من الجند ويصطنع من الرعية فرقة ، وكثر خوض الناس فى الحديث عن التنافس بين الأخوين ، وخاف أبو الوليد عاقبة ذلك وأراد أن يضع له حدا ، فجعل الى أكبرهما عبدالرحمن النظر فى أمر الجباية والاشراف على أهل الخدمة والتوقيع فى الصكوك الســلطانية المتضمنة للحل والعقد والاطراح والضم وجميع أبواب النفقات ، وهو ما نســميه فى عصرنا الاشراف الادارى والمالى ، وجعل الى عبد الملك النظر فى الجند ، والتولى لعرضــهم ، والاشراف على أعطيتهم ، والركوب فيهم لدى الروع ، وتجريدهم فى البعوث ، والتقوية لأوَدِهم وجميع ما

يخصهم ، أى الاشراف على الجيش والشرطة والأمن العام ، ورضى الأخوان بهذا التقسيم .

وكان المدير الحقيقى لدولة بنى جهور رجل يدعى بابن السقاء ، وكان هذا الرجل حازما قوى الشكيمة ، شديد الضبط لسلطانه ، وقد استطاع بقوة شخصيته أن يحسم الأطماع عن قرطبة ، ويخيف الأنداد والمتنافسين والحساد ، وكان المعتضد يتطلع الى امتلاك قرطبة ، ولذلك كان يرقب أحوالها ، وحاول أن يغتنم الفرصة الملائمة للوثوب عليها وضمها الى أملاكه ، وكان يجد فى يقظة ابن السقاء ونجاح سياسته عقبة كأداء فى طريق تحقيق أمنيته ، فلجأ الى المكر والحيلة ، ودس الى عبد الملك الذى كان يعرف تهوره واندفاعه من يوغر صدره على ابن السقاء ويجسره على الفتك به والخلاص منه ، وفى الوقت نفسه دس على ابن السقاء من زين له الاستئثار بالسلطة، وألقى فى روعه حبّ الملك ، وبذلك اتسعت هاوية الخلاف بين عبد الملك وابن السقاء ، وكبر على عبد الملك أن يسلب ابن السقاء بنى جهور نفوذهم ، فوثب عليه وقتله ، واعتقد بذلك أنه قد استدرك لقومه ما كان تولى من سلطانهم ، وملأه ذلك زهوا وغروراً واستطالة على الناس ، وقد أضر قتل ابن السقاء بالدولة القرطبية ضرراً بليغاً فقد كان الرجل يبعث الهيبة والاحترام فى نفوس رجال الدولة جميعهم ، وكان قد اصطنعهم بحذقه ، وامتلك قلوبهم بسماحته وبذله وتواضعه وعدله ، فلما خلا الجو لعبد الملك بعد مصرع ابن السقاء وركبه الغرور أساء

السياسة وأسخط الناس وذاع ذلك وشاع ولاحت الفرصة للطامعين فى الاستيلاء على قرطبة ، وكان يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة لا يقل شغفاً عن المعتضد بامتلاك قرطبة .

وخلت السنون وعدت العوادى المعتضد عن أخذ قرطبة ، وغالته المنون فى سنة ٤٦١ وصار الأمر الى ابنه المعتمد ، فلما كانت سنة ٤٦٢ دلف ابن ذى النون الى قرطبة وجعل يوالى عليها الغارات ، وكان عبد الملك قد غلب أخاه على أمره واستبد بالأمر ، والظاهر أنه ألغى بالتدريج النظام الشبيه بالنظام الجمهورى الذى كان ينعم به سكان قرطبة ، وانفض الناس من حوله ، فلما جاء ابن ذى النون بجيشه وضرب الحصار على المدينة لم يجد عبد الملك عنده من الأنصار والمؤيدين الذين يستطيع بهم أن يرد الهجوم ، ويقاوم الحصار ، وينقذ حكومته من السقوط والدمار ، ولم يجد بداً من استمداد المساعدة من المعتمد ، وبذلك لاحت الفرصة التى كان يتطلع اليها المعتمد ووالده من قبله وهى فرصة الاستيلاء على قرطبة ، فأرسل اليه جيشا مع قائديه : خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين ، فاضطر جيش ابن ذى النون الى أن ينسحب الى طليطلة ، وكان المعتمد قد نهج لقائديه السبيل الذى يتّبعانه ، وكان جيش اشبيلية قد نزل بربض قرطبة الشرقى ، فلما ارتحل ابن ذى النون تظاهر الاشبيليون بالاستعداد للقفول ، وباتوا مظهرين للرحيل ، وعبد الملك متأهب لتشييعهم ، عازم على البكرة الى توديعهم وشكرهم على حسن صنيعهم ، فلم يرعه فى صباح اليوم التالى

الا أحداقهم بقصره ، واعلانهم البراءة من أمره ، وقبض للحين عليه وعلى اخوته وجميع أهل بيته ، وانتهكت حرمتهم ، وأخرج الشيخ أبو الوليد وكان اذ ذاك مائل الشق مفلوج الشــدق . وحملوا جميعا الى جزيرة شلطيش ، وظلوا بها بقية أيام المعتمد ، ولم تطل حياة أبى الوليد بعد تلك الصــدمة فمات فى الجزيرة المذكورة بعد أربعين يوماً من نكبته وانقرض بذلك ملك بنى جهور ، وقد شاء القدر أن يلعب يوسف بن تاشفين مع المعتمد ــ على وجه التقريب ــ الدور الذى لعبه المعتمد مع بنى جهور أمراء قرطبة .

والطريقة التى اتبعهــا المعتمد فى أخذ قرطبة ترينــا طابع السـياسة المكياڤيلية التي كانت غالبة على هــذا العصر بوجه خاص ، وتكشف لنا عن سوء علاقة مــلوك الطوائف بعضهم ببعض ، وكيف كان كل منهم يبغى هلاك الآخر ليستلب ملكه ، مما مكّن ملوك اسبانيا المسيحيين من استرداد نفوذهم ، وطرد المسلمين من بلادهم .

وفرح المعتمد بالاســتيلاء على قرطبة ، وهز الزهو عطفيه فجادت قريحته الشعرية بهذه الأبيات :

من للملوك بشأو الأصــيد البطل
هيهات جاءتكم مهــدية الدول
خطبت قرطبة الحســناء اذا منَعت
من جاء يخطبها بالبيض والأسل

وكم غدت عاطلا حتى عرضت لها
فأصبحت فى سرى الحلى والحلل

عرْس الملوك لنا فى قصرها عُرُس
كل الملوك به فى مـأتم الوجل

فراقبوا عن قـريب لا أبا لـكم
هجوم ليث بدرع البأس مشتمل

ولما انتظمت قرطبة فى سلك المعتمد أعطى ابنه عبادا الملقب بالظافر زمامها ، وكان عباد أحد أبنائه من حظيته الرميكية ، ولم يكن المعتمد موفقا فى هذا الاختيار ، لأن عبادا كان صغير السن قليـل التجربة ، وكان أهل قرطبة كثيرى التقـلب نزاعين الى الشغب شديدى النقد لحكامهم ، وقد قبلوا بارتياح فى بادىء الأمر حكم أميرهم الشـاب الغرير الحسن القصـد ، الطيب النفس ، ولكن جهله بأصول الحكم وسياسة الملك جعلته يعتمد فى تصريف الأمور على ابن مرتين رئيس حرس المدينة ، وكان ابن مرتين قائدا قديراً وجنـديا بارعا ولكنه كان فظـاً سيىء السريرة محبا للأذى ، ولذلك كرهه القرطبيون .

ولم يكن ابن ذى النون يعتقد أن مسألة قرطبة قد انتهت والها قد خلصت لابن عباد ، فشن غارة على أحوازها مع جنود حليفه ألفونسو السادس ، ولكن الأمير الشاب الناشىء استطاع أن يصد هجومهم ويدفع غائلتهم .

وكان هناك رجل يدعى بابن عكاشة قد صمم على امتلاك المدينة ، وكان هذا الرجل مغامرا فتاكا شديد الضراوة مطبوعا

على الاجرام ، وكان فى بدء حيـاته من قطاع الطرق وكان مع ذلك لا يخلو من ذكاء وحدة قلب ونباهة شـأن ، وكان يعرف قرطبة وأهلها معرفة جيدة ، فقد لعب دورا فى سياستها ، وتمرس بأحوالها ، فلما عين حاكما لأحد الحصون أخذ يعمل على تدبير مؤامرة داخل المدينة ، ووجد الطريق معبـدا لذلك فقد كان التذمر من سوء الحكم عاما ، وقد نقم الأهالى على عبد الملك بن جهور لأنه عنف بهم وسـلط عليهم رجال بطانتـه وكانوا من السفال وسقاط الناس ومن لا خلاق لهم وساعدوا جيش ابن عباد فى الاستيلاء على المدينة لأنهم ضجروا من جور عبد الملك وصحابته ، وفتنوا فى بادىء الأمر بكرم خلال الأمير الشـاب وشيمه الغر ولكن غلبة ابن مرتين عليه وأخذه لهم بالشـدة واستبداده بالأمر أعادهم الى قديم سخطهم ، واستغل ابن عكاشة الموقف ، والعجيب أن ابن عكاشـة لم ينجح فى اخفاء خططه وكتمان سره ، ولحظ أحـد قادة الحرس أن ابن عكاشة يغشى أبواب المدينة تحت ستار الليل ، ويتبادل الأحاديث المريبة مع حراس المدينة ، فبادر بابلاغ الأمر الى الأمير عباد ، فلم يقدر أهميته ولم يعره اهتمـامه ، واكتفى بأن أحال الأمر على ابن مرتين ، وأحـاله ابن مرتين فى دوره على من دونه من رجـال الحرس ، والواقع أن كل واحد من رجال الحرس والقائمين على الأمن فى المدينة كان يحيـله على الآخر ولم يتخذ أى اجراء للقضاء على المؤامرة فى مهدها ، وظل ابن عكاشة متابعا نشاطه وهو واثق من نفسـه مطمئن الى نجاحه لغفلة الأمير ورجاله

وتماديهم فى التهاون . وفى احدى ليالى شتاء سنة ٤٦٨ الحالكة الظلام وقد اشتد عصف الرياح انتهز ابن‌عكاشة الفرصة ودخل المدينة مع رجاله دون أن يراه الحراس ، ووصل الى قصر الأمير وقد غاب عنه الحرس ، وهم بكسر البـــاب ، فأيقظ البواب الأمير ، فهب من نومه ، وجرد سيفه ولم يكن معه سوى عدد قليل من عبيده ورجاله ، ورغم صغر سنه دافع الأمير عن حوزته دفاع الأبطال ، واســـتطاع تطهير دهليز القصر من المهاجمين ، ولكن قدمه زلت لسوء حظه ، واغتنم أحد المهاجمين فرصـــة وقوعه على الأرض وقتله ، وكان الأمير حينما أوقظ من نومه لم يجد ما يكفى من الوقت لارتدائه ثيـــابه فسحبت جثته الى خارج القصر وألقيت بالطريق عارية .

وقاد ابن عكاشـــة رجاله الى بيت قائد الحرس ابن مرتين الذى لم يكن يتوقع مثل هذه المفاجأة وكان قد أقام حفلة راقصة فى داره ، وبينما هو يسمع شدو القيان ورنة العيدان صك سمعه صليل السيوف فى فناء داره ، وكانت تنقصه شـــجاعة الأمير الشاب ابن المعتمد فبادر الى الاختفاء وأخرج من مخبئه وقتل .

وعند تبلج أنوار الفجر فى اليوم التالى وبينما كان ابن عكاشة يتنقل مسرعا بين منازل أعيان المدينة ورجالاتها ليضمهم الى صفه خرج أحد أئمة المساجد من داره قاصدا المسجد لصلاة الصبح ، ووقعت عينه على جثة الأمير الملقاة على قارعة الطريق وقد تبينها بصعوبة لأنها كانت ملطخة بالأوحال فخلع رداءه عن منكبيه وستر بها الجثة العارية ، ولم يكد يذهب فى طريقه حتى

جاء ابن عكاشة يتبعه الغوغاء محبو الشغب وأتباع كل ناعق ، فلما رأى الجثة أمر ففصل الرأس من العنق ، ورفع على رمح ، وطيف به فى أنحاء المدينة بين صيحات الرعاع المدوية ، ولما رأى جنود الحرس الرأس المرفوع على الرمح ألقوا سلاحهم ولاذوا بالفرار ، وجمع ابن عكاشة أهل قرطبة فى المسجد الجامع وأمرهم بحلف يمين الولاء للمأمون صاحب طليطلة ، وبالرغم من أن الكثيرين منهم كانوا يضمرون الولاء للمعتمد فانهم لم يتخلفوا عن بيعة المأمون لخوفهم من ابن عكاشة .

وبعد أيام قلائل جاء المأمون بن ذى النون بنفسه الى قرطبة وأظهر شكره العميق لابن عكاشة وثقته به ، ولكنه كان فى صميم نفسه يخشى هذا اللص المغامر المتمرس بالجرائم ، وكان يرى أن من تطاول على قتل الأمراء وأبناء الملوك لا يؤمن شره ولذلك شرع يتحين الفرص للخلاص منه ، ولم يستطع كتمان ذلك عن حاشيته ، ففى ذات يوم دخل عليه ابن عكاشة فرحب به وأدناه وهش له ، فلما خرج تنفس الصعداء ، وأتبعه نظرة شوهاء ، وهينم بكلمات نال بها منه ، ولما سأله أحد رجال حاشيته عن سبب ذلك قال « من اجترأ على الملوك لا يصلح للملوك » . وفى الشهر السادس لاقامة المأمون فى قرطبة توفى مسموما ، وقد دس له السم أحد رجال بلاطه ، ومن الصعب أن نصدق أن ابن عكاشة لم يكن شريكا له فى هذه الجريمة .

وحزن المعتمد على ابنه حزنا شديدا حينما بلغته أنباء قرطبة ، وألهاه الحزن وتقدير جميل الرجل الذى خلع رداءه وغطاه

به عن الظمأ الى الانتقـام ، وتمثل بقول الشاعر أبى خِراش الهذلى فى رثاء ابنه .

ولم أدر من ألقى عليـه رداءه

على أنه قد سل عن ماجد محض

ولم يحفظ له فيه شعر سوى اشارته اليه فى رثاء أخويه المأمون والراضى وقد قتلا سنة ٤٨٤ وهى قوله :

وقبلـكما ما أودع القلب حسرة

تجدد طول الدهر ثكل أبى عمرو

ولم يستطع المعتمد الثأر لابنه والانتقام من ابن عكاشـة واسترداد قرطبة الا بعد ثلاثة أعوام ، ففى سنة ٤٧١ هوجمت المدينـة ، وفى الوقت الذى دخل فيـه جيش المعتمد من أحد أبوابها هرب ابن عكاشة من الباب الآخر ، فأتبعه المعتمد بعض فرسانه ، ولما كان ابن عكاشة يعلم أنه لا يرجو رحمة من المعتمد اذا ظفر به وقد قتل ابنه لذلك صمم على أن يبيع حياته بالثمن الغالى ، وهاجم فرسان المعتمد كالثور الهائج ، ولكنهم تكاثروا عليه وقتلوه وأمر المعتمد بصلب جثته والى جانبها كلب .

وتلا فتح قرطبة الاستيلاء على الأراضى التـابعة لمملكة طليطلة بين نهر الوادى الكبير ونهر وادى آنه ، ولا نزاع فى أن الظفر بقرطبة كان انتصارا عظيما للمعتمد ، ولكن المسألة كان لها وجه آخر ، فقـد كان المعتمد قويا حينمـا يقاس بالأمراء المسلمين فى الأندلس ، فهو أبعدهم شهرة وأضخمهم سلطانا . ولكنه كان مثلهم يؤدى الجزية المفروضـة عليهم لغرسـية ملك

قشتالة والابن الثالث لفرناندو ، ولما استولى ألفونسو السادس على ملكى أخويه غرسية وسانكو أصبح هو الذى تدفع له الجزية المفروضة ، وكان ألفونسو السادس ملكا طاغية فظا شديد الجشع ، فلم يكتف بالجزية السنوية التى كان يتقاضاها من الملوك والأمراء المسلمين ، وكان من الحين الى الحين يهددهم بالاستيلاء على أملاكهم ، وقاد جيشه مرة وغزا منطقة اشبيلية ، واستولى الخوف على السكان المسلمين ، ولم يكن للمعتمد قبل على رد غارته ، ولكن ابن عمار كبير وزراء المعتمد لم ييأس ، وكان يعلم أنه لا فائدة ترجى من وضع جيش اشبيلية أمام جيش ألفونسو السادس الجرار ، فلابد اذن من اصطناع الحيلة ، وكان ابن عمار يعرف ألفونسو السادس معرفة جيدة فقد زار بلاطه وبلاط غيره من ملوك شبه الجزيرة وكان ألفونسو كذلك يعرف ابن عمار ويقدره واذا ذكر اسم ابن عمار عنده يقول عنه : « هو رجل الجزيرة » ، وكان ابن عمار يعرف طموح ألفونسو ومطامعه ولكنه كان يعرف كذلك نزواته ونواحى ضعفه ، وعمل ابن عمار على استغلال هذه النواحى الضعيفة فى دفع الهجوم على اشبيلية ، وبدلا من اعداد جيش للمقاومة وتنظيم الاستعداد للدفاع أمر باعداد رقعة شطرنج غاية فى الاتقان والابداع لا يملك ملك من الملوك مثلها ، وافتن فيها صانعها فجعل صورها من الآبنوس والعود الرطب والصندل ، وحلاّها بالذهب ، وجعل أرضها غاية فى الاتقان ، وخرج من عند المعتمد رسولا الى ألفونسو ، ولقيه فى أول بلاد

المسلمين ، وأعظم ألفونسو قدومه وبالغ فى اكرامه ، وأمر وجوه دولته بالتردد الى خبائه والمسارعة فى حوائجه ، وأظهر ابن عمار رقعة الشطرنج ، فرآها بعض خواص ألفونسو ، ونقل خبرها اليه ، وكان ألفونسو مولعا بلعب الشطرنج ، فلما لقى ابن عمار سأله : « كيف أنت فى الشطرنج ؟ » وكان ابن عمار ممن يجيدون هذه اللعبة ، فأجابه ان أصحابه يقولون عنه انه يحسن اللعب بالشطرنج ، فقال له ألفونسو : « بلغنى أن عندك رقعة فى غاية الاتقان ! » .

فأجابه ابن عمار : « نعم » .

فقال ألفونسو : « كيف السبيل الى رؤيتها ؟ » .

فقال ابن عمار لترجمانه : « قل له أنا آتيك بها على أن ألعب معك عليها ، فان غلبتنى فهى لك وان غلبتك فلى حكمى » .

فقال ألفونسو : « أحضرها لننظر اليها » .

فأمر ابن عمار من جاء بها ، فلما وضعت أمام ألفونسو دهش من اتقانها وقال : « ما ظننت أن اتقان الشطرنج يبلغ الى هذا الحد ! » .

ثم قال لابن عمار : « كيف قلت ؟ » .

فأعاد ابن عمار عليه الكلام الأول .

فقال ألفونسو : « لا ألعب معك على حكم مجهول لا أدرى ما هو ، ولعله شىء لا يمكننى » .

فقال ابن عمار : « لا ألعب الا على هذا الوجه ! » . وأمر بالرقعة فطويت .

وكشف ابن عمار سر ما أراده لرجال وثق بهم من وجوه دولة ألفونسو وجعل لهم أموالا عظيمة على أن يؤازروه على أمره ، وحملهم الطمع فى المال على تأييد ابن عمار ، ولما كان ألفونسو شديد الرغبة فى اقتناء الرقعة فقد شاور خاصته فيما رسمه ابن عمار ، فهوّنوا عليه الأمر وقالوا له : « ان غلبته كانت عندك رقعة ليس عند ملك مثلها ، وان غلبك فما عساه يحتكم ؟ » .

وقبّحوا عنده اظهار الملك العجز عن شيء يطلب منه . وقالوا له « ان طلب ابن عمار ما لا يمكن فنحن لك برده عن ذلك » . ولم يزالوا به حتى أجاب ، وأرسل الى ابن عمار ، فجاء ومعه الرقعة فقال له ألفونسو : « لقد قبلت ما رسمته » .

فقال له ابن عمار : « اجعل بينى وبينك شهودا نزولا على قوانين اللعبة وأذن لى فى اختيار الشهود » .

ووافق الملك على ذلك ، ولما جاء الشهود القشتاليون بدأ اللعب ، وكان ابن عمار لا يقوم له أحد بالأندلس فى لعب الشطرنج ، فغلب ألفونسو غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين ، ولم يجد ألفونسو فيها أى مطعن ، فلما حقّت الغلبة قال له ابن عمار : « هل صح أن لى حكمى ؟ » .

فقال ألفونسو : « نعم ، فما هو ؟ » .

فقال ابن عمار : « أن ترجع من ههنا الى بلادك وتعود بجيشك » .

فأربد وجه ألفونسو ، وقام وقعد ، وقال لخواصه : « قد

كنت أخاف من هــذا حتى هوّنتموه عليّ » وهم بالنــكث والتمادى لوجهه ، فقبحوا له ذلك ، وقالوا له : « كيف يجمل بك الغدر وأنت ملك ملوك النصارى فى وقتك ! » ولم يزالوا به حتى سكن ، وقال : « آخذ اتاوة عامين خلاف هذه السنة ! » .

فقال ابن عمار : « هذا كله لك ! » . وجاءه بما أراد ، فرجع أدراجه ، وكف بأسه .

ورجع ابن عمــار الى اشــبيلية وقد امتلأت نفس المعتمد سروراً بخلاصه من هذا المأزق وسلمت له اشبيلية كما امتلأت نفس ابن عمار غروراً بهذا الانتصار .

مصرع ابن عمار

قال ابن بسام فى الذخيرة يصف ابن عمار : « كان زير قيان وغلمان ، وصريع راح وريحان ، أمله شرب كأس وشم آس . وجزله فى نصب حباله لغزال أو غزالة حتى ثلّ ذلك عرشه وطأطأ من سموه » . هذا رأى ابن بسام ، ولكنه نظر الى جانب واحد من حياة هذا الرجل الذى شغل بال معاصريه وكثر حساده ومنافسوه ، فقد كان ابن عمار الى جانب نزعته الأبيقورية رجلا طموحاً شديد الثقة بنفسه والاعجاب بها ، ولا نزاع فى أن الحيلة التى اصطنعها فى دفع عدوان ألفونسو السادس على اشبيلية زادته غروراً واعتزازاً بنفسه ، وجعلته يعطيها فوق قدرها ، وعد نفسه منقذ الدولة ، ومخلص الأمة ، وأصبح يرى أن المعتمد لا يستطيع الاستغناء عنه ، وأنه سيظل يشعر بأنه مدين له بالبقاء على عرش اشبيلية ، وترامت مطامعه ، وتطلع الى توسيع حدود مملكة اشبيلية ، واتجهت أنظاره بوجه خاص الى التغلب على مدينة مرسية وأعمالها وهى التى تعرف بتدمير ــ احدى كور شرق الأندلس ــ وكانت مرسية حينما نشبت الفتنة فى الأندلس وتمزقت وحدتها قد استقل بها خيران الصقلبى أحد موالى المنصور بن أبى عامر ، وخلفه عليها بعد موته زهير

الصقلبى وكان مثله من موالى المنصور ، وظل يحكمها بضع سنين ، وحدث خلاف بينه وبين باديس بن حبّوس صاحب غرناطة من جراء حماقة وزيره ابن عباس أدى الى نشوب حرب بينهما أسفرت عن مقتل زهير وأسر ابن عباس وقتله بعد ذلك ، وضمت مرسية الى مملكة بلنسية ، ولكنها عادت فاستردت استقلالها ، وكان المتغلب عليها والمدبر لأمرها فى ذلك الوقت هو أبو عبد الرحمن محمد بن طاهر ، وكان ابن طاهر عربيا من قبيلة قيس المضرية ، وكان واسع الثراء يملك نصف مرسية ، وكان مع ضخامة ثروته مثقفا مستنير الذهن ، ولكنه كان قليل العناية بجيشه ، ولذلك كان جيشه ضعيفا ناقص الأهبة ، وكان ابن عمار يعرف ذلك ، ولذلك أغرى المعتمد بالاستيلاء عليها . وأعد المعتمد جيشا لمهاجمتها ، والظاهر أن ابن عمار الذى كان شديد الحرص على أخذ مرسية أراد أن يحتاط للأمر فرأى الاستعانة بصاحب برشلونة الكونت ريموند بيرانجيه ، وأقنع المعتمد بذلك ، فأرسله المعتمد لعقد معاهدة معه ، وفى أثناء ذهاب ابن عمار الى برشلونه مر بمرسية وأكد علاقاته ببعض أشرافها الذين كانوا ناقمين على سياسة ابن طاهر ، وأغرى بعضهم بالمال ، ووعد بعضهم بمنحه السلطة والنفوذ اذا يسر له التغلب على المدينة ومضى لوجهته ، ولما وصل الى بلاط صاحب برشلونة فاوضه فى المهمة التى جاء من أجلها وعرض عليه عشرة آلاف مثقال ذهبا اذا ساعده فى غزو مرسية ، وقبل الكونت هذا العرض وتم التعاقد بينهما على أن يرسل الكونت ابن أخيه

رهينة عنـــد المعتمد حتى لا يخل بشروط الاتفاق ، ووعد ابن عمار من جانبه أنه اذا لم يأت المال الى الكونت فى الأجل الذى ضربه البرشلونى يصبح الرشـــيد ابن المعتمد الذى كان يقود حملة اشبيلية رهينة عند الكونت ريموند ، وكان المعتمد يجهل هذا الشرط من شروط الاتفاق ، وأصعد المعتمد ابنه الرشـــيد فى جيش اشبيلية وأخذ يسعى فى تدبير المال المطلوب وفى نيته أن يلحق به بعد جمعه ، ولم يكن يقدر ابن عمار أن المعتمد قد يتأخر فى ارسال المال المطلوب ، ولذلك قبـــل شرط أن يرهن كل واحد منهما ما يثق به ، واعتقد أن شرط الرهن لن يطبّق .

وتقدم جيش اشـــبيلية ، ولقى جيش الـــكونت ريموند ، وهاجم الجيشان ولاية مرسية وانصرم الأجل المحدود ولم يصل المال الى صاحب برشلونة ، وتحرك المعتمد الى قرطبة ثم الى جيّان ومعه الرهينة على عادته من التؤدة ، وأبطأ على ريموند ما عوقد عليه ، واعتقد أن ابن عباد قد مكر به فقبض على ابن عمار وعلى الرشيد بن المعتمد وقيدهما ، وحاول جيش اشبيلية أن يخلصهما ولكنه عجز عن ذلك ، ونكص على أعقابه مفلولا . وفصل المعتمد من جيّان وشارف على شقورة ، فلما وصل الى وادى آنه لم يمكنه خوضـــه لمده بالسيول ، فأقام على شاطئه الغربى ، وجاءه فلّ عســـكر اشبيلية ، وأطلّوا على الشـــاطىء الشرقى ، واقتحمه منهم فارســـان أجازاه اليه وأخبراه بالنبـــأ الكريه ، فسقط فى يده وعاد أدراجه الى جيّان بعد أن وضع ابن أخى الكونت فى الحديد ، وكان ابن عمار قد أوصى اليه مع

هذين الفارسين أن يقيم لعله يلحق به ، وأطلق سراح ابن عمار فورد عليه بعد تمام عشرة أيام ، ونزل على وادى بلّون على مقربة من جيّان وكتب كتابا وطواه وبعث به أحد فرسان عبيده الى جيان ، ولم يجترىء ابن عمار على المثول بين يدى المعتمد وأرسل اليه الأبيات الآتية :

أصدق ظنى أم أصيخ الى صحبى
فأمضى عزمى أم أعوج الى الركب
وأصبحت لا أدرى أفى البعد راحتى
فأجعله حظى أم الحظ فى القرب
اذا انقدت فى أمرى مشيت مع الهوى
وان أتعقبه نكصت على عقبى
على أننى أدرى بأنك مؤثر
على كل حال ما يزحزح من كربى
أهابك للحق الذى لك فى دمى
وأرجوك للحب الذى لك فى قلبى
أيظلم فى وجهى كذا قمر الدجى
وتنبو بكفى صفحة الصارم العضب
حنانيك فيمن أنت شاهد نصحه
وليس له غير انتصاحك من حسب
وما جئت شيئا فيه بغى لطالب
يضاف به رأى الى العجز والعجب

سوى أننى أسلمتنى لملمة
فللت بها حدى وكسرت من غربى
وما أغرب الأيام فيما قضت به
ترينى بعدى عنك آنس من قربى
أما أنه لولا عوارفك التى
جرت جريان الماء فى الغصن الرطب
لما سمت نفسى ما أسوم من الأذى
ولا قلت ان الذنب فيما جرى ذنبى
سأستمنح الرحمى لديك ضراعة
وأسأل سُقْنيا من تجاوزك العذب
فان نفحتنى من سمائك حَرْجف
سأهتف يا برد النسيم على قلبى

وكان المعتمد يشعر بما عليه من تبعة فيما حدث ، وأن الذنب ذنبه والتقصير من جانبه ، ولذلك لم يسترسل مع الغضب ، ولم يصب سخطه على ابن عمار ، وكتب اليه بهذه الأبيات ليفرغ السكينة على قلبه ، ويشجعه على القدوم اليه :

تقدم الى ما اعتدت عندى من الرّحب
ورد تلقك العتبى حجابا من العتب
متى تلقنى تلق الذى قد بلوته
صفوحا عن الجانى رءوفا على الصحب
سأوليك منى ما عهدت من الرضا
وأعرض عماكان — ان كان — من ذنب

فما أشعر الرحمن قلبى قسوة

ولا صار نسيان الأذِمّة من شَعْبى

تكلفته أبغى به لك سلوة

فليس يجيد الشعر مشترك اللب

ولما اطمأن ابن عمار الى صفح المعتمد أسرع اليه ، واتفق الصديقان على أن يسلما للكونت ابن أخيه وعشرة الآلاف مثقال من الذهب حسب الاتفاق المعقود بينهما لقاء اطلاق سراح ابنه الرشيد .

ولكن ريموند لم يكتف بالمال السابق الاتفاق عليه ، وطلب ثلاثين ألف مثقال من الذهب ولم يكن هذا المبلغ فى حيازة المعتمد وهو بعيد عن قاعدة ملكه فأمر بسك عملة أدخل فى تركيبها عناصر زائفة ، ولحسن حظه لم يفطن ريموند لمبلغ ما فيها من الزيف فقبلها وأطلق سراح الرشيد .

ورغم اخفاق محاولة الاستيلاء على مرسية فان ابن عمار لم يرجع عن طلبها فقد كان يطمع فى الاستيلاء عليها ، وتحدثه نفسه بالاستقلال بها ، والأرجح أن الرجل كان يطلب الملك ، فقد كان شديد الثقة بنفسه وكانت مطامعه لا تقف عند حد ، وقال للمعتمد انه تلقى رسائل من أعيان مرسية تشجع على استئناف المحاولة ، ونجح فى اقناع المعتمد بأن يزوده بجيش لمحاصرة المدينة ، ولم يكتف بذلك بل طلب منه أن يأخذ ما بأيدى التجار من الديباج والخز الى ما دون ذلك من الكسى ليهديها الى أهل مرسية على قدر منازلهم بعد فتحها ليستصفى

مودتهم ، ويأمن جانبهم ، وأجابه المعتمد الى طلبه ، والظاهر أنه لحظ فى سلوك ابن عمار ما أثار فى نفسه بعض الشكوك ، فلما ودعه ابن عمار وهو راحل الى مرسية على رأس الحملة لم يستطع المعتمد اخفاء الشكوك التى ساورته وقال لابن عمار : « سر الى خيرة الله ولا تظن ألى مخدوع » . فأجابه ابن عمار الذى أصبح يعتقد اعتقادا راسخا أن المعتمد لا يستطيع الاستغناء عنه : « لست بمخدوع ولكنك مضطر » . وتظاهر المعتمد بالاغضاء وحلم عنه ، وكان المعتمد يعرف غرور ابن عمار ، ويعلم أنه قد يخطىء ولكنه لم يكن يعتقد أنه قد يصل به التمادى فى الخطأ الى حد التنكر له والخروج عليه ، وخلع طاعته .

وخرج من اشبيلية رافعا ألويته قارعا طبوله ولما وصلت الحملة الى أرباض قرطبة توقف ابن عمار ريثما تنضم الى جيشه الخيالة من جند المدينة ، وأمضى ليلته فى قرطبة بقصر واليها الفتح بن المعتمد ، واحتفى به الفتح ، وأمتعه بأحاديثه العذبة حتى مضى الليل دون أن يشعر به ولاحت أنوار الفجر ، وتابعت الحملة تقدمها الى مرسية ، وكان كلما مر ببلد من أعمال المعتمد استخرج من ذخائرها ما استطاع وحمله معه .

واجتازت الحملة فى طريقها على حصن بلج ــ وهو حصن كان يحمل اسم بلج بن بشر القشيرى زعيم العرب الشاميين الذين دخلوا الأندلس فى سنة ١٢٣ هجرية ــ وكان حاكم هذا الحصن عربيا من بنى قشير أسرة بلج ، وهو عبد الله بن رشيق ،

فخرج على أميال من الحصن للقـــاء ابن عمار ، ورغب اليه فى النزول بالحصن عنده ، وأجابه ابن عمار الى ذلك ، واحتفل فى انزاله احتفالا استظرفه ابن عمار ، وآل به الأمر الى أن قدّمه على جيشـــه .

وقصد ابن عمار مرسية ومعه صديقه الجديد الذى أولاه ثقة كبيرة لم يكن الرجل أهلا لها ، ولما اقترب الجيش من مدينة مولا ضرب عليها الحصار ولم يطل حصارها لأنها ما عتمت آن سلمت ، وكانت مدينة مرسـية تعتمد فى تموينهـا على المنطقة الواقعة حول مولا ، ولذلك كان تسليم مولا ضربة قاضية على مرسية ، ووثق ابن عمار بقرب سقوط مرسية ، وترك مولا فى رعاية ابن رشيق وكتيبة من الخيالة الاشـبيلية وعاد مع سائر الجيش الى اشبيلية

وعلم بعد وصوله اشبيلية من كتاب أرسله اليه أحد رجاله أن المجاعة فتكت بسكان المدينة ، وأن أعيانها الذين سبق لهم أن وعدوه بالمســاعدة ووعدهم بالمال والنفوذ قد وافقوا على مساعدة المحاصرين لها ، وأبلغ ابن عمــار المعتمد أن المدينــة موشكة على السقوط ، وقد أصاب فى ذلك ، فان أبواب مرسية فتحت لابن رشيق بطريق الخيانة ، وألقى بابن طاهر فى السجن وأخذت البيعة للمعتمد .

ولما بلغت ابن عمــار هذه الأنباء امتلأت نفســه سرورا وزهوا ، وطلب من المعتمد أن يأذن له باللحاق بمرسية فأذن له المعتمد بغير تردد ، وأحضر ابن عمار عددا من الخيل والبغال من

الحظائر الملوكية واستعار بعضها من أصدقائه حتى بلغ عددها مائتين وحملها بصنوف الديباج والحلل النفيسة ليقدمها هدايا لأعيان المدينة ، وسار ومعه الأعلام الخفاقة والطبول الضاربة ، ودخل مرسية فى موكب حافل دخول القائد الظافر ، وفى اليوم التالى لدخوله المدينة جلس مجلس التهنئة للخواص والعوام ، وأنشده الشعراء القصائد التى نظموها فى مدحه ، وقد تزيى بزى المعتمد فى حمل الطويلة على رأسه كما كان يفعل المعتمد فى مثل هذه المناسبة ، وحاكاه فيما كان يكتبه فى آخر الالتماسات التى تقدم له وهو : « ان شاء الله تعالى » دون أن يذكر اسم المعتمد ، وتختم فى كلتا يديه .

ومثل هذا التصرف من ابن عمار كان يدل على بوادر الخيانة والخروج على الطاعة ، ولم يغب ذلك عن المعتمد ، ولكن الشعور الذى استولى على المعتمد لم يكن شعور الغضب والرغبة فى الانتقام وانزال العقوبة ، وانما كان شعور الحزن الشديد وخيبة الأمل ، فها هو صديقه الذى أشبعه من جوع ، وأمنه من خوف وأخلص له المودة وأشركه فى أمره ورفعه الى أسمى مناصب الدولة يتغير له ويخون عهده ، فما أعجب الأيام وما أغرب تقلبات القلب البشرى ! ان المعتمد لم يترك وسيلة من وسائل التكريم والتقريب الا حباه بها فكيف يثق بعد ذلك بانسان ؟ لقد كان ابن‌عمار آخر من كان يتوقع المعتمد منهم الخيانة ونكث العهد ، فهل كذبته عواطفه وخدعته نفسه ؟ وهل كان وراء الولاء الظاهر نية الغدر المبيتة وخلف الكلمات المعسولة السم

الناقع ؟ وهل تتحطم على صخرة المطامع تلك الصداقة الطويلة الأمد التى بدأت والشباب غض والأيام مؤاتية ؟ لقد كانت الغيوم تتجمع فى سماء الأندلس ، والمشكلات تتكاثر ، والأزمات تطل بسحنتها النكراء ، وهو فى حاجة الى الصديق الناصح والمستشار الذكى المجرب ، وها هو يفجع فى من كان يظنه أوفى أصدقائه ، وأخلص مستشاريه ، وأعقل وزرائه ، لقد هزت نفسه هزاً عنيفا تلك اليقظة المؤلمة من الحلم الجميل الذى كان مستغرقا فيه ، الحلم بالصداقة والوفاء والاخلاص . وتمكنت منه بعد هذه الصدمة روح السخرية التى تجىء عادة فى أعقاب نوبات الحزن وعثرات الحظ ، وظهرت آثارها فى بعض أشعاره التى نظمها بعد هذه الفترة وعبر فيها عن خوالجه كمألوف عادته .

وحقيقة أن ابن عمار كان بعيد الطموح ، مترامى الآمال ، مفرط الغرور ، محبا فى الاستعلاء فى عصر كثر فيه الانتهازيون والوصوليون ، ولكن هل كان حقيقة يضمر الخيانة وينوى الغدر بمولاه ؟ كان غاية ما فى الأمر حتى ذلك الوقت شبهات وظنون تبعث على الشك فى ولائه ، وكان يزيد هذه الظنون والشبهات قوة وتأثيرا وجود جماعة من المتنافسين الكارهين لابن عمار الراغبين فى سقوطه حول المعتمد فى اشبيلية وعلى رأسهم أبو بكر بن زيدون ابن الشاعر ذى الوزارتين : أبى الوليد بن زيدون ، وربما لو كان أمكن اجتماع الصديقين جنبا الى جنب وتبادل الحديث والذكريات القديمة كانت تنقشع السحب التى

تجمعت فى جو صداقتهما ، ويزول سوء الظن وتعود المياه الى مجاريها ، ولكن المسافة الشاسعة التى كانت تفصل بينهما كانت تزيد الهاوية اتساعا والخلاف استفحالا حتى انتهى الى أقصى مداه .

وقد أرسل المعتمد هذين البيتين لابن عمار معبرا بهما عن أساه وما خالجه من الظنون :

تغير لى فيمن تغير حارث
وكل خليل غيرته الحوادث
أحارث ان شوركت فيك فطالما
نعمنا وما بينى وبينك ثالث

فأجابه ابن عمار بقصيدة يقول فيها :

لك المثل الأعلى وما أنا حارث
ولا أنا ممن غيرته الحوادث
ولا شاركته الشمس فىّ وانه
لينأى بحظى منك ثان وثالث
فديتك ما للبشر لم يسر برقه
ولا نفحت تلك السجايا الدمائث
أظن الذى بينى وبينك أذهبت
حلاوته عنى الرجال الخبائث
تنكرت لا انى لفضلك ناكر
لدى ولا انى لعهدك ناكث

ولكن ظنون ساعدتها سخائم
كما ساعدت صوت المثانى المثالث
أبعد انقضا خمس وعشرين حجة
تجافت لنا عنها الخطوب الكوارث
حللت يدا بى هكذا وتركتنى
نهابا وللأيام أيد عوابث
وهل أنا الا عبد طاعتك التى
اذا مت عنها قام بعدى وارث
أعد نظرا لا توهن الرأى انه
قديما كبا هاف وأدرك رائث
ستذكرنى ان بان حبلى وأصبحت
تبين بكفيك الحبال الرثائث
وتطلبنى ان غاب للرأى حاضر
وقد غاب عنى للخواطر باعث
أعوذ بعهد نطته بك أن ترى
تحل عراه العاقدات النواكث

وقد كان ابن عمار بطبيعته أقل حماسة نفس وحرارة عاطفة من المعتمد ، ولذلك لم يستطع أن يبادل المعتمد صداقة حارة كصداقته وودا صافيا كوده ، ولكنه مع ذلك كان يشعر بما للمعتمد عليه من فضل ، وينطوى له على ما تسمح به طبيعته من الحب والعطف ، وكان يعرف ما فطر عليه المعتمد من سماحة النفس وسجاحة الخلق ، ولكنه كان يخشى تأثير « الرجال

الخبائث » الذين أشار اليهم فى قصيدته ، وحدث بعد ذلك ما زاد الخرق اتساعا على الراقع ، وأفسد ما بين الصديقين افسادا لم يعد يرجى صلاحه .

وكان فى نية ابن عمار حينما حل بمرسية أن يحسن معاملة ابن طاهر ويرعى له مكانته ، ولكن ابن طاهر كان غاضبا لتقلص نفوذه ، وضياع سلطانه ، وخيانة أهل بلده له ، فلما أرسل اليه ابن عمار رسولا يعرض عليه بعض الحلل النفيسة ليختار منها ما يروقه اصطناعا له وتقربا منه رد ابن طاهر عليه ردا عنيفا قائلا للرسول : « قل لسيدك اننى لا أقبل منه سوى جبة وقلنسوة ». وتلقى ابن عمار هذا الرد الجاف وهو بين رجال حاشيته فاشتعل غضبه ، وقال لما هدأت حدة غضبه : « انى أدرك مغزى كلامه ، فقد كنت أرتدى الجبة الصوف الخشنة والقلنسوة لما وقفت بين يديه أنشده شعرا وأنا فقير خامل الذكر » . ولم يستطع ابن عمار أن يغتفر لابن طاهر هذه الكلمات التى جرحت كبرياءه وأفهمته أنه لا فائدة من استمالة ابن طاهر واسترضائه ، فما لبث أن أمر باعتقاله فى قلعة منت قوط ، وكان بين ابن طاهر وابن عبدالعزيز صاحب بلنسية صداقة وود ، فلما اعتقله ابن عمار غضب له ابن عبد العزيز ، وقام فى أمره وقعد ، وخاطب المعتمد فى أمره شافعا له ومناضلا عنه ، واستجاب المعتمد لرجاء ابن عبدالعزيز وأرسل الى وزيره الأكبر باطلاق سراح ابن طاهر ، فلم يحفل ابن عمار بأمر المعتمد ، وأبى أن يفك اعتقاله وركب رأسه ولج فى عناده ، ولم ييأس ابن عبد العزيز وأعمل الحيلة فى اطلاق سراح ابن

طاهر وتمكينه من الهرب من معتقله ، ونجح فى ذلك [1] ، ولما حل ابن طاهر بجزيرة شقر وهى أول عمل ابن عبد العزيز كتب ابن طاهر اليه رسالة يقول فيها : « كتابى اليك وقد طفل بنا العشى ومال بنا اليك المطى ، ولها من ذكراك حاد ومن لقياك هاد ، وسنوافيك المساء فنغفر للزمان ما قد أساء ، ونرد ساحة الأمن ونشكر عظيم ذلك المن ، فهذه النفس أنت مقيلها وفى برد ظلك يكون مقيلها ، فلله مجدك وما تأتيه لا زلت للوفاء تحييه ، ودانت لك الدنيا ودانت لك العليا ان شاء الله تعالى » .

ولما وافت رقعته أبا بكر بن عبد العزيز ركب اليه وتلقاه فى أعيانه وجلة رجاله وأنزله فى قصر مجاور لقصره ، وجامله مجاملة لم تعهد فى عصره ، وأشركه معه فى نهيه وأمره ، ولم ينفرد عنه فى شأن من الشئون ، وأقبل عليه الشعراء يسلونه عن نكبته ويتمنون له العودة الى ملكه وسابق مكانته من ذلك قول أبى جعفر البنى :

يقولون ليث الغاب فارق غيله
فقلت لهم أنتم له الآن أخوف
ولن ترهبوا الصمصام الا اذا غدا
لكم خارجا من غمده وهو مرهف

ولما كان ابن عبد العزيز هو الذى سهل لابن طاهر طريق نجاته وسعى فى خلاصه وأكرم مثواه فى بلنسية لذلك اعتقدها

(١) قلائد العقبان صفحة ٦٢ .

ابن عمار غدرة جرت على يديه ، واشتد حقده عليه ، وأخذ يعمل الحيلة فى الاضرار به ، وتقبيح وصفه والتشهير به . واغراء أهل بلنسية به ، وتحريضهم على القيام عليه ، ونظم فى ذلك قصيدته التى يقول فيها :

بشر بلنسية وكانت جنة   أن قد تدلت فى سواء النار
غدرت وفيا بالعهود وقلما   عثر الوفى سعى الى الغدار
يا أهلها من غائب أو حاضر   وقطينها من راسخ أوطارى
جاروا بنى عبد العزيز فانهم   جروا اليكم أسوأ الأقدار
ثوروا بهم متأولين وقلدوا   ملكا يقوم على العدو بثار
هذا محمد أو فهذا أحمد   وكلاهما أهل لتلك الدار
جاء الوزير بها يكشف ذيلها   عن سوأة سوأى وعار عار
نكث اليمين وحاد عن سنن العلا   وقضى على الاقبال بالادبار
آوى لينصر من نأى المثوى به   ودهاه خذلان من الأنصار
ما كنتم الا كأمة صالح   فرميتم من طاهر بقدار
هلا وخصكم بأشأم طائر   ورمى دياركم بألأم جار
بر اليمين ولم يعرض نفسه   ونفوسكم لمصارع الفجار

ثم يتحدث عن نفسه فيقول :

كيف التفلت بالخديعة من يدى
رجل الحقيقة من بنى عمار
رجل تطعمه الزمان فجاءه
لرفين فى الاحلاء والامرار

سلس القياد الى الجميل فان يُهَج
قدع العنـــان لهبة البتـــار
طبن بأغراض الامـور مجـرب
فطـــن لأسرار المـــكايد دار
كشــــاف مظلمة وســـائس أمة
نفـــاع أهـل زمانه ضـــرار
شراب أكواس المـــدام وتارة
شراب أكــواس الدم المهـــدار
جـــرار أذيال القـــنا ظنتُّوا به
قد زاركم في الجحفـل الجرار
وكأنكم بنجـــومه ورجومه
تهوى اليكم من سـماء غبـــار
وأنا النصـــيح فان قبلتم فاتركوا
آثارها خـــبرا من الأخبـــار
قوموا الى الدار الخبيثة فانهبـوا
تلك الذخائر من خبـــايا الدار
وتعوضـــوا من صـــفرة حبشية
بأغـــر وضاح الجبين نضـــار

وسمع المعتمد بهذه القصيدة وكان قد اشتد غضبه على ابن عمار لعصيانه أمره واهماله طلبه ، فنظم الأبيات الآتية معرضا بابن عمار ، وقد تجلت فيهـا براعة المعتمد في الهجاء الســاخر

والتعريض الفكه وبدأها بالاشارة الى بنى عمار تعليقا على قوله ابن عمار عن نفسه « رجل الحقيقة من بنى عمار » :

الأكثرين مسوّداً ومملكاً
ومتوجا فى سالف الأعصار
المكثرين من الكباء لنارهم
لا يوقدون بغيره للسارى
والمؤثرين على العيال بزادهم
والضاربين لهامة الجبار
ان كوثروا كانوا الحصى أو فاخروا
فمن الأكاسر من بنى الأحرار
يضحى مؤملهم يؤمل سيبه
ويبيت جارهم عزيز الجار
تبكى عليهم شَنْتَبُوس بعبرة
كأتيِّها المتدفع التيار
يبكى لها القصر المنيف تلألأت
شُرُفاته فى خضرة الأشجار
ما ضاحكته الشمس الا خلته
نضحت جوانبه بماء نضار
تبكى القيان تجاوبت أوتارها
فى ساحتيه تجاوب الأطيار
ياشمس ذاك القصر كيف تخلصت
فيه اليك طوارق الأقدار

لما تَنَلْك شَعَوبحتىجاوزت
غُلْبَ الرجال وسامى الأسوار
كم كان من أسد هنالك خادر
لك حارس بأسنة وشفار
من قومك الزهر الوجوه اذا الوغى
كست الوجوه الغر ثوب القار
من كل أشوس خائض فى لجة
نحو الكماة بشعلة من نار
لما نماهم للعلى عمارهم
تركوا العداة قصيرة الأعمار

وبقدر ما أدخلت هذه القصيدة الساخرة من السرور على قلب ابن عبد العزيز صاحب بلنسية أثارت ابن عمار وأغضبته ، ومست كبرياءه وأنفته ، وحاول أن يقاوم غضبه ويكبح جماح نفسه ولكن نوازع الشر تغلبت عليه وتصرفت به ، وقد اختار المعتمد أن ينازله فى الميدان الذى يعد هو نفسه فى طليعة أبطاله وحاملى لوائه فليلتقط اذن القفاز ويقبل هذا التحدى ، ونظم قصيدة فى الرد على المعتمد بالغة العنف موجعة الهجاء سب فيها المعتمد وزوجته الرميكية وأولاده سباً قبيحا وأسف فيها اسفافا كان يجمل به أن يترفع عنه ، قال فى مطلع هذه القصيدة النكدة :

ألا حى بالغرب حيا حلالا
أناخوا جمالا وحازوا جمالا

وعـــــرج بيومين أم التـــــرى
ونم فعسى أن تراها خيـــــالا

ويومين هى القرية التى نشأت فيها أولية بنى عباد .

لتسأل عن ساكنيها الرماد ولم تر للنار فيها اشتعالا

وعرض باعتماد الرميكية زوجة المعتمد وأولاده قائلا :

تخيرتها من بنـــات الهجان رميكية ما تســـاوى عقالا
فجاءت بكل قصير العذار لئيم النجارين عمـــاً وخالا
قصـــار القـــدود ولكنهم أقاموا عليهـــا قرونا طوالا

ومضى بعد هذا التعريض القبيح يطعن المعتمد فى رجولته وينكر عليه الكرم والشجاعة وينـــذره بأنه سيستمر فى هتـــك عرضه وتشويه سمعته :

فيا عامــــر الخـــــيل يا زيدها
منعت القـــــرى وأبحت العيالا

أراك تورى بحب النســـــاء
وقدما عهدتك تهـــوى الرجالا

أتذكر أيامنـــــا بالصـــــبا
وأنت اذا لحت كنت الهـــــلالا

أعانق منك القضـــيب الرطيب
وأرشــــــف من فيك ماءً زلالا

. . . .

. . . .

سأهتك عرضـــــك شيئا فشيئاً
وأكشف ســــــترك حالا فحالا

وقد نظم ابن عمـــار هـــذه القصيدة فى ثورة من ثورات الغضب أنسته جميع الاعتبارات ، وبقية من الحياء جعلته لا يطلع عليها سوى خاصة أصدقائه المقربين وكان من بين هؤلاء رجل يهودى من المياسير وافد من الشرق قد اختصه ابن عمار بموفور ثقته ، ولم يكن يدرى أن هذا الرجل كان عينا لابن عبد العزيز عليه ، واحتال اليهودى حيلته حتى حصل على القصيدة مكتوبة بخط ابن عمار وأرسلها الى ابن عبد العزيز أمير بلنســية ، فسارع ابن عبد العزيز بارسالها فى طى كتاب منه الى المعتمد مع الحمام الزاجل .

وقد حرق ابن عمار بهذه القصيدة الوقحة سفنه ، وأصبح الصلح بينه وبين المعتمد غير ميســور ، فلا هو ولا الرميكية زوجته ولا أولاده يمكن أن يتســامحوا فى قبول مثل هـــذا الهجاء القاسى ، وقد دل ابن عمار بهذه القصــيدة على خسة وسوء أدب متناهيين ، وتطاول تطاولا غير مستساغ على ولى نعمته الذى أخذ بضبعه من حضيض المهانة ورفعه الى الذروة ، وقد أكثر من الاعتذار عن هذه السقطة بعد وقوعه فى يدالمعتمد والقائه فى السجن ، ولكن ما أصدق قول الشاعر :

جراحات السنان لها التئام   ولا يلتام ما جرح اللسان

وحقيقة أن المعتمد كان هو الذى بدأ بفتح هـــذا الباب

ولكنه مع ذلك لم يسف اسفاف ابن عمار ، وكانت سخريته بابن عمار فى قصيدته قريبة مما يسمونه هجاء الأشراف .

ولم يكن هناك ما يحفز المعتمد الى الاسراع فى معاقبة ابن عمار ، وقد تولى غيره القيام بهذا الواجب ، ولم يلق ابن عمار باله وهو سادر فى غلوائه غارق فى ملذاته الى أن ابن رشيق كان يخونه ويخادعه مستعينا فى ذلك بابن عبد العزيز صاحب بلنسية ، ولما فطن أخيرا لذلك كانت الفرصة قد أفلتت منه وقضى الأمر ، فقد حرّض ابن رشيق الجند على طلب أعطياتهم المتأخرة لهم ، ولما عجز ابن عمار عن أداء ذلك والوفاء به ثار به الجند وهددوه بأن يسلموه للمعتمد اذا لم يرضهم ، وارتعدت فرائص ابن عمار من هذا التهديد ، وخشى عاقبته ، فلم يجد أسلم له وأنجى من الفرار ، ولاذ فى بادىء الأمر بحمى ألفونسو السادس والتمس منه مساعدته فى استرداد مرسية ، ولكن ابن رشيق استمال ألفونسو بالهدايا الفاخرة فقال لابن عمار : « ان ما ذكرته لى لم يخرج عن كونه قصة لصوص ، فاللص الأول قد قام بالسرقة من أحد اللصوص وجاء لص آخر فسرق منه » . ولما لم يجد فائدة من ملك ليون حوّل ركابه الى سرقسطة ولحق بالمقتدر بن هود ، ولكن الحياة فى سرقسطة كانت مملة جافة ليس فيها شىء من جمال اشبيلية ولمعانها فلم يطق الصبر عليها وقصد لاردة ، وكان حاكمها المظفر أخو المقتدر ، فتلقاه بالترحيب ولكنه وجد الحياة فى لاردة أبعث على الضيق والملل من الحياة فى سرقسطة ، فعاد أدراجه الى سرقسطة ، وكان

المقتدر قد مات وخلفه ابنه المؤتمن ، وكاد الملل والفراغ يقضيان عليه فقد ألف الرجل العمل والحركة وتدبير الأمور ومعالجة المشكلات ، فلما انتزى أحد عمال ابن هود فى معقل منيع من أعماله رحب ابن عمار بهذه الفرصة التى سنحت له ، وكانت بين هذا العامل وبين ابن عمار معرفة ، فضمن لابن هود استنزاله من المعقل ، وسار اليه مع ثلة من الجند ، فلما نزل بساحته أراد ذلك العامل اكرامه ، ولم ير بأسا فى صعوده الى قصبة الحصن فى رجلين من حملته ، فأوعز ابن عمار الى الصاعدين معه أن يقتلا الرجل اذا رأياه ماشى ابن عمار ويده فى يده وشدد عليهما فى ذلك قائلا : « اقتلاه اذا رأيتمانى أماشيه ويده فى يدى ولو قتلتمانى معه » وفعل الرجلان ما أمرهما به ، وكان هذان الرجلان خادميه : جابر وهادى ، وعفا عن حامية المعقل بعد قتل حاكمه الثائر ، وسر بذلك ابن هود ، ولم يستطع ابن عمار الاخلاد الى السكون والركود وهو الذى تعود الحياة والحركة ومباشرة الشئون الهامة ، فزين للمؤتمن الاستيلاء على حصن شقورة ، وهو حصن كالمدينة عامر بأهله شمالى مرسية على رأس جبل عظيم منيع الجهة ، وكان هذا الحصن قد استطاع عناعته أن يحتفظ باستقلاله حينما استولى المقتدر بن هود على أملاك أمير دانية ، وظل فى حوزة ابنه سراج الدولة ، ولما مات سراج الدولة كان بنو سهيل أوصياء على أولاده ، فأرادوا أن يبيعوا الحصن لأحد الأمراء المجاورين له ، ووعد ابن عمار المؤتمن أن يحصل له على الحصن كما حصل له على القلعة التى

كان بها العامل المنتزى ، فخرج على رأس عدد قليل من الجيوش ، فلما وصل الى حضيض شقورة طلب اليهم أن يجتمع بهم ، ولكنه بدلا من أن يوقعهم فى الشرك الذى أراد أن ينصبه لهم وقع هو فى الشرك ، فقد وافقوا على صعوده اليهم مع خادميه : جابر وهادى ، فلما وصل الى مصعد درج لا يتخطاه الصاعد حتى يجذب بضبعه تقدم هو فرفع بالأيدى ، وأشير على خادميه بالانصراف ان كانا يحرصان على حياتهما فوليا منحدرين ، واحتمل هو الى الذروة فشد وثاقه ، وكان قد أحقد بنى سهيل أيام رياسته بمرسية ، ولما كانت الجيوش التى جاءت معه تعلم أن محاولة انقاذه غير مجدية لذلك عادت أدراجها الى سرقسطة ، وبعد قبض بنى سهيل عليه زجوا به فى السجن ، وعرضوا بيعه لمن يدفع أكبر ثمن من أمراء الأندلس وملوكها ، وفى ذلك يقول ابن عمار :

أصبحت فى السوق ينادى على
رأسى بأنواع من المال
والله ما جار على ماله
من ضمنى بالثمن الغالى

وتثاقل الأمراء والرؤساء جميعا عن التقدم لشرائه ، وخف المعتمد الى ذلك ، واشترى قلعة شقورة وأرسل ابنه الراضى ليتسلم ابن عمار ، وأمر الذين أرسلهم مع الراضى أن يزيدوا فى الاحتياط على ابن عمار وتقييده ، فخرجوا به حتى وافوا قرطبة ، ووافق ذلك كون المعتمد بها ، فدخلها ابن عمار أشنع

دخول وأسوأه على بغل بين عدلى تبن ، وقيوده ظاهرة للناس ، وقد كان المعتمد أمر باخراج الناس خاصة وعامة حتى ينظروا اليه على تلك الحال ، وقد كان قبل ذلك اذا دخل قرطبة اهتزت له وخرج وجوه أهلها وأعيانها ورؤساؤهم ، والسعيد منهم من يصل الى تقبيل يده أو يرد ابن عمار عليه السلام ، وغيرهم لا يصل الا الى تقبيل ركابه أو طرف ثوبه ، ومنهم من ينظر اليه من بعد لا يستطيع الوصول اليه .

وهكذا دخل ابن عمار قرطبة مقيدا ذليلا مهينا بعد الرياسة الفارعة ، والنفوذ الشامخ ، وأدخل على المعتمد وهو على تلك الحالة المزرية ، فجعل المعتمد يعدد عليه أياديه ونعمه وابن عمار فى ذلك كله مطرق لا ينبس ، ولما أتم المعتمد كلامه قال ابن عمار : « ما أنكر شيئاً مما ذكره مولانا أبقاه الله ، ولو أنكرته لشهدت علىّ به الجمادات فضلا عمن ينطق ، ولكنى عثرت فأقل ، وزللت فاصفح » .

فقال له المعتمد : « هيهات انها عثرة لا تقال » .

وأمر به فأحدر فى النهر الى اشبيلية ، فدخل به اشبيلية على الحال التى دخل عليها قرطبة ، وجعل فى غرفة على باب قصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك ، وطال سجنه ، فبعث ذلك الأمل فى نفسه ، وكتب اليه من السجن بقصائد يعتذر بها ويلتمس الاقالة من ذنبه ، من أشهرها القصيدة التى يقول فيها :

سجاياك ان عافيت أندى وأسجح
وعذرك ان عاقبت أجلى وأوضح

وان كان بــين الخطتـــين مــزية
فأنت الى الأدنى من الله تجنـــح
حنانيك فى أخــذى برأيك لا تطع
عداى ولو أثنوا على وأفصــحوا
فان رجائى أن عنـــدك غــير ما
يخوض عــدوى اليوم فيه ويمرح
ولم لا وقد أسلفت ودا وخــدمة
يكران فى ليـــل الخطايا فيصبح
وهبنى وقد أعقبت أعمــال مفسد
أما تفسـد الأعمال ثـمّت تصــلح
أقلنى بما بينى وبينــك من رضىً
له نحـــو روح الله باب مفتــح
وعف على آثار جـــرم جنيــته
بهبة رحمى منك تمحـــو وتمصح
ولا تلتفت قول الوشــاة ورأيهم
فكل اناء بالذى فيـــه يرشـــح
وماذا عسى الواشون أن يتزيدوا
سوى أن ذنبى واضــح متصحح
نعم لى ذنب غـــير أن لحلمــــه
صـــفاة يزل الذنب عنها فيسفح
عليه ســـلام كيف دار به الهوى
الىّ فيـــــدنو أو علىّ فينزح

ويهنيــــه أن مت السـلو فاننى
أمــوت ولى شـــوق أليه مبرح
وبين ضـــلوعى من هواه تميمة
ســتنفع لو أن الحمـــام يجلح

ولما بلغت المعتمد هذه القصيدة كان بحضرته أحد الأدباء القادمين من بغداد ، فجعل يزرى بالبيت الذى ختم به ابن عمار قصيدته ويقول : « ما أراد بهذا المعنى ؟ » فكان رد المعتمد عليه أن قال : « أما لئن سلبه الله المـــروءة والوفاء لما أعدمه الفطنة والذكاء ، انما نظر الى بيت الهزلى من طرف خفى وهو :

واذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تميمة لا تنفع

وتركت هذه القصيدة وأمثالها من القصائد التى كان يعتذر بها أثرها فى نفس المعتمد فوجّه اليه ليلة وهو فى بعض مجالس أنسه ، فأتى به يرسف فى قيوده ، فجعل المعتمد يعدد مننه عليه وأياديه قبله ، فلم يكن له عذر ولا جواب غير أن أخذ فى البكاء وجعل يترقق للمعتمد ويمسح عطفيه ويستجلب من الألفاظ كل ما يستلين به قلبه وتطيب به نفسه ، وعطفت المعتمد عليه سابقته وقديم حـرمته ، فقال له قـولا يتضمن العفـو عنه تعريضا لا صريحاً ، وأمر برده الى محبسه ، ولم يحسن ابن عمار وهو يعانى ضيق السجن وثقل القيد فهم الحالات النفسية التى كانت تتوالى على نفس المعتمد ، وقد تأثر المعتمد بتوسلاته ورثى لحاله وهو يرسف فى قيوده ، ولكن بين التأثر بشعره والرثاء لحاله وبين العفو عنه بون شاسع ، وكان المعتمد قد منع اعطاءه

ورقا للكتابة لأنه تضايق من كثرة الشفاعات التى كانت ترد اليه من مختلف الجهات للعفو عن ابن عمار ، وكان قد استدعى ورقتين للكتابة وألح فى طلبهما وأجابه المعتمد الى طلبه وأرسل اليه الورقتين ، فكتب فى احداهما القصيدة السابق ذكرها واحتفظ بالورقة الأخرى ، فلما عاد الى سجنه من حضرة المعتمد جرى فى ظنه أن العفو عنه قد أصبح أمرا متوقعا دانى المنال ، ولم يستطع كتمان فرحه ، فكتب من فوره بما دار بينه وبين المعتمد الى ابنه الرشيد ، فوافاه كتاب ابن عمار وبحضرته قوم كانت بينهم وبين ابن عمار احن قديمة ، فلما قرأ الرشيد الكتاب قال لهم : « ما أرى ابن عمار الا سيتخلص » فقالوا له : « ومن أين علم مولانا ذلك ؟ » فقال : « هذا كتاب ابن عمار يخبرنى فيه أن مولانا المعتمد قد وعده بالخلاص » .

فأظهر القوم الفرح وهم يبطنون غيره ، ولما قاموا من مجلس الرشيد نشروا حديث ابن عمار أقبح نشر ، وزادوا فيه زيادات قبيحة يقول فيها المراكشى لشدة قبحها : « صنت كتابى عن ذكرها » . وبلغت هذه الأخبار مبالغا فيها أبا بكر بن زيدون ، وكان العفو عن ابن عمار واعادته الى مكانته معناهما فى رأيه عزله من منصبه وابعاده عن القصر ، فبات بليلة الملسوع ، وفى صباح اليوم التالى لزم بيته ولم يذهب الى القصر ، فاستدعاه المعتمد وتلقاه بالبشر والترحيب كمألوف عادته ، ولما سأله عن سبب تأخره عن المجىء قال انه خشى أن يكون الملك قد رأى الاستغناء عن خدماته ، وروى للمعتمد حديث ابن عمار الذى شاع وملأ الأسماع ، وأخبره أن صاحب الشرطة بالمدينة قد

أخذ يعد الحجرات الفاخرة لاستقبال ابن عمار فى منزله الى أن ترد اليه قصوره ، وبطبيعة الحال لم يحذف شيئاً من الأقاويل السيئة التى كانت تذاع .

استولى على المعتمد حينذاك غضب شديد أخرجه عن طوره ، وأشد ما ساءه ادعاء ابن عمار أنه قد صدر منه وعد بالعفو عنه واطلاق سراحه ، فأرسل الى ابن عمار وقال له : « هل أخبرت أحدا بما كان بينى وبينك فى الأمسية الأخيرة ؟ » . فأنكر ابن عمار كل الانكار ، فقال المعتمد للرسول : « قل له الورقتان اللتان استدعيتهما ، كتبت فى احداهما القصيدة فما فعلت بالأخرى ؟ » فادعى أنه بيض فيها القصيدة ، فقال المعتمد للرسول : « قل له هلم المسودة » فلم يستطع ابن عمار التمادى فى الانكار وقال انه كتب فيها رسالة الى الأمير الرشيد يخبره فيها بوعد الملك له بالعفو عنه ، فازداد غضب المعتمد اشتعالا وخرج وبيده الطبرزين — وهى فأس كالمطرقة أهداها اليه ألفونسو السادس — فلما رآه ابن عمار وهو يكاد الشرر يتطاير من عينيه علم أن ساعته الأخيرة قد دنت ، فجعل يزحف وقيوده تثقله حتى أكب على قدمى المعتمد يقبلهما والمعتمد لا يثنيه شيء ولا تأخذه شفقة ولم يزل يضربه بالطبرزين حتى برد ، ورجع المعتمد فأمر بغسله وتكفينه وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك .

وهكذا كانت خاتمة ابن عمار ، وكان لهذه الفاجعة الأليمة والمأساة الدامية دوى شديد فى مختلف أنحاء الأندلس ظل حينا من الزمن حتى غلبت عليه حوادث أشد خطورة وأسوأ عاقبة وأجل شأنا .

حركة الاستردادالأسبانية

من الأقوال المأثورة « سعيدة البلاد التى ليس لها تاريخ » واذا صح هذا القول فان بلاد شبه الجزيرة التى عرفها اليونان باسم « أيبريا » وعرفها الرومان باسم « اسبانيا » وعرفها العرب باسم « الأندلس » لا تعد من البلاد السعيدة ، فقد تعاقبت عليها الشعوب والأمم ، ودارت فى أرجائها المعارك الطاحنة ، واستعرت الثورات الدامية ، واشترك فى تكوين تاريخها الايبريون والسلتيون والفينيقيون واليونان والقرطاچنيون والرومان والسويڤى واللان والوندال والقوط والعرب والبربر .

وللكاتب الفرنسي الشهير تيوفيل جوتييه كلمة لم يغتفرها له الاسبانيون وهى قوله : « ان حدود أوربا تنتهى عند جبال البرانس » . والواقع أن تاريخ اسبانيا يختلف فى كثير من اتجاهاته عن تاريخ غرب أوربا ، وله طابعه الخاص ، وسماته المميزة ، وقد كان لانجذابها الى القارة الافريقية تأثير هام فى تكوين تاريخها .

وأقدم العناصر المعروفة فى تاريخ الشعب الاسبانى هم الباسك أو البشكنس كما كان يسميهم العرب ، وكانوا يقيمون

فى منطقة جبال البرانس ، ولا تزال لغتهم لغزا من الألغاز فى رأى علماء اللغات ، والايبريون ويرجح المؤرخون أنهم نزحوا الى شبه الجزيرة من افريقية وأنهم من الجنس الحامى ، وقد انتشروا فى شرق شبه الجزيرة وجنوبها الشرقى وفى الهضبة الممتدة من الوسط والى ما يسمى الآن بلاد البرتغال .

ووفدت على اسبانيا شعوب أخرى ، بعضها جاءت للتجارة وطلب الربح على الشواطىء الشرقية والجنوبية ، وبعضها جاء للغزو والاستعمار ، وقد أثرت الشعوب التى جاءت للتجارة فى حضارتها كما أثرت الشعوب التى جاءت للفتح والغزو والاستعمار فى تكوينها الشعبى .

وفى طليعة الأمم التى جاءت اسبانيا للتجارة الفينيقيون ، وكان هدفهم البحث عن المعادن وأنشأوا أكبر مستعمرة لهم فى شبه الجزيرة ، وهى أغادير أو قادس الحديثة وهى قريبة من مصب نهر الوادى الكبير .

ولما استولى بختنصر ملك بابل على مدينة صور وخربها سنة ٥٧٣ قبل الميلاد وضعف سلطان الفينيقيين فى البحر الأبيض المتوسط انتقل الاهتمام بالتجارة فيه الى قرطاجنة ، وغشى اليونانيون كذلك الشاطىء الشرقى والجنوبى فى طلب المعادن ، وابتداءً من القرن التاسع قبل الميلاد بدأت موجات من القبائل السلتية تتدفق على اسبانيا من مداخل جبال البرانس وانتشروا فى جليقية والبرتغال .

وفى آخر الحرب البونية الأولى (٢٦٤/٢٤١) قبل الميلاد

لما طرد القرطاچنيون من جزيرة صقلية وأرغموا على دفع غرامة حربية كبيرة وضع زعيمهم هاملكار خطة غزو اسبانيا ليتمكن من اصـــلاح أحوال قرطاچنة المـــادية ، وأثار ذلك ســـوء ظن الرومان ، وتوغل هانيبال ســـنة ٢٢١ فى اســـبانيا الى سلمنقة لارهاب القبائل قبل نشوب حرب جديدة مع الرومان ، وكان هجومه على ثغر سوجنتام المدينة الحصينة على الشاطىء الشرقى التى كانت روما تزعم أنها تحت حمايتها هو الشرارة التى انبعثت منها الحرب البونية الثانية سنة ٢١٩ قبل الميلاد ، وفى السنة التالية بينما كان هانيبال يحـــارب الرومانيين فى بلادهم كان جيش رومانى يؤيده أسطول رومانى يشـــق طريقه فى اسبانيا وبدأ الرومان من ذلك الوقت يبسطون نفوذهم على اسبانيا .

على أن الرومان لم يجـــدوا الاسبانيين لقمة سائغة فقـــد قاوموهم مقاومة عنيفة ولكن القبائل الاسبانية كانت نزاعه الى الفردية شديدة الكبرياء والأنفة ميالة الى الاستقلال ، وكان العامل الجغرافى يلعب دوره فى ذلك ويؤثر تأثيره فاختـــلاف البيئات وتنوع الأجواء فى اسبانيا كان يشجع وجود الوطنية المحلية ، وكان يضاف الى ذلك صعوبة المواصلات ، ولذلك كانت القبائل لا يتعاون بعضها مع البعض ، وقد استغرق استكمال فتح الرومان لها مائتى سنة وكانت حركة الاستيلاء أسرع فى الجنـــوب والشرق حيث الثروة موفـــورة وحيث ألف النـــاس الخضوع والاستقرار ، ولم تهدأ مع ذلك حرب العصابات التى كانت تلائم مزاج الاسبانيين لعدم قدرتهم على توحيد صفوفهم ،

وقد أتعبت تلك العصابات الفيالق الرومانية ، ولم يتمكن الرومان من القضاء على زعماء تلك العصابات التى أطالت محنتهم الا بالخداع والخيانة والاغتيال بطريق دفع الرشى لرجال من أنصار هؤلاء الزعماء .

وقد أهدت اسبانيا لروما عدداً من رجالها الكبار ، فالأباطرة تراجان وهادريان ومرقس أورليوس من عائلات اسبانية رومانية ، وكذلك الفيلسوف الحكيم سنكا وكنتليان ومارتيال من رجال الأدب ، وفى القرن الثالث الميلادى كانت الامبراطورية قد تمكن منها الضعف وأخذها الفساد من جميع نواحيها واشتد اضطهاد المسيحيين ، ولما كان الاسبانيون معروفين بنزعتهم الفردية لذلك أثار الاضطهاد النقمة والمقاومة فى نفوسهم ، وزادهم تمسكا بالمسيحية وتعصبا لها ، واستشهد كثيرون من الاسبانيين ، وراحوا ضحايا لهذا الاضطهاد قبل دخول الامبراطور قسطنطين فى المسيحية واعلان منشور ميلان سنة ٣٠٦ الذى ضمن حرية العقيدة لكل رعايا الدولة الرومانية ، ولما جاء الامبراطور ثيودوسياس ــ وهو اسبانى الأصل وآخر أباطرة العالم الرومانى قبل تقسيمه الى قسمين ــ جعل المسيحية الديانة الرسمية وعمل هو نفسه على اتباع تعاليمها ، ورمت سياسته الى جعل الكنيسة وسيلة من وسائل الدولة السياسية وجعل الكاثوليكية أساس الوحدة السياسية .

وتبع ذلك تنظيم الكنيسة وعقد المؤتمرات للنظر فى مختلف المسائل المتصلة بالدين ، ورفض أحد هذه المؤتمرات النحلة

الأريوسية وهى النحلة التى تنــكر الثــالوث ، وقد قســم تيودوسيوس الامبراطورية الرومانية الى قسمين ، قسم شرقى وهو بيزانطة ، وقسم غربى وهو روما وهو على فراش الموت فى سنة ٣٩٥ ، فلما خلفه ابنه هونوريوس على القسم الغربى وهو فى الحادية عشرة من عمره تحدى سلطته قسطنطين الذى اختارته الفيالق الرومانية فى بريطانيا ، وحاول هونوريوس دفع هــذا الخطر فى سنة ٤٠٦ ميلادية بأن ســمح للقبائل الألمانية الثلاث بعبور الراين ودخول بلاد الغالة وهى قبــائل اللان والسواقى والوندال ، ولم يعق ذلك تقدم قسطنطين واســتطاع أن يقود فيالقه الى الجنوب وينزل منافسه من على عرشه ويجتاح شبه الجزيرة الايطالية ، وقد وجد الطريق الى روما قد سدته جموع القوط ، وأصبحت اسبانيا الرومانية معرضة للهجوم من جموع القبائل الألمانية وقد دعاهم أحد قواد قسطنطين لعبور جبــال البرانس والتقدم الى اسبانيا ليستعين بهم على كسب النفوذ ، وفى سنة ٤٠٩ تدفقت جموع قبائل السواقى على أسبانيا واتجهت الى جليقية ودخلت قبائل الوندال وسارت الى الجنوب واتجهت قبائل الآلان الى الشاطىء الشرقى وتبــع ذلك دخول قبــائل القوط الغربيين اسبانيا بعد أن دخلوا فى المسيحية وقبلوا النحلة الأريوســية وتغلبوا على القبائل الألمانية التى ســبقتهم الى اسبانيا ، فعبر الوندال مضــيق جبل طارق الى افريقية وهزم السواقى واللان ، واستطاع القوط بسط سلطانهم على جميع أجزاء شبه الجزيرة وجعلوا طليطلة عاصمة لدولتهم سنة ٥٥٤

وجعلوا اسبانيا وطنا لهم ، فلما فتح المسلمون اسبانيا تولى القيام بحركة استردادها من أيدى المسلمين سلالة القوط لا الرومان ، وقد جاء الرومان الى اسبانيا فى بادىء الأمر لمقاومة قرطاچنة ورد هجوم عدوهم هانيبال ، أما القوط فانهم جاءوا الى اسبانيا ليتخذوها وطنا لهم ومجالا حيويا ، ولذلك حرصوا على البقاء بها ، وقادوا حركة الاسترداد واعادة اسبانيا الى المسيحية ، لما تغلب عليهم المسلمون ، وقد تركوا النحلة الأريوسية ودخلوا فى حظيرة العقيدة الأرثوذكسية لتوطيد نفوذهم السياسى وذلك فى سنة ٥٨٩ ميلادية ، وقوى من ذلك الحين شأن الكنيسة فى اسبانيا ، وعظم نفوذ رجال الدين ، وقد تردد ملوك القوط فى اسبانيا بين نظريتين فى توريث العرش : نظرية وراثة الابن ونظرية الاختيار الذى يقوم به الأشراف وأعيان الدولة ، وكانت ملوكهم تحاول الشك بنظرية توريث الابن ، وكان الأشراف يحاولون هدم هذه النظرية وجعل حق الاختيار مقصورا عليهم ، وقد رشح الملك غيطشة أحد أبنائه لوراثة العرش فى حياته ، فلما أدركته الوفاة ــ ويظن حسب بعض الروايات أنه مات قتيلا ــ ثار الأشراف واختاروا المدعو رودريك ــ ويسميه مؤرخو العرب ــ بلاذريق ــ ملكا عليهم ، وأغضب ذلك أسرة غيطشة وكان لهذا الخلاف بين الذى اعتبر مغتصبا للعرش وأسرة غيطشة أثر كبير فى تشجيع موسى بن نصير على فتح الأندلس سنة ٧١١ ولم تمض سنوات حتى كان انتصار الجيوش الاسلامية فى معظم أنحاء شبه الجزيرة كاملا ،

وقد تعجل خليفة دمشق وأمر باستدعاء موسى بن نصير وطارق ابن زياد ، وأرجح أنه لو تركت لموسى بن نصير فسحة من الوقت لما بقيت منطقة فى اسبانيا دون أن يحتلها المسلمون ويبسطوا عليها سلطتهم مهما تكن قيمتها ، ولظلت اسبانيا حتى اليوم مستقرا لأبناء العرب والبربر وداراً من ديار الاسلام .

وقد عبر بعض الولاة الذين جاءوا بعد موسى بن نصير جبال البرانس ، ووصل أحدهم وهو عبد الرحمن الغافقى الى مقربة من مدينة بواتييه وحدثت المعركة المعروفة فى التاريخ الاسلامى باسم معركة بلاط الشهداء ، وقتل فيها عبد الرحمن الغافقى سنة ٧٣٢ ميلادية ولم يوفق هجوم العرب فى محاولاتهم تجاوز جبال البرانس وكان من الخير لو استكملوا فتح اسبانيا قبل المغامرة بالهجوم على الجزء الجنوبى من فرنسا ، فان الناحية التى تركوها فى أستريش كانت مصدر متاعب لا تنقضى ، وفيها بدأت حركة الاسترداد التى انتهت باجلاء المسلمين عن اسبانيا سنة ١٤٩٢ اجلاءً نهائيا .

ويقول مؤرخو العرب أن أول من جمع فلّ النصارى بالأندلس — بعد غلبة العرب لهم — رجل يقال له بلاى ، من أهل أشتوريش كان رهينة عن طاعة أهل بلده ، فهرب من قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمن الثقفى الثانى من أمراء العرب بالأندلس وذلك فى السنة السادسة من افتتاحها ، وهى سنة ٩٨ هجرية ، وثار النصارى معه على نائب الحر بن عبد الرحمن فطردوه وملكوا البلاد وبقى الملك الى أن أخرج المسلمون من اسبانيا .

ويقول الرازى – المؤرخ الأندلسى –[1] : « فى أيام عَنبسَة بن سحيم الكلبى قام بأرض جليقية عِلج خبيث يقال له بلاى من وقعة أخذ النصارى بالأندلس ، وجدّ الفرنج فى مدافعة المسلمين عما بقى بأيديهم ، وقد كانوا لا يطمعون فى ذلك ، ولقد استولى المسلمون بالأندلس على النصرانية وأجلوهم عنها ، وافتتحوا بلادهم ، حتى بلغوا أريولة من أرض الفرنجة ، وافتتحوا بنبلونة من جليقية ، ولم يبق الا الصخرة فانه لاذ بها ملك يقال له بلاى ، فدخلها فى ثلثمائة رجل ، ولم يزل المسلمون يقاتلونه حتى مات أصحابه جوعا ، وبقى فى ثلاثين رجلا وعشر نسوة ، ولا طعام لهم الا العسل يشتارونه من خروق بالصخرة فيتقوتون به ، حتى أعيا المسلمين أمرهم ، واحتقروا بهم وقالوا ثلاثين علجاً ما عسى أن يجىء منهم ؟ فبلغ أمرهم بعد ذلك من القوة والكثرة ما لا خفاء به . وفى سنة ١٣٣ أهلك الله تعالى بلاى المذكور ، وملك ابنه فافلة بعده ، وكان ملك بلاى تسع عشرة سنة وابنه سنتين ، فملك بعدها أدفونش ابن بيطر جد بنى أدفونش هؤلاء الذين اتصل ملكهم الى اليوم ، فأخذوا ما كان المسلمون أخذوه من بلادهم » .

وتتفق آراء المؤرخين على أن فلولا من القوط فرّت أمام الفاتحين المسلمين وما زالت تتراجع أمامهم نحو الشمال حتى لاذت بناحية بعيدة فى جليقية تسميها المراجع العربية بصخرة

---

(١) الجزء الاول من نفح الطيب صفحة ٨٣ .

« بلاى » أو الصخرة ، والحقيقة أنها فى منطقة كنتبرية القاحلة ، وكان على رأس هؤلاء القوط الهاربين فريق من أقارب لذريق ونفر من كبار القوط وعدد من رجال الدين الذين أبوا الخضوع للمسلمين ، وتختلف الروايات فى أخبار بلاى هذا ومدى علاقته بلذريق ، ومهما يكن من أمره فان القوط المعتصمين بالصخرة قد أقاموه ملكا عليهم ، وقد نسج حول سيرته الكثير من الأساطير والخرافات ولكن الحقيقة الثابتة أن هذا الرجل هو منشىء حركة المقاومة النصرانية ، وقد استغل بلاى فرصة وقوع الخلاف بين المضرية واليمنية فى عهد حاكم الأندلس عبد الملك ابن قطن وأخذ يمد حدود دويلته ، ثم وقعت الفتنة البربرية فى المغرب واشتد الصراع بين العرب والبربر وانتقل من المغرب الى الأندلس فأخذ بلاى وأصحابه فى التوغل بأرض المسلمين وتثبيت أقدامهم فيها ، وازداد مركز بلاى قوة فى خلال فتنة أبى الخطار والصميل وهكذا استطاعت هذه الفئة القليلة التى التفت حول بلاى أن تكون على هوان شأنها النواة التى تكونت حولها دول استطاعت أن تسير بالتاريخ الاسبانى الى الأمام حينما عجز المسلمون عن القيادة بعد انهيار الخلافة الأموية .

وكان رجال الدين يدخلون فى روع هؤلاء المجاهدين أن الغزاة المسلمين كفار يجب القضاء عليهم أو تحويلهم الى المسيحية ، وليس هناك مهادنة ولا مساومة فى ذلك ، وكانت هذه الدويلة التى قامت حول الصخرة كلما اتسعت حدودها وقوى شأن أهلها ازدادوا اصراراً على ازالة الحضارة الاسلامية ، وقد

أعجبتهم بعض مظاهر هذه الحضارة ولكنهم كانوا بوجه عام لا يوافقون على الأسس الدينية التى قامت عليها هذه الحضارة وساعد وجود هذه الدويلة على تكوين دويلات مسيحية أخرى فى لحوف الجبال الشمالية البارزة وصياصى الودى المخضلة فى شمال اسبانيا ، وكانت هذه الدويلات شوكة فى جنب دولة الخلافة الاسلامية فى الأندلس ، ولكنها مع ذلك لم تكن تستطيع أن تقف من الخلافة الأموية الأندلسية موقف الند من الند ، وذلك لأنها ظلت زمنا تشكو قلة السكان ، ولم يكن عند ملوكها جيوش منظمة كاملة الأهبة ولا موارد مالية ثابتة كافية ، بل كان اعتماد ملوكها على كرم بعض النبلاء وسكان المدن ، وكان هؤلاء وأولئك لا يجودون بالمال الا لقاء نزول الملك عن بعض حقوقه لهم أما المسلمون فى ظل الخلافة فقد عاشوا فى أوج العظمة والقوة ولا سيما فى زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر ، والحاجب المنصور بن أبى عامر ، ولكن أعقبت وفاة المنصور سلسلة متلاحقة من الانقلابات والاختلافات عصفت بقوة الدولة الاسلامية وأطمعت فيها أعداءها المتربصين لها .

وفى القرن الحادى عشر الميلادى (ويقابله بعد انتهاء العقد الأول منه القرن الخامس الهجرى) الذى سقطت فيه الخلافة الأموية الأندلسية اشتد ساعد الممالك النصرانية حتى صارت تهدد بقاء المسلمين فى الأندلس ، وقد استطاع سانكو الملقب بالكبير أن يجعل لمملكة نافار شأنا يذكر بين الدول الاسبانية المسيحية . فقد تمكن من بسط سيادته على قشتالة بعد مقتل

صهره جارسيا صاحب قشتالة واجتاح بعد ذلك ليون وانتزع منها جزءاً كبيراً أضافه الى قشـــتاله لكى يكوّن منهما مملكة لابنه الثـــانى فرديناند والبـــاقى منها أضـــافه الى أملاكه التى امتدت حينـــذاك من حدود جليقيـــة الى قطالونيـــا واجترأ بذلك على أن يدعو نفسه ملك الاسبانيين ، وأصبح فى مستطاعه أن يوجه هذه القوى الموحدة الى محاربة الدول الاسلامية ، ولكنه ما كاد يتم عملية التوحيد حتى أدركه الموت فى ســـنة ١٠٣٥ ميلادية وقسمت مملكته بين أبنائه الأربعة ، وتصدعت الوحدة التى كانت شديدة الخطر على المســـلمين فى اسبانيا ، وكان لظهور قشتالة فى مظهر الدولة الملكية وجلوس فرديناند ولده الثانى على عرشـــها أثر كبير فى سير الحوادث فى شـــبه الجزيرة ، وبعد أن قتل فرديناند ملك ليـــون فى معركة ســـنة ١٠٣٧ ضم الى أملاكه ليون وجليقية وبدأت قشتالة تلعب دورا هاما فى سياسة اسبانيا وغدا فرديناند أقوى ملك فى اسبانيا .

أما اخوته الثلاثة فكانوا يحكمون ممالك صغيرة لا تكاد تبلغ ثلث مملكته ، فحكم جارسيا (غرسية) أكبر أولاده نافار من غرب جبال البرانس الى مصب نهر ابرة ، وحكم ابنه راميرو شقة ضيقة تمتد من باب شزروا ــ رونسنرفال ــ الى أينكا وآرا باسم ملك أرجون ــ أرغونة ــ وحكم جونزالو منطقة أصغر هى ولاية سوبراب فى أواسط جبال البرانس ، وأما فى شرق البرانس فكانت امارة برشلونة أو قطلونية ممتدة على شاطىء البحر حتى مصب نهر ابرة ويحكمها ريموند برنجـــار الأول

وبذلك أصبحت الدول الاسبانية المسيحية فى ذلك الحين خمسا .

ولما قتل جونزالوا فى كمين دبره له أحد أتباعه تولى أخوه راميرو ــ ملك أرجون ــ حكم سوبراب وضمها الى أملاكه ، وطمع راميرو فى الاستيلاء على مملكة ناڤار وعليها أخوه جارسيا أكبر أولاد سنكو الكبير واستعان بولاة تطيلة ووشقة وسرقسطة المسلمين ، ولكن جارسيا استطاع رد الهجوم وفاجأ الأرجونيين وهم نيام ونجا راميرو بصعوبة .

وبعد أن أخمد فرديناند ملك قشتالة الثورات التى قامت فى ليون ، وثبت قدمه ونظم بيته بدأ يهاجم الدول الاسلامية . ويصول بجيشه المنظم شرقا وغربا وجنوبا ، واستطاع توسيع حدود مملكته توسيعا كبيرا على حساب الدول الاسلامية ، وحاول استرداد مدينة سمّورة ، وبعد أن استولى على بعض قلاع الحدود اتجه الى مدينة بازو وانتزعها عنوة وخرّبها واسترق أهلها وشجعه انتصاره فى محاربة ملك بطليوس على مهاجمة أميرى طليطلة وسرقسطة واضطرهما الى دفع الجزية ، وقد ذكرت فى الفصل الخاص بعهد المعتضد محاصرة فرديناند لاشبيلية وارغام المعتضد وهو أقوى ملوك شبه الجزيرة المسلمين على أن يؤدى له جزية سنوية ، ونرى من ذلك أن فرديناند فرض سلطانه على ملوك الأندلس المسلمين وأمرائها ، ولولا المنازعات الطويلة والحروب المستمرة بينه وبين أخويه جارسيا وراميرو لتمكن على الأرجح من اجلاء المسلمين عن الأندلس ، ولكن الخلاف بينه وبين أخويه جعله يكتفى بفرض الجزية ، وقد

استطاع بذلك أن يستعين بأموال الدولة الاسلامية على تحسين أحوال مملكته وتقوية جيشها ومهد السبيل لمن يجيء بعده لاتمام ما حاوله وهو التغلب على الدول الاسلامية ورد اسبانيا للمسيحية كاملة ، ومعنى ذلك أن ملوك الطوائف وأمراءها كانوا يقدمون لفرديناند المال الذى يشد عضده وييسر له اعداد العدة لابتزاز ملكهم واستئصال شأفتهم .

وفى سنة ١٠٦٤ ميلادية (٤٥٧ هجرية) استولى فرديناند على مدينة قُلُمْرِيَّة (Coimbara) بعد حصار استمر ستة أشهر ، ولم يكتف فرديناند بذلك بل أمر بطرد المسلمين المقيمين فى المنطقة الممتدة من جنوب نهر دويرة الى نهر منديجو ، وحول بعد ذلك جيوشه من الغرب الى الشرق صوب بلنسية ، وكان قد خلف أميرها عبد العزيز فى سنة ٤٥٣ ابنه الضعيف عبد الملك وحاصرها ، ولما وجد القشتاليون أن مهاجمة المدينة من الصعوبة بمكان لجأوا الى الحيلة لاستدراج المدافعين عنها . فتظاهروا بالانسحاب فخرج وراءهم حماة المدينة واثقين بالنصر وفى الطريق بين بلنسية ومرسية انقض عليهم القشتاليون انقضاضا فجائيا وأثخنوا فيهم القتل ولاذ ملكهم بالفرار على جواد سريع ، وعاد فرديناند للاستيلاء على المدينة ، ولم ينقذها منه سوى المرض الفجائى الذى أصابه واضطره الى العودة الى ليون وبها أدركته الوفاة فى سنة ١٠٦٥ م (٤٥٨ هجرية) وكان فرديناند ملكا مثاليا ، كان شجاعا تقيا فاضلا شديد الاخلاص لوطنه وقومه وعقيدته وقد ظفر فى معظم الحروب التى خاض

غمارها وبعد أن كان ملوك الدول المسيحية يدفعون الجزية لخليفة المسلمين أصبح ملوك اشبيلية وبطليوس وطليطلة يدفعون الجزية لفرديناند ملك قشتالة قبل أن يطويه الحمام ويوسد فى التراب دفينا . ويقول المؤرخ الألمانى اشباخ [1] : « ان اتساع رقعة ملكه وتغلبه على أمراء المسلمين وعلى اخوته جعله يتخذ لنفسه لقب « قيصر » منذ سنة ١٠٥٦ للتدليل على سيادته على جميع اسبانيا » ، ولسنا ندرى ماذا كان سيحل بدول الأندلس الاسلامية لو طال عمر هذا المجاهد الباسل الذى كان لا تتراخى له عزيمة ولا تهدأ له حركة ، ولا نزاع فى أن خبر هلاكه نزل على قلوب ملوك مسلمى الأندلس بردا وسلاما .

وقد وقع فرديناند فى الخطأ نفسه الذى وقع فيه والده سانكو فقد قسم ملكه بين أبنائه الثلاثة ، فاختص أكبرهم — سانكو — بقشتالة والحصول على الجزية من ابن هود صاحب سرقسطة ، واختص ابنه ألفونسو بليون وأستوريش والحصول على الجزية من صاحب طليطلة ، وجعل ابنه الأصغر جارسيا ملكا على جليقية والبرتغال واختصه بجزية ملك اشبيلية وأمير بطليوس وأسند حق الاشراف على الأديار فى جميع مملكته الى ابنتيه ، الدونا أوراكا والدونا الفيرا .

وقد استطاع فرديناند عن طريق توثيق علاقاته بالبابا أن يكسب حركة الاسترداد صبغة دولية ، وبدأ المسيحيون

---

(١) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ليوسف اشباخ وترجمة الأستاذ عبد الله عنان صفحة ٢٢ .

الأوربيون ينظرون اليها على أنها حــرب مقدســة بين العالم المسيحى والعالم الاسلامى ، وكان فرديناند يقول لملوك الأندلس المسلمين : « انما نطلب الأرض التى غلبتمونا عليهــا فى أول أمركم » . ولكنه بتقســيمه المملكة بين أولاده الثــلاثة عرض العمل الذى وقف عليه حيــاته واستغرق أكثر جهوده للخطر الشديد ، اذ أطلق موته ســيل الحروب الداخليــة بين الاخوة الثلاثة وأصبح الحال فى شمال اسبانيا شبيهاً بالحال فى جنوبها ، ففى الشمال كان الاخوة يتنازعون ويتصارعون ويحاول كل منهم القضاء على أخيه وانتزاع ملكه ، وفى الجنوب كذلك يتنافس الملوك والأمراء ويحارب بعضهم بعضا ولا يجد المسلمون بأسا فى الاستعانة بالمسيحيين ولا يجد المسيحيون كذلك غضاضة فى الاحتماء بحمى المســلمين والاعتماد عليهم ، وأصبح رجحان احدى كفتى الميزان فى الصراع الدائر بين اسبانيا المســيحية واسبانيا العربية المسلمة متوقفا على منْ من الفريقين يسبق الى توحيد الصفوف وجمع القوى المتناثرة ليضرب الضربة القاضية ، ولكن حالة الدول المسيحية بوجه عام كانت تبعث على الأمل والثقة بالمستقبل ، فقــد كانت روح المسيحيين المعنوية عالية وحماستهم الدينية مشــبوبة ، وكانت المناطق الجبلية الشمالية الوعرة القليلة الخيرات قد علمتهم الصبر على شظف العيش ، والتمرس بالشدائد ، وأنمت فيهم القدرة على مجالدة الصعاب فى حين أن المسلمين فى المناطق الجنوبية الموفورة الخيرات قد قعد بهم خفض العيش وليونته ، وأفقدهم الكثير من صفاتهم الحربية

ونال من مســتواهم الأدبى والأخلاقى ، ولذلك كانت حالتهم أدعى الى اليأس وأبعث على الحزن ما لم تظهر على المسرح قوة أخرى تأخذ بيدهم وترد عنهم عرام الخطر الماحق .

ولم يقنع سانكو أكبر أولاد فرديناند بقشتالة ، واستبد به الطمع ، وحاول التوسع على حساب ملك نافار وملك أرجون ابنى عمه ، ولكنه لم يفلح وأخفق فى المحاولة ، وانقلب من هذه الحرب الى محاربة أخويه : ألفونسو وجارسيا ، ودارت الحرب بين الفريقين مدى ثلاث سنين خرب فيها الكثير من أودية ليون وقشتالة ، ومنى الفريقان بخســائر فادحة ولم يتمكن أحــد الفريقين من التغلب على الآخر ، وقد استعان سانكو بالسيد ـ البطل الاسبانى المشهور الذى نسجت حول سيرته أساطير كثيرة واختلفت فى حقيقته الأخبار ـ واســتطاع التغلب على ألفونسو وأسره ، وقد أبقى على حياته ارضاء لأختهما الكبرى أوراكا ، وأرغمه على أن ينزل له عن عرش ليون ، ودفع به الى السجن ، وقد دبرت له أخته أوراكا ســبيل الفرار فالتجأ الى تابعه ابن ذى النون صاحب طليطلة وقد تلقاه بالترحيب وأكرم وفادته .

ولم يقف سانكو عند هذا الحد فقد كان يرمى الى الاستيلاء على أملاك أبيه جميعها ، ولذلك هاجم جليقية ولم يجد صعوبة فى الاســتيلاء عليها لأن أخاه جارســيا كان مكروها لطغيانه واصطفائه لوزير يبغضه الشعب ، ويرجح أنه لاذ بالفرار دون أن يحاول المقاومة ، وغادر مملكته وافدا على تابعه المعتمد بن

عباد صاحب اشبيلية ، وهكذا أصبح سانكو ملكا على الأملاك التى خلفها أبوه .

وأراد سانكو أن يستكمل انتصاره على أخويه ويقطع عليهما كل سبيل للعودة أو يقيم على الأقل العقبات فى طريق تلك العودة اذا حاولها أحدهما أوحاولاها الاثنان معا مستعينين ببعض الجنود المرتزقة ، وكان تحقيق تلك الغاية يقتضيه الاستيلاء على قلعتى سمّور وتورو المنيعتين الواقعتين على نهر دويرة ، وكانت هاتان القلعتان فى يدى أختيه : أوراكا والفيرا ، وقد أغضب سانكو باسرافه فى الطمع ومعاملته لأخويه أختيه وجعلهما يعطفان على أخويهما اللاجئين ، ورفضت الأختان ما عرضه عليهما سانكو أخوهما لقاء تنازلهما له عن القلعتين من تعويضهما بأراض أخرى ، ولم تحفلا بتهديده لهما وابراقه وارعاده ، واستطاع سانكو الاستيلاء على قلعة تورو لضعف حصونها ، وظلت أوراكا معتصمة بقلعتها معتمدة على معونة الفرسان المدافعين عن قلعتها واثقة بهم ، وعجز سانكو عن الاستيلاء على القلعة واقتحامها عنوة ، فشدد فى حصارها ، ولقى حتفه فى هذا الحصار ، فقد سقط قتيلا فى كمين أعد لاغتياله ، ويرجح أن هذا كان من تدبير أخته أوراكا أو أخيه ألفونسو أو من اشتراكهما معا ، واضطرب نظام الجيش بعد مصرعه وتراجع عن حصار القلعة ، وابتدرت أوراكا الارسال الى أخيها ألفونسو فى طليطلة تخبره بما حدث وتدعوه الى المسارعة بالعودة ، لخلو عرش أخيه ، واعترف أهل ليون

واستريش له بحقه فى العودة الى تسنم عرشه ، ولكن اعترضته الصعاب فى قشتالة وفى الأراضى التى كانت تابعة من قبل لمملكة نافار ، فقد كان يشترط لكى يلى العرش أن يقسم فى حفل رسمى بأنه برىء من التبعة فى مصرع أخيه سانكو ، وتروى الرواية أنه لما تقدم ألفونسو لأداء اليمين لم يتقــدم أحد من أشراف قشتالة لتلقينه اياه ســوى الكونت رودريجو دياز دى بيڤار الذى عرف فى التاريخ باسم الســيد القمبياطور ، ولقّن الملك اليمين مرتين فأدّاه ألفونسو كارها ونقم ذلك على السيد ولم يغفر له اجتراءه عليه ، وبذلك أصبح ألفونسو ملكا على قشتالة وليون [1] وقد انتقم فى سنة ١٠٨١ م (٤٧٤ هجرية) من السيد بنفيه من قشتالة لتهم وجهت اليه بعــد ايفاده الى اشــبيلية لتحصيل الجزية المفروضة على ملكها .

وعاد فى أثنــاء ذلك أخوه جارســيا الى مملكته جليقية ، ويبدو أن نزاعا قام بين الأخوين حول قشتالة التى كان جارسيا يطالب بجزء منها ، وعمل ألفونسو بنصيحة أخته الماكرة أوراكا فاستدعى أخاه الى الاجتماع به لتسوية ما بينهما من خلاف ، ولمــا حضر جارسيا لمكان اللقاء أمر باعتقاله وزج به فى حصن لونا المنيع وظل سجينا يرسف فى أغلاله زهاء ثمانية عشر عاما حتى أراحه الموت سنة ١٠٩٠ م (٤٨٣ هجرية) .

وهكذا أصبح ألفونسو ملكا على ليون وقشتالة وجليقية

---

(١) تاريخ اسبانيا والبرتغال لوليام اتكنسون صفحة ٧١ .

ونافار وصار معروفا بلقب ألفونسو السادس وحل محل أخيه جارسيا فى الحصول على الجزية التى كان يؤديها المعتمد بن عباد ، ومعنى ذلك أن المعتمد أصبح تابعا لهذا الملك الذى دبَّر قتل أخيه أو اشترك فى تدبيره وخدع أخاه الآخر واعتقله وأبقاه فى السجن حتى مات ناقما عليه لاعنا له .

وكان ألفونسو السادس مثل أبيه فرديناند محاربا جريئا ، ولكنه كان شخصية بغيضة منفرة شديدة الجشع مطبوعة على الاجرام نزاعة الى القسوة والغدر والخيانة ، ولم يقنع بالجزية التى كان يؤديها له ملوك الطوائف ، فأخذ ينذرهم من الحين الى الحين بالويل والثبور ويهددهم بالاستيلاء على أملاكهم ، وقد رأينا فى فصل سابق محاولته الهجوم على اشبيلية والخدعة التى دفع بها ابن عمار هذا الهجوم وأبطل هذه المحاولة ، وقد أثار هذا الرجل الرعب فى قلوب الأمراء المسلمين فكانوا جميعا يتسابقون الى مرضاته ويعملون على خطب وده وينفقون فى ذلك من مالهم ويبتذلون كرامتهم ، وقد عقد هذا الرجل مع ذلك العزم على التغلب على شبه الجزيرة برمتها ، ولم تكن تنقصه القوة لوضع هذا التصميم موضع التنفيذ ، ولكن مع ذلك لم تكن هناك ضرورة للاسراع ، وكان فى خلال ترقب الفرص لتحقيق مراميه يستكمل معداته ويستوفى حشد قواته ويضغط على ملوك الطوائف وأمرائها ليستخرج ما عندهم من المال المدخر والذهب المكنوز .

وكان من أضعف ملوك الطوائف الخاضعين لألفونسو

القادر ملك طليطلة وحفيد المأمون ملكها السابق ، وكن ألعوبة في يد خصيان قصره وأضحوكة جيرانه الذين كانوا يتنافسون في اقتطاع أجزاء من أملاكه والاستخفاف به ، وصفه ابن بسام في الذخيرة بقوله[1] : « كان آية في قرب غوره ، امّعة امّرة[2] أجبن من قبّرة ، ان حزم لم يعزم وان سدى لم يلحم » . وقد ركب هواه وأساء السياسة حتى كرهه أهل طليطلة وملّوا حكمه وثاروا به ولم يستطع مواجهة المواقف فلجأ الى الفرار ، وأغراهم رجل من بطليوس باختيار المتوكل عمر بن المظفر بن الأفطس فأتاه سفيرهم يدعوه فدخل طليطلة عقب سنة ٤٧٢ وأقام بالمدينة نحوا من عشرة أشهر وكان كحاكمهم السابق في وهن التدبير والاشتغال باللذات ، وراسل القادر ألفونسو السادس يطلب مساعدته في استرداد عرشه ويذكره بما كان بينه وبين جده من علاقة قديمة ، فلبى ألفونسو دعواه واستمع لشكواه وأظهر الارتماض لما أصابه وأقبل معه الى طليطلة وهو يضمر أن ينتهز الفرصة ويفيد من هذا الخلاف ويتقاضى غاليا ثمن مساعدته للقادر ، وأحس المتوكل أن موقفه محفوف بالخطر ولم يجد بدا من الهرب الى بطليوس تاركا طليطلة بين ناب ألفونسو السادس وظفره ، وأصر الفونسو على أن لا يرحل عن المدينة الا اذا وفى له المقتدر بضمانه وكافأه على تأييده له ،

(١) القسم الرابع المجلد الأول من الذخيرة صفحة ١١٦ .

(٢) الامّرة : الضعيف الذى يؤمر .

وشدد ألفونسو الحصار على المدينة ، وحاول أهل طليطلة رفع الحصار المضروب عليهم فعجزوا عن ذلك ، وأرسلوا جماعة منهم يشكون الى ألفونسو ابن ذى النون ويستصرخونه عليه فلم يحسن لقاءهم وتنمر لهم ، وأخذ القادر يضغط على أهل المدينة لتحصيل المال الذى ضمنه لألفونسو وجيش قشتالة فى خلال ذلك ينتسف المرافق ، ويعيث فسادا فى أرباض طليطلة ، ويحرق ويمثل ، ويحكم سد المنافذ ، حتى ساءت أحوال المدينة الى أقصى حد ، وشمل أهلها البلاء ، وأتى على أكثرهم القتل ، وعمد كثيرون منهم الى الجلاء عنها ، ويقول ابن بسام انه [1] : « حينما هجم الشتاء فمنعه من ميرة تأتيه أو مدد يوافيه فأقام نيفا على شهرين لا يسيغ الشراب ولا يملك المجيء ولا الذهاب ليس له شوكة الا ظل لوائه ولا مدد الا ضعف من كان بازائه ولولا اهتبال ملوك الطوائف باقامة مرافقه واصغاؤهم الى هدَر شقاشقه لطار شعاعا وذهب ضياعا » . وواضح من هذه الرواية أن ملوك الأندلس كانوا يساعدون جيش الطاغية ألفونسو وهو يحاصر طليطلة ويمدونه بالميرة ، وطفق أهل طليطلة يستغيثون بمن حولهم ويستصرخونهم دون أن يعبأ بهم أحد من ملوك شبه الجزيرة وأمرائها ، وبعد انتهاء الشتاء اشتد بهم ضيق الحصار وتعطل المرافق وقعود اخوانهم المسلمين عن مناصرتهم وتفريج كربهم فرأوا مداخلة ألفونسو فخرج وفد منهم الى مضربه

---

(١) الذخيرة القسم الرابع الجزء الأول صفحة ١٢٨ .

للمفاوضة وكان أمل هذا الوفد أن يغريه بالمال لرفع الحصار .

ويصف لنا ابن بسام دخول هذا الوفد على ألفونسو بقوله : « فأدخل على أدفونش يومئذ منهم جماعة فوجدوه يمسح الكرى من عينيه ثائر الرأس خبيث النَّفَس ، وجعلوا ينظرون اليه وهو يضغث ثَغَامة رأسه ، فما نسوا ذَفَر أطماره ودرن أظفاره ، ثم أقبل عليهم بوجه كريه ، ولحظ لا يشكّون أن الشر فيه ، وقال لهم الى متى تخادعون وبأى شىء تطمعون ؟ قالوا بنا بغيّة ولنا فى فلان وفلان أمنية » وسمّوا له بعض ملوك الطوائف ، فصفّق بيديه ، وتهافت حتى فحص برجليه ثم قال : «أين رسل ابن عباد ؟ فجىء بهم يرفلون فى ثياب الخناعة ، وينبسون بألسنة السمع والطاعة ، فقال لهم : « مذكم تحومون علىّ وترومون الوصول الىّ ؟ ومتى عهدكم بفلان ، وأين ما جئتم به لاكنتم ولا كان ؟» . فجاءوا بجملة ميرة وأحضروا بين يديه كل ذخيرة خطيرة ، ثم مازاد على أن ركل كل ذلك برجليه ، وأمر بانتهابه كله ، ولم يبق ملك من ملوك الطوائف الا أحضر يومئذ رسله ، وكانت حاله حال من كان من قبله ، وجعل أعلاجه يدفعون فى ظهورهم وأهل طليطلة يعجبون من ذل مقامهم ومصيرهم ، فخرج مشيختها من عنده ، وقد سقط فى أيديهم ، وطمع كل شىء فيهم ، وخلّوا بينه وبين البلد لثلاثة أيام من ذلك المشهد ، ودخل طليطلة على حكمه ، وأثبت فى عرصتها قدم ظلمه ، حكم من الله سبق به القدر فلم يكن منه وزر » .

ويسترسل ابن بسام فى الحديث عن القادر فيقول : « وخرج

ابن ذى النون خائباً مما تمناه ، شرقاً بعقبى ما جناه ، والأرض تضج من مقامه ، وتستأذن فى انتقامه ، والسماء تود لو لم تطلع نجما الا كدرته عليه حتفا مبيدا ، ولم تنشىء عارضا الا مطرته فيه عذابا شديدا ، واستقر بمحلة أدفونش مخفور الذمة مذال الحرية ، ليس دونه باب ولا دون حرمه ستر ولا حجاب ، حدثنى من رآه يومئذ بتلك الحال وبيده اصطرلاب يرصد فيه أى وقت يرحل ، وعلى أى شىء يعول ، وأى سبيل يتمثل ، وقد أطاف به النصارى والمسلمون ، أولئك يضحكون من فعله ، وهؤلاء يتعجبون من جهله » .

وكان استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة فى سنة ٤٧٨ هجرية (سنة ١٠٨٥ ميلادية) وطليطلة هى أول ما استرد الاسبانيون من مدن الأندلس العظيمة ، وقد كان لسقوطها دوى عظيم ووقع أليم فى نفوس سكان الأندلس المسلمين والعالم الاسلامى قاطبة ، وقد أدرك المسلمون أن مقامهم فى الأندلس بعد سقوط طليطلة أصبح معرضا لأشد الأخطار . وقد عبر الشاعر عبد الله بن فرج اليحصبى عن هذا الشعور فى قوله :

يا أهـــل أندلس حثوا مطيكم
فما المقـــام بها الا من الغـــلط
الثوب ينســـل من أطرافه وأرى
ثوب الجزيرة منسولا من الوســط
ونحن بين عـــدو لا يفـــارقنا
كيف الحيـــاة مع الحيـــات فى سفط

وأفاد سقوط طليطلة الاسبانيين من الوجهة الحربية فوائد كثيرة ، فقد ثبت أقدامهم فى المدن الشمالية التى استردوها من المسلمين ومد نفوذهم من الهضبات العليا الى صميم البلاد وأضاف الى قشتالة القديمة المنطقة الممتدة جنوبها والتى أطلق عليها اسم قشتالة الجديدة ، وكان لجعل ألفونسو طليطلة عاصمة القوط القدامى عاصمة لملكه معنى بعيد الدلالة ، وكان سقوط طليطلة خاتمة البداية لحركة الاسترداد التى بدأت فى الصخرة ، وبدء نهاية خروج المسلمين من الأندلس ، وأدرك ملوك الأندلس وأمراؤها الخطر الداهم الذى يتهددهم ولعلهم ندموا على وقوفهم موقف المتفرج على سقوط طليطلة واشتراك بعضهم الى حد ما فى تعجيل هذا السقوط ، ولم يكن فى يدهم سوى ورقة واحدة ليلعبوا بها فى دفع عدوان ألفونسو المنتظر وكشف أذاه ، وهى الاستعانة بمدد من افريقية ، وبعد اعمال الرأى وتقليب الأمر على وجوهه استقر الرأى على استدعاء المرابطين والاستعانة بهم ، وسلم فى الفصل القادم بالظروف والملابسات التى هيأت ذلك ويسرت أسبابه ، وقد رأى ألفونسو أن يخلع على نفسه بعد سقوط طليطلة لقب « ملك الملتين » أى صاحب السلطان على النصارى والمسلمين معا .

وقعة الزلاقة

شعر ألفونسو السادس بعد استيلائه على طليطلة بأن نجمه قد علا وشأنه قد عظم فقويت آماله ، وترامت أطماعه ، ودفعه ما رآه من ضعف جلد ملوك الأندلس المسلمين وقلة مقاومتهم ، وتخاذلهم ووقوفهم منه موقف المستذل الضارع بازاء المتكبر الشامخ الى الاسراف فى طلباته والمبالغة فى الاستخفاف بهم ، فلم يكتف بطلب الضريبة المفروضة على المعتمد ، واشتط فطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة ، وأمعن فى التجنى ، فسأل فى دخول امرأته القمطيجة الى جامع قرطبة لتلد فيه من حمل كان بها ، وقد أشار عليها بذلك القسيسون والأساقفة لمكان كنيسة كانت فى الجانب الغربى من الجامع معظمة عندهم عمل المسلمون عليها الجامع الأعظم ، وسأل أن تنزل امرأته المذكورة بمدينة الزهراء غربى مدينة قرطبة فتختلف منها الى الجامع المذكور حتى تكون تلك الولادة بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة ذلك الموضع الموصوف من الجامع ، وزعم ألفونسو أن الأطباء أشاروا عليه بولادتها فى الزهراء كما أشار عليه القساوسة بالجامع فلم يقبل المعتمد اجابة هذا الطلب .

ووصل اليهودى ابن شاليب لقبض الجزية مع جماعة من رؤساء القشتاليين ، وحلوا بباب من أبواب اشبيلية وضربوا

خيامهم ، فوجّه المعتمد اليهم المال مع جماعة من وجوه دولته ، والظاهر أن اليهودى وجد أن بعض المـال المقدم من معـدن خسيس فرفض تسلمه وقال : « والله لا أخذت هذا العيار ، ولا آخذه منه الا مشجّرا ، وبعد هذا العام لا آخذ منه الا أجفان البلاد ، ردوه اليه » . فرد المـال الى المعتمد ، وأعلم بما قاله اليهودى ، فدعا الجند وقال : « أئتونى باليهودى وأصحابه ، واقطعوا حبال الخباء » .

ففعلوا وجاءوا بهم ، فقال المعتمد : « اسـجنوا النصارى واصلبوا اليهودى الملعون » .

فقال اليهودى : « لا تفعل وأنا أفتدى منك بزنتى مالا » .

فقال المعتمد [1] : «والله لو أعطيتنى العدْوة والأندلس ما قبلتهما منك » .

وصلب اليهودى ، وبلغ الخبر ألفونسو ، فكتب الى المعتمد لاطلاق سراح المعتقلين ، واشترط المعتمد أن يرد اليه حصـن المدور لقاء اطلاق سراحهم ، وقبل ألفونسو هـذا الشرط ورد الحصن اليه فأطلقهم ، وكان ألفونسو حينما بلغه نبـأ صلب اليهودى وحبس رجاله أقسم أن يأتى من الجنود بعدد شعر رأسه حتى يصل الى بحر الزقاق ، وقد عمل على أن يبر بقسمه

---

(١) ذكر صاحب النفح فى هذا الموضوع روايتين احداهما عن أبى عبد الله محمد ابن عبد الله الحميرى صاحب الروض المعطار فى الجزء السادس صفحة ٨٩ ، والثانية عن ابن اللبانة فى صفحة ٣٧٧/٣٧٨ من الجزء الخامس وتختلف الروايتان فى التفاصيل ولكنهما تتفقان فى جوهر الموضوع .

فأخذ يحرق وينهب فى قرى البلاد الاسـلامية ، وكان يقتل المسلمين بأسرهم وخرب اقليم شذونة ووصل الى منطقة جبل طارق وحاصر اشبيلية ثلاثة أيام ، واسـتولى أحد قواده على خصن لبيط القريب من مدينة لورقة ، وهو فى غاية الحصانة ، وكانت رجاله تشن الغارات من هذا الحصن على مرسية ، وتقدم القشتاليون من غرناطة واشتبكوا فى معـركة مع المسلمين . وحوصرت سرقسطة واستفحل الخطر فى كل ناحية من نواحى الأندلس الاسلامية ، واستولى الخوف على النفوس وبدا لأهل الأندلس أنه ليس هناك سـبيل للخلاص سوى أحد طريقين وكلاهما شر من الآخر ، وهما الرحيل من الأندلس ، وهو طريق يصعب احتماله ، واختيار مر ، أو الخضـوع لألفونسو وهو يفقدهم كل شىء ويتركهم أذلاء محتقرين وقد ينتهى باجلائهم عن البلاد أو يقتلهم ، لأن ألفونسو لم يكن الرجل الذى يطمأن الى وعده ويثق الناس بكلمته ، واتجه تفكير القوم صـوب افريقية ، وعقد اجتماع فى قرطبة حضره جماعة من فقهاء المدينة وتبادلوا الرأى فى الأحوال السائدة وما بلغته من السوء ، وقال المجتمعون هـذه مدائن الأندلس قد غلب عليها الأفرنج ، ولم يبق منها الا القليل ، وان استمرت الأحوال على ما نرى عادت نصرانية كما كانت ، ثم ساروا الى القاضى عبد الله بن محمد بن أدهم فقالوا له : « ألا تنظر ما فيه المسلمون من الصغار والذلة واعطائهم الجزية الى الفرنج بعد أن كانوا يأخذونها منهم ، وابن

عباد هو الذى حمل الافرنج على المسلمين حتى جرى عليه ما جرى وطلب منه ما طلب ، وقد دبرنا رأيا نعرضه عليك » .

فقال لهم القاضى ابن دأهم : « وما هو هذا الرأى ؟ » .

قالوا : « نكتب الى عرب افريقية ونعلمهم آن وصلوا الينا قاسمناهم أموالنا وخرجنا معهم مجاهدين فى سبيل الله » .

فقال ابن أدهم : « أخاف أن يخربوا الأندلس كما فعلوا بافريقية ، ويتركوا الافرنج ويبدءوا بكم ، والمرابطون أقرب الينا وأصلح حالا » .

فقالوا : « كاتب يوسف بن تاشفين ، وارغب اليه أن يدخل الينا بنفسه أو يرسل الينا قائدا من قواده » .

فقال ابن أدهم : « قد أشرتم برأى فيه السداد » .

وقدم المعتمد من اشبيلية الى قرطبة فى اثر ذلك ، فدخل عليه القاضى وأعلمه بما دار بينه وبين أهل قرطبة ، وما اتفقوا عليه ، فقال المعتمد : « نعم ما أشاروا به ، وأنت رسولى اليه » .

فتظاهر القاضى بالتمنع واستعفاه ، وأراد بذلك أن يقوى عزمه على ارساله فقال له المعتمد : « لا أجد لها غيرك » .

وقد كانت فكرة الاستعانة بالمرابطين تجول فى نفس المعتمد ، ويروى أنه حينما أخذت جيوش ألفونسو تغير على التخوم والجهات وتعيث وتخرب وتدمر وحاصرت قصر ابن عباد ، كتب ألفونسو الى المعتمد زاريا عليه يقول : « كثر بطول مقامى فى مجلسى الذباب ، واشتد على الحر ، فاتحفنى من قصرك بمروحة أروح بها على نفسى وأطرد بها الذباب عن وجهى » . فوقع له

ابن عباد بخط يده فى ظهر الرقعـــة : « قرأت كتابك وعلمت خيلاءك واعجابك ، وسأنظر لك فى مراوح من الجلد اللمطية تروح منك لا تروح عليك ان شاء الله تعالى » . وتقول الرواية انه لما قرئت هذه الرسالة عليه وعلم مقتضاها أطرق اطراق من لم يخطر له ذلك ببال ، وفشا فى الأندلس توقيع ابن عباد ، وما أظهر من العزيمة على جواز يوسف بن تاشفين .

ولما علم ملوك الطوائف بعزم ابن عباد على دعوة المرابطين وانفراده برأيه فى ذلك هالهم الأمر ، وخشوا العاقبة ، فمنهم من كاتبه ومنهم من كلمه مواجهة وحــذره عاقبة ذلك ، وقال له المخالفون له فى رأيه : ان الملك عقيم والسيفان لا يجتمعان فى غمد ، وعارضه فىهذا الرأى ابنه الرشيد ، فقال له المعتمد كلمته المشهورة : « رعى الجمال خير من رعى الخنازير » ومعناه أن كونه مأكولا ليوسف بن تاشفين أسيرا يرعى جماله فى الصحراء خير من كونه أسيرا عند ألفونسو يرعى له خنازيره فى قشتالة ، وقال المعتمد لعذاله ولوّامه : « انى من أمرى على حالين ، حالة يقين وحالة شك،ولابد لى من احداهما ، أما حالة الشك فانى أن استندت الى ابن تاشفين أو الى الأدفنش ففى الممكن أن يفى لى ويبقى على وفائه ، ويمــكن أن لا يفعــل ، فهذه حالة الشك ، وأما حالة اليقين فانى ان استندت الى ابن تاشفين فانى أرضى الله ، وان استندت الى الأدفنش أسخطت الله تعــالى ، فاذا كانت حالة الشك فيها عارضة ، فلأى شىء أدع مايرضى الله وآتى ما يسخطه ؟ » ولما سمع أصحابه ذلك أمسكوا عن لومه .

ولم يكن المعتمد بطبيعة الحال غافلا عما ينطوى عليه استدعاء المرابطين الى الأندلس من خطر ، وقد رأينا فى الفصل الخاص بعهد المعتضد كيف كان هذا الرجل الباقعة يراقب تقدم حركة المرابطين ، وأنه حين علم بنزولهم رحبة مراكش أمر عامله على الجزيرة الخضراء بأن يزيد عنايته بتحصينها ويكون شديد اليقظة كامل الأهبة ، فما الذى جعل المعتمد يفكر فى استدعائهم ويتناسى تحذير أبيه ؟

يخيل لى أن المعتمد كان يشعر بثقل تبعته فى سقوط طليطلة ، وقد ذكر المؤرخ الألمانى « يوسف اشباخ » فى الجزء الأول من كتابه « تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين» ما معناه : أن المعتمد لم يكن مرتاحا الى تقرب ألفونسو ملك قشتالة من القادر صاحب طليطلة ، وكان يرى أنه لابد من ابعاد هذا الحليف القوى عن بنى ذى النون لما كان بينه وبينهم من عداء مهما كلفه ذلك من عظيم التضحية اذا أراد أن يغنم سيادة اسبانيا المسلمة جميعها ، ووجد المعتمد أنه لو استطاع أن يظفر بصداقة ألفونسو السادس ، وعمل ألفونسو من ناحيته على تهديد طليطلة وشغلها لكان من المحقق أن تنتصر جيوشه على الامارتين الباقيتين ، وهما امارة بنى باديس فى غرناطة ، وامارة بنى الأفطس فى بطليوس ، ولذا وجد أنه لا بد أن يبادر الى عقد تحالف مع ملك قشتالة قبل أن يسبقه اليه أمير آخر ، وكان بين ابن عمار وألفونسو معرفة أكيدة وكان ابن عمار يرمى الى جعل المعتمد يشعر على الدوام بحاجته اليه ، ولذلك لا أستبعد أن

يكون هو الذى حض المعتمد على اتباع هذه السياسة الملتوية وزينها له ، ويقول اشباخ ان ابن عمار نجح فى مهمته حينما أرسله المعتمد لعقد معاهدة مع ألفونسو ، وقد تعهد ملك قشتالة بموجب شروط هذه المعاهدة السرية بأن يعاون أمير اشبيلية بالجند المرتزقة ضد جميع أعدائه المسلمين ، ويتعهد المعتمد فى مقابل ذلك بأن يدفع لملك قشتالة مقادير كبيرة من المال ، ويتعهد بالأخص بما هو أهم ، وهو ألا يعترض مشروع ألفونسو فى الاستيلاء على طليطلة ، وهذا من غير شك خطأ خطير تورط فيه المعتمد باغراء ابن عمار على الأرجح ، وأقول على الأرجح لأن الأمير عبد الله الزيرى صاحب غرناطة يحدثنا فى مذكراته عن خطأ تورط فيه المعتمد باغراء ابن عمار يشبه ذلك ويقاربه ، فهو يروى لنا [1] أن ألفونسو أرسل اليه رسوله يطلب منه ضريبته » فاجتمع رأينا على أن لا نفعل ، وأن ضرر ألفونس لا يخشى وغيرنا أمامنا ، نعنى بذلك ابن ذى النون ، ولم نقس أن أحدا يعاقده على مسلم ، فانصرف عنا دون عمل وأن ابن عمار انتهز هذه الفرصة ، وكان منتظرا له بباغه ، مرتقبا لما يصنع معنا ، فلما رأى أنه لم يتم له عمل ألقى يده فيه على المقام ، وقال له : « ان كنتم منعتم عشرين ألف دينار (وهى التى سأل عن ضريبته) فنحن نعطيكم خمسين ألفا ، على أن نعاقدكم على غرناطة ، تعطونا القاعدة ، ولكم ما فيها من

(١) مذكرات الأمير عبد الله الزيرى المسماة بكتاب التبيين صفحة ٦٩/٧٠ .

الأموال » فعاقدوه على ذلك . واتفق رأيهم على أن يبنوا على غرناطة معقلا يضيق عليها حتى تلقى بيدها ، وكان ابن أضحى ، قد انحاش اليهم يدلهم على عورات البلدة ، ويريهم أشد ما يكون عليها من المواضع اذ بنى ، ويجعل فيها ندبا للضرب والتضييق ، فأراهم حصن بليلّش ، وأكرى ابن عمار من عسكر ألفونسو ما قوى به على البنيان بأعداد من الأموال الجسيمة يسوّفهم فيها تارات ويخادعهم حتى تم البنيان ، وجعل المعتمد يحاول ذلك بنفسه ، ويبرز أبدا على مقربة من غرناطة مدة كونه طمعا فى أن يقوم معه أهل البلدة ، فلما تم بنيانه قوّاه بالندب واتخذ فيه جميع الأقوات ، وأمرهم بالتضييق وكانت الحال شديدة » .

ويقول الأمير عبد الله فى موضع آخر من مذكراته (١) :
« وبقى ابن عمار مرتهنا بما جعل على نفسه للنصرانى من كراء بليلّش فى تبعات كثيرة وجرايات جسيمة يقطعها له ، ويعده بها ، وأدخل سلطانه من ذلك فى تشغيب ، لأنه كان لا يريد أن يجعله يخلد الى راحة لكى يحتاج اليه فى تلك الفتنة لا يقر عن ادخال ضرر على المسلمين ، ومتى ما كان المعتمد يسعى فى تهدين الأمر ، ونروم معه الصلح أو تنشأ مهادنة لا ينام فى نقضها واشعال نار الفتنة » . ويقول عن ابن عمار : « كان للمعتمد

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله صفحة ٧٢ .

طاعة فى معصية واشتهر بأخذ عرضه وهجوه بما نزهه الله عنه فعل الأوغاد والأرذال » .

وواضح مما نقلته من مذكرات الأمير عبد الله ومن أشياء أخرى فى مذكراته أنه كان يرى أن ابن عمار هو الذى كان يوجه سياسة المعتمد هذا التوجيه السيىء وهو الاستعانة بالملك ألفونسو على أضرابه من ملوك الطوائف ، وقد أظهر طغيان ألفونسو بعد استيلائه على طليطلة للمعتمد خطأ تلك السياسة ومقدار اساءتها لقضية العنصر العربى الاسلامى فى الأندلس مما أثار نخوته وجعل ضميره يؤنبه .

وسابق علاقات ملوك الأندلس المسلمين بيوسف بن تاشفين أمير المرابطين كانت لا تبعث على الايغال فى سوء الظن بل لعلها كانت توحى اليهم بعض الطمأنينة ، فصاحب النفح روى لنا (١) أنه حينما ملك يوسف المغرب وبنى مدينتى مراكش وتلمسان الجديدة ، وأطاعته البربر مع شكيمتها الشديدة وتمهدت له الأقطار التى بسط عليها سلطانه ، تاقت نفسه الى العبور لجزيرة الأندلس ، فهم بذلك ، وأخذ فى انشاء المراكب والسفن ليعبر بها ، ولما علم بذلك ملوك الأندلس كرهوا المامه بجزيرتهم ، وأعدوا له العدة والعدد ، ولكنهم أدركوا مع ذلك صعوبة مدافعته ، وكرهوا أن يكونوا بين عدوين الفرنج عن شمالهم والمسلمين عن جنوبهم ، وكانت الفرنج تشتد وطأتها عليهم ،

---

(١) الجزء السادس من نفح الطيب صفحة ٨٦ .

وتغير وتنهب ، وربما يقع بينهم صلح على شيء معلوم كل سنة يأخذونه من المسلمين ، والفرنج ترهب ملك المغرب يوسف بن تاشفين اذ كان له اسم كبير وصيت عظيم ، لنفاذ أمره وسرعة تملكه بلاد المغرب وانتقال الأمر اليه فى أسرع وقت ، مع ما ظهر لأبطال الملثمين من بطولة فى المعارك ، ولذلك كان ملوك الأندلس يحذرونه خوفا على ملكهم ، فلما رأوا ما دلّهم على رغبته فى العبور اليهم راسل بعضهم بعضا يستنجدون آراءهم فى أمره ، وكان مفزعهم فى ذلك الى المعتمد بن عباد لأنه أشجع القوم وأكبرهم مملكة ، فوقع اتفاقهم على مكاتبته لما تحققوا أنه يقصدهم يسألونه الاعراض عنهم ، وأنهم تحت طاعته ، وكتب عنهم كاتب من أهل الأندلس كتابا يقول فيه : « أما بعد فانك ان أعرضت عنا نسبت الى كرم ، ولم تنسب الى عجز ، وان أجبنا داعيك نسبنا الى عقل ولم ننسب الى وهن ، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا ، فاختر لنفسك أكرم نسبتيك ، فانك بالمحل الذى لا يجب أن تسبق فيه الى مكرمة ، وان فى استبقائك ذوى البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت والسلام » .

ولما وصل الكتاب يوسف بن تاشفين مع تحف وهدايا وكان لا يحسن معرفة اللغة العربية ، لكنه كان ذكى الطبع سريع الفهم ، وكان له كاتب يعرف اللغتين : العربية والمرابطية ، فقال له : « أيها الملك هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظمونك فيه ، ويعرفونك أنهم أهل دعوتك ، وتحت طاعتك ، ويلتمسون

منك أن لا تجعلهم في منزلة الأعادى ، فانهم مسلمون وذوو بيوتات فلا تغيّر بهم ، وكفى بهم من وراءهم من الأعادى الكفار ، وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر ، فأعرض عنهم اعراضك عمن أطاعك من أهل المغرب » .

فقال يوسف لكاتبه : « فما ترى أنت ؟ » .

فقال كاتبه : « أيها الملك ان تاج الملك وبهجته شاهده الذى لا يرد ، فانه خليق بما حصل فى يده من الملك والمال أن يعفو اذا استعفى ، وأن يهب اذا استوهب ، وكلما وهب جليلا جزيلا كان لقدره أعظم ، فاذا عظم قدره تأصل ملكه ، واذا تأصل ملكه تشرف الناس بطاعته ، واذا كانت طاعته شرفا جاءه الناس، ولم يتجشم المشقة اليهم ، وكان وارث الملك من غير اهلاك لآخرته ، واعلم أن بعض الملوك والحكماء الأكابر البصراء بطريق تحصيل الملك قال : « من جاد ساد ، ومن ساد قاد ، ومن قاد ملك البلاد » .

فلما ألقى الكاتب هذا الكلام على السلطان يوسف بلغته فهمه وعلم صحته ، فقال للكاتب : « أجب القوم ، واكتب بما يجب فى ذلك ، واقرأ علىّ كتابك » .

فكتب الكاتب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من يوسف ابن تاشفين ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، تحية من سالمكم وسلّم عليكم ، وانكم مما فى أيديكم من الملك فى أوسع اباحة ، مخصوصين منا بأكرم ايثار وسماحة ، فاستديموا

وفاءنا بوفائكم ، واستصلحوا اخاءنا باصلاح اخائكم ، والله ولى التوفيق لنا ولكم والسلام » .

ولما فرغ الكاتب من كتابه قرأه على يوسف بلسانه ، فاستحسنه ، وقرن به ما يصلح لهم من التحف ودَرَق اللمط التى لا توجد الا ببلاده ، وأنفذ ذلك اليهم ، فلما وصلهم ذلك وقرأوا كتابه فرحوا به وعظّموه ، وسروا بولايته ، وتقوت نفوسهم على دفع الفرنج عنهم ، وأزمعوا ان رأوا من الفرنج ما يريبهم أنهم يرسلون الى يوسف ليعبر اليهم أو يمدهم باعانة منه .

ولم يذكر لنا المقرى من أين استقى هذه الرواية ، ولكنها رواية قد يكون لها نصيب من الحقيقة فقد كان خلفاء بنى أمية فى الأندلس شديدى الحساسية بما يحدث فى المغرب لتأمين دولتهم وصيانة ملكهم ، وملوك الطوائف ساروا بطبيعة الحال على هذه السياسة ، وكان الموقف يفرض عليهم على الدوام ترصد أحوال المغرب ومراقبة الحركات التى تنشأ به ، لأن الأندلس كانت شديدة التأثر بما يحدث فيه .

وروى لنا صاحب كتاب الحلل الموشية أن المعتمد بن عباد حينما خلا بابنه الرشيد الذى كان رشحه لولاية العهد فى أعقاب حادثة اليهودى ابن شاليب قال له : « انا فى هذه الأندلس غريب بين بحر مظلم وعدو مجرم ، وليس لنا ولى ولا ناصر الا الله تعالى ، وان اخواننا وجيراننا ملوك الأندلس ليس فيهم ولا يرجى منهم نصرة ولا حيلة ان نزل بنا مصاب أو نالنا عدو وهذا

اللعين الأدفنش وقد أخذ طليطلة من ابن ذى النون بعد سبع سنين وعادت دار كفر ، وها هو قد رفع رأسه الينا وان نزل علينا كما نزل بطليطلة فانه ما يرفع عنا حتى يأخذ اشبيلية ، ونرى من الرأى أن نبعث الى هذه الصحراء وملك العدوة نستدعيه للجواز ليدفع عنا هذا الكلب اللعين اذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا فقد تلف لجاؤنا وتدبرت بل تبردت أجنادنا وأبغضتنا العامة والخاصة » .

ولما أجابه ابنه الرشيد قائلا : « يا أبت أتدخل علينا فى أندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا » .

فأجابه المعتمد : « أى بنى والله لا يسمع عنى أبدا أنى أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى فتقوم علىّ اللعنة فى منابر الاسلام مثلما قامت على غيرى » .

فقال له ابنه : « يا أبت افعل ما أمرك الله » .

فقال المعتمد : « ان الله لم يلهمنى الا هذا وفيه خير وصلاح لنا ولكافة المسلمين » .

وواضح من هذه الروايات أن المعتمد تدبر الموقف وفكر فى شتى الاحتمالات ، ووجد أنه لا بد له من الخضوع لاحدى القوتين ، قوة ألفونسو أو قوة المرابطين ، وقد حرق سفنه مع ألفونسو فلم يبق له الا الارتماء فى أحضان المرابطين .

ولما استقر المعتمد على هذا الرأى خاطب جاريه المتوكل عمر بن محمد صاحب بطليوس وعبد الله بن حبّوس الصنهاجى صاحب غرناطة يأمرهما أن يبعث كل واحد منهما قاضى حضرته ،

ففعلا ، ثم استحضر قاضي الجماعة فى قرطبة أبا بكر عبيد الله بن أدهم ، وكان يعد من أعقل أهل زمنه ، فلما اجتمع القضاة عنده باشبيلية أضاف اليهم وزيره أبا بكر بن زيدون ، وعرّفهم — أربعتهم — أنهم رسله الى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، وأسند الى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف وترغيبه فى الجهاد ، وأسند الى ابن زيدون ما لا بد منه فى تلك السفارة من ابرام العقود السلطانية .

وكان يوسف على بيّنة من سوء الأحوال فى الأندلس ، فقد كانت تفد عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين مجهشين بالبكاء ، ناشدين الله والاسلام ، مستنجدين بفقهاء حضرته ، ووزراء دولته ، وكان يستمع اليهم ، ويصغى لقولهم ، وترق نفسه لهم .

ولما انتهت الرسل الى سدة يوسف أقبل عليهم وأكرم مثواهم ، والظاهر أن يوسف وهو رجل مجرب بعيد النظر فى عواقب الأمور رأى قبل أن يبت فى الأمر أن يعرف شيئا عن طبيعة الأندلس من الناحية الحربية ، وأن يستشير أصحابه وخاصته فى الموضوع ، وكان كاتبه عبد الرحمن بن أسبط أندلسى الأصل ، فلما استشاره فيما جاء له الوفد شرح له ما يعترض الحرب فى الجزيرة من الأخطار لأن أكثرها فى يد النصارى والجزيرة ذاتها وعرة البسائط تعترضها جبال صعبة المسالك تعوق حركة الفتح السريع ، وأنها يمكن أن تشبه بسجن يندر أن يستطيع الداخلون اليه الخروج منه ، ومن حديثه معه

قوله [1] : « ان كنت جزت اليها ، وحصلت فيها ما يكون لك فى نفسك من شىء ، وهذا الرجل الذى استدعاك ما بينك وبينه عتاب قديم ولا صداقة متصلة » ، وذكر له أنه اذا انتصر على الأعداء قد يقطع عليه الرجل الذى استدعاه طريق العودة الى افريقية وأن هذا جد ميسور ، وأنهى حديثه معه بقوله : « الحال كما ترون والنظر اليكم ، فاكتبوا اليه (أى الى المعتمد) بأنه لا يمكنك الجواز الى أن يعطيك الجزيرة الخضراء فتجعل فيها أثقالك وأجنادك ويكون الجواز بيدك متى شئت » .

وأطلع يوسف اخوته وبنى عمه وقال لهم : « ما ترون فيما كتب به هذا الرجل ؟ » . ويقول مؤلف « الحلل الموشية » انهم كانوا قوما صحراويين ولم يعاينوا قط نصرانيا ، ولا شهدوا حربا الا ما يكون بينهم ، كانوا يريدون أن يغزوا ويدخلوا الأندلس » . فلما استشارهم يوسف فى الأمر صادف ذلك رغبة فى نفوسهم فقالوا له : « أيد الله أمير المسلمين ، أما ما ذكرتم من استغاثة هذا الرجل بكم فواجب على كل مسلم يؤمن بالله ورسوله اغاثة أخيه المسلم » .

وأخذ يوسف بنصيحة كاتبه فأثار مع الوفد القادم عليه مسألة الموضع الذى ينزل فيه جنوده ، فاقترح أبو بكر بن زيدون نزولهم فى جبل طارق ، ولكن يوسف فضل الجزيرة الخضراء كما أشار عليه كاتبه ، فأجابه مندوب المعتمد أنه ليس له

---

(١) الحلل الموشية .

من السلطة ما يجيز له البت فى هذا الطلب ، فلم يسترح يوسف لهذا الرد ، ووعد الوفد وعودا غامضة فعاد الوفد أدراجه وهو لا يدرى أوفق فى مهمته أم أخفق ، وفى رواية أخرى أنه لما طلب يوسف من المعتمد تسليم الجزيرة الخضراء قال له ابنه الرشيد : « يا أبت ألا تنظر الى ما طلب » فأجابه المعتمد : « يا بنى هذا قليل فى حق نصرة المسلمين » . ومهما يكن من أمر هاتين الروايتين فان رجال الدين أفهموا يوسف أن مجاهدة الافرنج عليه فريضة فاستنفر حشوده واستكمل أهبته ورحل الى سبتة فأقام بها وأخذ فى تجويز عساكره حتى لم يبق منهم أحد وجاز فى اثرهم ، وسرعان ما وجدت الجزيرة الخضراء أنها محفوفة بالجند وطلب الجيش المرابطى تسليم المدينة وكان حاكمها الراضى ابن المعتمد فلم يحبس عن الجيش المؤونة ولكنه استعد للمقاومة حتى يرد عليه أمر التسليم من والده ، وأرسل اليه كتابا بالحمام الزاجل يخبره بواقع الأمر ، ولم يجد المعتمد بدا من النزول على أمر يوسف اذ لم يكن يستطيع التراجع بعد أن قطع شوطا بعيدا فى التفاهم مع يوسف ، فبادر مسرعا الى ارسال الأمر لابنه بتسليم المدينة للجيش المرابطى وأخلى الراضى المدينة وانسحب الى مدينة رندة ، ولما دخل يوسف الجزيرة الخضراء قوّى حصونها وشحنها بالذخيرة والطعام والحرس وجعلها قاعدة حصينة ، وتقدم المعتمد للقائه ومعه أعيان دولته على مرحلة من الجزيرة الخضراء ، ولما اقترب من محلة يوسف ركض نحو القوم وركضوا نحوه فبرز اليه يوسف وحده والتقيا منفردين .

وتصافحا وتعانقا وأظهر كل واحد منهما المودة والخلوص ، وتواصيا بالصبر والرحمة ، وتضرعا الى الله فى أن يجعل ذلك خالصا لوجهه مقرباً اليه .

وفى احدى الروايات أن المعتمد أراد أن يترجل عن جواده وأن يقبل يد يوسف فمنعه يوسف من ذلك وبادر الى معانقته وسأله عن حاله وانبسط معه فى الحديث ، وهنَّأه ابن عباد بسلامة الوصول ، وفى رواية المراكشى أن المعتمد سأل يوسف دخول اشبيلية ــ دار ملكه ــ ليستريح فيها أياما حتى تزول عنه وعثاء السفر ، ثم يقصد قصده ، فأبى عليه يوسف وقال : « انما جئت ناويا جهاد العدو ، فحيثما كان العدو توجهت » .

ويقول الحميرى فى الروض المعطار : « ان يوسف عاد لمحلته ، ولحق بابن عباد ما كان أعده من هدايا وتحف وألطاف ، وباتوا تلك الليلة وأشار ابن عباد على يوسف بالتقدم الى اشبيلية ففعل ، ورأى الناس من عزة سلطانه ما سرهم ، ولم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس الا من أعان وخرج وأخرج ، فحضر حفيدا باديس الأمير عبد الله صاحب غرناطة وأخوه الأمير تميم صاحب مالقة ، وكان الأول يقود ثلثمائة فارس والثانى جاء على رأس مائتى فارس ، وأرسل المعتصم صاحب المرية كتيبة من الفرسان يقودها أحد أبنائه وأبدى أسفه ليوسف على عجزه من الحضور لأن المسيحيين فى حصن لبيط يهددون بلاده ويضطرونه الى البقاء للدفاع عنها .

وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف فى كل صقع من أصقاعه رابطوا وكابدوا .

وكان ألفونسو يحاصر سرقسطة حينما بلغته الأنباء بأن المرابطين جاءوا الى اسبانيا ، واعتقد ألفونسو أن ملك سرقسطة لم يعلم بنزول المرابطين فوعده برفع الحصار اذا دفع له مبلغا كبيرا من المال ، ولكن المستعين صاحب سرقسطة كان قد بلغته الأنباء السارة فامتنع عن دفع المال المطلوب ، فعاد ألفونسو أدراجه الى طليطلة بعد أن أمر قائده ألفارو فانيز وغيره من القواد أن يوافوه بجيوشهم فى طليطلة .

واستنفر ألفونسو أهل بلاده وما يليها وما وراءها واجتمع له من الجلالقة ومن ليون وأشتوريش وقشتالة عدد كبير ، ووفدت فى الوقت نفسه لنجدة النصارى الاسبان سريات من الفرسان من ولايات فرنسا الجنوبية من لانجدوك وبروفانس وبرجونية طامعة فى جنى المغانم من أعداء الدين .

ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم ونشروا أناجيلهم .

وبعث ألفونسو الى المعتمد رسالة يقول فيها [1] : « ان صاحبكم يوسف قد تعنّى من بلاده ، وخاض البحار ، وأنا أكفيه العناء فيما بقى ، ولا أكلفكم تعبا ، أمضى اليكم وألقاكم فى بلادكم ، رفقاً بكم وتوفيرا عليكم » . وقال لخاصته وأهل

(١) نفح الطيب الجزء السادس صفحة ٩٦ .

مشورته : « انى رأيت أنى ان مكنتهم من الدخول الى بلادى فناجزونى فيها وبين جدرها ، وربما كانت الدائرة علىّ يستحكمون البلاد ، ويحصدون من فيها غداة واجدة ، ولكنى أجعل يومهم معى فى حَوز بلادهم ، فان كانت علىّ اكتفوا بما نالوه ، ولم يجعلوا الدروب وراءهم الا بعد أهبة أخرى فيكون فى ذلك صون لبلادى ، وجبر لمكاسرى ، وان كانت الدائرة عليهم كان منى فيهم وفى بلادهم ما خفت أنا أن يكون فىّ وفى بلادى اذا ناجزونى فى وسطها » .

وأخذ يتسقط الأخبار ، ويبث العيون والأرصاد ، وجمع عساكره وحشد جنوده ، وتقدم من طليطلة ، وقال حين نظر الى جنوده وتملكه الزهو والاعجاب والثقة من النصر : « بهؤلاء أقاتل الجن والانس وملائكة السماء » واتجه بجيوشه الى الجهة الغربية من الأندلس ، وكتب الى يوسف كتابا كتبه له بعض غواة أدباء المسلمين يغلظ له فيه القول ويصف ما معه من القوة والعَدد والعِدد ، وبالغ فى ذلك ، فلما وصله وقرأه يوسف أمر كاتبه أبا بكر بن القصيرة أن يجيبه ، وكان كاتبا مفلقاً ، فكتب وأجاد ، فلما قرأه على أمير المسلمين قال : « هذا كتاب طويل » وأحضر كتاب ألفونسو وكتب فى ظهره : « الذى يكون ستراه » وأرسله اليه ، فلما وقف عليه ألفونسو ارتاع له ، وعلم أنه بلى برجل يؤثر العمل على القول .

ولما أتم يوسف استعداده أرسل الى ألفونسو كتابا يعرض عليه الدخول فى الاسلام أو الجزية أو الحرب ، ومن جملة ما فى

الكتاب : « بلغنـــا يا أدفنش أنك دعوت الى الاجتماع بنـــا ، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر فيها البحر الينا ، فقد عبرنا اليك ، وقد جمع الله فى هذه الساحة بيننا وبينك وسترى عاقبة دعائك ، وما دعاء الكافرين الا فى ضلال » .

وتقدم يوسف فى جيشه ، وتأخر ابن عباد لبعض الأمر ، ثم انزعج فى اثره بجيش فيه حماة الثغور ورؤساء الأندلس ، وجعل ابنه عبد الله على مقدمته ، وسار وهو يتفاءل لنفســه مكملا البيت المشهور :

« لا بد من فرج قـــريب يأتيك بالعجب العجيب »
غـــزو عليـــــك مبـــارك فى طيـــه الفتـــح القريب
لله ســـــــيفك انــــه سخط على دين الصليب
لا بـــد من يـــوم يـــكو ن أخـــا له يوم القليب

ووافت الجيوش كلها بطليوس ، فأناخوا بظاهرها ، وخرج اليهم صاحبها المتوكل عمر بن محمد فلقيهم بما يجب من الأقوات والضيافات ، وبذل مجهوده ، واتفقوا على أن يكون المعتمد فى قلب المقدمة والمتوكل بن الأفطس فى ميمنتها ، وأهل الشرق فى ميسرتها وسائر أهـــل الأندلس فى الســـاقة والمرابطون وأهل العـُدْوة كماين متفرقة تخرج من كل جهة عند اللقاء .

وجاءت الأخبار بشخوص ألفونسو ، والتقى الجمعان بمكان على مقربة من بطليوس أسماه المســـلمون « الزلاقة » وأسماه الأفرنج « ساكرالياس » وكان ألفونسو قد تلقى رسالة يوسف التى يدعوه فيها الى الاســـلام أو الجزية فكبر عليـــه الأمر ،

واشتد غضبه ، وقال فى رده ان المسلمين يؤدون له الجزية منذ سنوات وأنه لا يعبأ بمثل هذه العروض المهينة ، وأن جيشه الضخم قادر على انزال العقوبة بأعدائه الذين جهلوا قدرهم وتجاوزوا حدهم .

وكان المعتمد عارفا بأساليب ألفونسو فى المكر والدهاء فأذكى عيونه فى محلات الصحراويين خوفاً عليهم من مكايد ألفونسو ، اذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد ، وجعل يتولى ذلك بنفسه ، حتى قيل ان الرجل من الصحراويين كان يخرج عن طرق محلاتهم لبعض شأنه ، أو لقضاء حاجته ، فيجد المعتمد بنفسه مطيفاً بالمحلة بعد ترتيب الكراديس من خيل على أفواه طرق محلاتهم ، فلا يكاد الخارج منهم يخطىء اذ ذاك من لقاء المعتمد لكثرة تطوافه عليهم .

ولم يبق الا تحديد يوم المعركة حسب ما كان متبعا فى تلك الأيام ، وكانت الطلائع قد جاءت بخبر أن جيش العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم ، وكان يوم الأربعاء فأصبح المسلمون قد أخذوا مصافهم وقام الفقهاء والعُبَّاد يعظون الناس ويحضونهم على الصبر ويحذرونهم الفرار ، وأراد ألفونسو أن يلجأ الى الخديعة فبعث للمعتمد فى يوم الخميس يقول له : « غدا يوم الجمعة وهو عيدكم ، وبعده الأحد وهو عيدنا ، فليكن لقاؤنا بينهما وهو يوم السبت » فعرَّف المعتمد بذلك يوسف ، فقال : « نعم » فقال له المعتمد : « هذه خديعة من ابن

فرذلند ، انما يريد غدر المسلمين ! فلا تطمئن اليه ، وليكن الناس على استعداد له طول يوم الجمعة كل النهار » .

وبات النـــاس ليلتهم على أهبة واحتراس بجميع المحلات ، خائفين من كيد العدو .

وفى أثناء ذلك جاء فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة ألفونسو وسمعا ضوضاء الجيوش واضطراب الأسلحة ، ثم تلاحق بقية الطلائع محققين بتحرك جيش ألفونسو ، وجاءت الجواسيس من داخل محلة ألفونسو يقولون : « استرقنا السمع الساعة فسمعنا ابن فرذلند يقول لأصحابه : « ابن عباد مسعر هذه الحروب ، وهؤلاء الصحراويون وان كانوا أهل حفاظ وذوى بصائر فى الجهاد فهم غير عارفين بهـــذه الجهات ، وانما قادهم ابن عباد ، فاقصدوه واهجموا عليه ، واصبروا ، فان انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده ، ولا أرى ابن عباد يصبر لكم ان صدقتموه الحملة » .

عند ذلك أرسل المعتمد كاتبه ابن القصـــيرة الى يوسف يعرفه باقبال جيش ألفونسو ويستحث نصرته ، ومضى ابن القصيرة يطوى المحلات حتى جاء يوسف فعرّفه بجلية الأمر ، فقال له : « قل له انى سأقرب منك ان شاء الله تعالى » وأمر يوسف بعض قواده أن يمضى بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلة جيش ألفونسو فيضرمها ناراً ما دام جيشـــه مشتغلا بمهاجمة المعتمد .

وانصرف ابن القصـــيرة الى المعتمد ، فلم يصـــله الا وقد

غشيته جنود ألفونسو فثبت المعتمد ، وتلقى الصدمة ولم ينكشف له ، وحميت الحرب بينهما ، ومال ألفونسو على المعتمد بجموعه وأحاطوا به من كل جهة ، فاستحر القتال فيهم وصبر ابن عباد صبرا لم يعهد مثله لأحد ، واستبطأ يوسف وهو يلاحظ طريقه ، وعضته الحرب ، واشتد البلاء ، وأبطأ عليه الصحراويون ، وساءت ظنون أصحابه ، وانكشف بعضهم وفيهم ابنه عبد الله ، وأثخن المعتمد جراحات ، وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت الى صدغيه ، وجرحت يمنى يديه ، وطعن فى أحد جانبيه ، وعقرت تحته ثلاثة أفراس ، كلما هلك واحد قدّم له آخر وهو فى ذلك يضرب شمالا ويمينا ، وتذكر وهو فى تلك الحالة ابنا له صغيراً كان مغرما به تركه باشبيلية عليلا ، اسمه : العلاء وكنيته أبو هاشم فقال :

أبا هاشم هشمتنى الشّفار ... ولله صبرى لذاك الأوار
ذكرت شخصيك تحت العجاج ... فلم يثننى ذكره للفرار

وكان أول من وافى المعتمد من قواد ابن تاشفين داود بن عائشة ، وكان بطلا شهماً فنفّس بمجيئه عن المعتمد ، ثم أقبل يوسف بعد ذلك وطبوله تصدع الجو ، فلما أبصره ألفونسو وجّه اليه معظم جنوده فبادر اليه يوسف وصدمهم بجمعه فردّهم الى مركزهم ، وانتظم به شمل ابن عباد ورأى بوادر الانتصار ، ثم صدقوا جميعاً الحملة فتزلزلت الأرض بحوافر الخيل وأظلم النهار بالعجاج والغبار ، وخاضت الخيل فى الدماء ، وصبر الفريقان صبراً عظيما ، ثم تراجع المعتمد الى يوسف

وحمل معه حملة نزل معها النصر ، وتراجع المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفئتين ، فصدقوا الحملة ، فانكشف الطاغية ، ومر هاربا منهزما ، وقد طعن فى احدى ركبتيه طعنة بقى أثرها بقية عمره ، ولجأ الى تل كان يلى محلته فى نحو الخمسمائة فارس كلهم مكلوم .

وأقبل المعتمد على يوسف فصافحه وهنأه وشكره وأثنى عليه ، وشكر يوسف مقامه وحسن بلائه وجميل صبره .

ولما انحاز ألفونسو بشرذمته جعل ابن عباد يحرض على اتّباعه ومطاردته وقطع دابره ولكن يوسف خالفه فى ذلك وقال له : « لو اتبعناه اليوم لقى فى طريقه أصحابنا المنهزمين راجعين الينا منصرفين فيهلكهم ، بل نصبر بقية يومنا حتى يرجع الينا أصحابنا ويجتمعوا بنا ثم نرجع اليه فنحسم داءه » .

وكان المعتمد يرى أنها فرصة سنحت للقضاء عليه واستعجال هلاكه ، وكان رده على يوسف قوله : « انه ان فرّ من أمامنا لقيه أصحابنا المنهزمون فلا يعجزون عنه » .

ولكن يوسف أصر على رأيه .

ولما جاء الليل تسلل ألفونسو تحت ستاره وهو لا يلوى على شيء ، وكان أصحابه يتساقطون فى الطريق واحداً بعد واحد من أثر جراحهم ، وأغذ السير حتى دخل طليطلة .

وشاع ماحدث من اختلاف فى الرأى بين المعتمد ويوسف ، واختلف الناس فى تفسير أسبابه ، فشيعة المعتمد زعمت أن يوسف لم يخف عليه وجه الصواب فى معاجلة العدو واغتنام

فرصة هزيمته للقضاء عليه ، لكنه خاف أن يهلك العدو الذى من أجله استدعى فيقع الاستغناء عنه .

أما شيعة يوسف فقد ذهبت الى أن ابن عباد أراد قطع حبال يوسف من العود الى جزيرة الأندلس .

وقال آخرون : « كلا الرجلين أسرّ حسوا فى ارتغاء ، وان كان ابن عباد أحرى بالصواب » .

والأخبار التى وصلتنا عن المعركة تميل بنا الى ترجيح رأى المعتمد ، وربما كانت طبيعة الحذر والميل الى التحرى وشدة الاحتياط للطوارىء هى التى جعلت يوسف لا يبادر الى مطاردة فلول ألفونسو ، ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف فى وجهة النظر بين الرجلين ، فان الثقة الكاملة لم تكن موفورة بينهما ، واستيلاء يوسف على الجزيرة الخضراء سواء كان عن رغبة صادقة من المعتمد أو أنه أرغم عليه ارغاما وحمل عليه حملا ووجد نفسه فيه أمام الأمر الواقع ، قد ترك فى نفس المعتمد جانبا من سوء الظن .

وكتب المعتمد الى ابنه باشبيلية يقول : « كتابى هذا من المحلة يوم الجمعة الموافى عشرين من رجب ، وقد أعز الله الدين ، ونصر المسلمين ، وفتح لهم الفتح المبين ، وأذاق المشركين العذاب الأليم ، والخطب الجسيم ، فالحمد لله على ما يسرّه وسناه من هذه الهزيمة العظيمة ، والمسرة الكبيرة ، هزيمة اذفونش أصلاه الله نكال الجحيم ، ولا أعدمه الوبال العظيم ، بعد اتيان النهب على محلاته ، واستئصال القتل فى جميع أبطاله

وأجناده ، وحماته وقواده ، حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها ، فلله الحمد على جميل صـــنعه ، ولم يصبنى بحمد الله تعالى الا جراحات يسيرة ألمت لكنها فرجت بعد ذلك وغنمت وظفرت » .

وأرســل يوسف بن تاشفين الرسالة الآتية [1] الى تميم بن المعز بن باديس بالمهدية يصف فيها معركة الزلاقة وجوازه الى الأندلس للجهاد بها وهزيمته لألفونسو ، وقد رأيت نقلها كاملة لأنها وثيقة هامة ، تحوى الكثير من الحقائق التاريخيـــة التى تؤيد رواية صاحب الروض المعطار التى اعتمدت عليهـــا فى وصف المعركة :

« الحمد لله الذى منّ علينا بالاسلام ، وفضلنا بمحمد نبيه عليه السلام ، أحمده حمداً يوجب المزيد من آلائه ، والسبوغ من سرائه ونعمائه .

كان من قضائه جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، ولما أراد قمع المردة الطغاة من زناته وغيرهم فى بلاد المغرب ، سبب الينا منهم المطلب ، فعفونا آثارهم ، وأخلينا منهم ديارهم ، وكذلك نفعل

(١) نقلت هذه الرسالة من المجلد رقم ١٥ من مجلة الأندلس الصادر فى مدريد سنة ١٩٥٠ ويرجع الفضل فى اطلاعى على هذا النص لصديقى العالم المؤرخ الأستاذ أحمد رمزى سفيرنا السابق فى بلچيكا وقد تفضل فأعارنى اياه حينما علم أنى أعد كتابا عن المعتمد بن عباد ويسرنى أن أغتنم هذه الفرصة لأقدم له خالص الشكر على هذه الاريحية بالاصالة عن نفسى ونيابة عن القراء الذين سيجدون فى هذه الوثيقة القيمة ، فوائد تاريخية ومتعة فكرية .

بالقوم الظالمين ، فقوَّمنا هنالك الدين ، ومهدنا بها للمسلمين ، فصفت لنا ضمائرهم ، وخلصت لنا فى الله تعالى نياتهم وسرائرهم ، حتى وصلنا طنجة الركاب وأذقنا بر غواطة سوم العذاب ، ففتح الله لنا وبها ، وهو خير الفاتحين ، وأسرع الحاسبين ، لا اله غيره وهو أرحم الراحمين .

ولما بلغنا من استحواذ النصارى ــ دمَّرهم الله ــ على بلاد الأندلس ومعاقلها ، والزام الجزية لرؤسائها ، واستئصال أقاليمها ، وايطائهم البلاد داراً داراً ، لا يتخوفون عسكرا يخرج اليهم فيبدد جمعهم ، ويفل حدهم ، وهم مع ذلك كله يقتلون الشيب والشبان ، ويأسرون النساء والصبيان ، فخوطبنا عن الجواز الى الأندلس من جميع الأحواز المرة بعد المرة ، وألوتنا الأعذار ، الى وقت الأقدار ، ولم نجد للجواز بابا ، ولا لدخول البحر أسبابا ، فانضم لنا منهم الرئيس الأجلّ المعتمد على الله المولّى بنصر الله ، أحسن الله فى كل الأمور عونه ، وأقرّ بكل صالحة عينه ، فعزمنا على الغزو ، وجوَّزنا للعدو أسودا ضارية ، وسباعا عادية ، شيبا وشبانا بسواعد قوية ، وقلوب فى سبيل الله نقية ، قد عرفوا الحرب وجرَّبوها ، فهى أمهم وهم بنوها ، يتلمظون تلمظ الفهود ، ويزأرون اليها زئير الأسود ، فشحنا منهم القوارب ، وأوسقناهم على ظهور المراكب ، فجزنا فى مرسى الجزيرة الخضراء من دياره وفقه الله .

ففزع الناس من كل أفق اليهم ، ووفدوا من كل قطر عليهم ، متعجبين من هيآتهم ، محتقرين لزيهم ونغماتهم ، لا يروعهم منهم

حاشى الخيل والدرق ، وهم مع ذلك لا ينالون الا بعد جفه الريق ومسح العرق ، وقدّروا أنهم طعم للسيوف وغرض للحتوف ، وهدف للأرماح ونهب للسلاح ، وكل استصغرهم ، والجميع منهم احتقرهم ، وتبلغ الينا أخبارهم وأقوالهم ، وتنتهى الينا أفعالهم ، ثم اتبعناهم جيشاً بعد جيش ، بخيول كالعجول ، عليها الكهول ، وعدد من كل أمرد ، على أجرد ، يتسابقون الى اللقاء فى القضاء ، تسابق الحين والقضاء ، ومع هذا كله ان أهل الأندلس يستبشرون بنصرهم على أيدينا ، وازاحة غمهم بسببنا .

وعساكرنا تتزيد ، وجوازنا يتأكد ، وكان آخر من جازمنا ومعنا قطعة من صنهاجة بنى عمى ، فعسر البحر حينئذ للجواز ، واضطربت منه الأمواج ، فاستصرخت البارى تعالى جده وعظم اسمه ، ان كان فى جوازنا خيرة للمسلمين أن يسهل علينا ، فما استكملت من كلامى حتى سهّل الله المركب ، وقرّب المطلب ، فخرجنا من الحين فى مرسى الجزيرة الخضراء ، والتأم شعبنا مع من جاز من عسكرنا فعملنا على السير .

وكان قد تقدم الينا بالعدوة من قبل الاذفونش أمير النصارى رسالة يخاطبنا فيها بالجواز الينا اذا عجزنا عنه ، وفرقنا منه ، نعطيه المراكب ونسلم اليه الشوانى والقوارب ، ليرد علينا ، ويقاتلنا فى مأمننا ، فلم نلتفت اليه ولا عرجنا عليه .

ووصلنا أيدينا بالرئيس الأجلّ المعتمد على الله ، المؤيد بنصر الله واستوثقنا منه غاية الاستيثاق ، وبنينا معه على اللحاق بهم والورود عليهم ، ونحن فى ذلك كله لما نقل الينا وورد علينا

من رؤساء الأندلس مستبطنين سريرة المخبتين ، لابسين كسوة الصالحين ، وقلوبنا شتى ، حتى لحقنا اشبيلية حضرته ، عمرت ببقائه ، وقد تجمع له من جنوده أعداد ، ومن حشمه وعبيده وخيله ورجله أجناد ، فصرنا الى مدينة بطليوس ، وأقمنا بها أياما ، منتظرين لوفد الرؤساء من جميع أقطار الأندلس ، فأخبرنا وصح عندنا أن كل واحد منهم مشتغل مع قطعة كثيرة من النصارى ، قد تغلبوا على حصونهم ، وأذلوهم فى بلادهم ، وأضعفوهم وقد ينتجعونهم على مرادهم .

فحمدنا الله تعالى ، ودعونا بتيسير المراد ، واستنقاذ العباد فجمعنا عساكرنا ، وسرنا اليه ، وصرنا الى قفل قوربة من بلاد المسلمين ــ صرفها الله ــ فسمع بنا ، وقصد قصدنا ، وورد ورودنا ، واحتل بفنائها منتظرا لنا ، فبعثنا اليه نحضه على الاسلام ، ودخوله فى ملة محمد عليه السلام ، أو ضرب الجزية عليه ، واسلام ما كان من المال والبيوت لديه ، كما أمرنا الله تعالى وبيّن لنا فى كتابه من اعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون ، فأبى وتمرد ، وكفر ونخر ، وعمل على الاقبال الينا وحث فى الورود علينا ، فلحقنا وبيننا وبينه فراسخ ، فلما كان بعد ذلك برزنا عليه أياما ، فلم يجبنا ، فبقينا وبقوا ، ونحن نخرج الطلائع اليه ، وتتابع الوثوب عليه ، وبنينا على الغاية يوم الخميس لاحدى عشرة ليلة خلت لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة .

فلما كان يوم الجمعة ثاليه ، ورد علينا بكتائب قد ملأت الآفاق ، وتقلبت تقلب الحتوف للأحداق ، وقد استلأموا الدروع

للكفاح ، وربطوا فى سوقهم الألواح ، وبطونهم ملأى من الخمور ، يقدرون أن الدائرة علينا تدور ، ونحن فى أخبيتنا صبيحة اليوم المذكور ، كل منا ساه ، وجميعنا لاه ، فقصد أشدهم شوكة وأصلبهم عوداً ، وأنجدهم عديداً ، محلة المعتمد على الله المؤيد بنصر الله ، وفقه الله ، عماد رؤساء الأندلس وقطبهم ، يقدرون أن لا عسكر الا عسكره ، ولا رجال الا رجاله ولا عديد الا عديده ، وداؤود من أصحابنا منا الى ازائه ، فهبطوا اليه لفيفا واحدا كهبوط السيل بسوابق الخيل .

فلما رآهم من كان معه من جنده ، ومن جميع الطبقات الذين كانوا يدخرون من قبله الأموال والضياع استكت آذانهم ، واضطربت أضلاعهم ، ودهشت أيديهم ، وزلزلت أقدامهم ، وطارت قلوبهم وصاروا كركب الحمير ، فرّوا يطلبون معقلا يعصمهم ، ولا عاصم الا الله ولا هارب منه الا اليه ، فلحقوا من بطليوس بالكرْمات لما عاينوا من الأمور المعضلات ، وأسلموه أيّده الله ... وحده فى طرف الأخبية مع عدد كبير من الرجّالة والرماة قد استسلموا للقضاء .

فوثبوا عليه وثب الأسد على الفرائس ، يعظمون الكنائس ، فحبسهم حينا وحده مع من اليه ممن ذكرناه ، وبسطوا منهم الأرض ، ولم يبق من الكل الا البعض ، ولجأ فى الأخبية بعد أن عاين المنية وتخلصه الله بنيته فى المسلمين وبلّغه أمنيته ، بعد أن وقف وقفة بطل مثله ، لا أحد يردّ عليه ، ولا فارس من

فرسانه وعبيده يرجع اليه ، ولا يروعه أحد منهم فيهزم ولا يهابهم فيسأم .

ثم قصدت كتيبة سوداء كالجبل العظيم ، أو الليل البهيم عسكر داؤود وأخبيته فجالوا فيها جولانا ، وقتلوا من الخلق ألوانا ، واستشهد الكل بحمد الله ، وصاروا الى رضوان الله .

ونحن فى ذلك كله غافلون ، حتى ورد علينا وارد ، وقصد الينا قاصد ، فخرجنا من وراء الشعب كقطع اللهب ، بجميع من معنا على الخيل المسومة العراب ، يتسابقن للطعن والضراب ، فلما رأونا ، ووقعت أعينهم علينا ، ظنوا أن الدائرة فينا ولدينا ، وأنا طعم أسيافهم ولفاء أرماحهم ، فكبّرنا وكبر الكل معنا ، مبتهلين لله وحده لا شريك له ، ونهضنا للمنون الذى لابد منه ، ولا محيص لأحد عنه ، وقلنا هذا آخر يومنا من الدنيا فلنمت شهداء .

فحملوا علينا كالسهام ، فثبت الله أقدامنا ، وقوّى أفئدتنا ، والملائكة معنا ، والله ولى النصر لنا ، فولوا هاربين ، وفروا ذاهبين ، وتساقط أكثرهم بقدر الله تعالى دون طعنة تلحقه ، ولا ضربة تثخنه ، وأضعف الرعب أيديهم ، فطعنهم بالسمهرية دون الوخز بالابر ، وضاقت بهم الأرض بما رحبت ، حتى آن هاربهم لا يرى غير شيء الا ظنه رجلا ، وفتكت فيهم السيوف ، على رغم الأنوف ، فوالله لقد كانت تقع على الدروع فتفريها ، وعلى البيضات فتبريها ، وزرق الرجالة منا على خيلهم الرماح ، فشكوهم بها ، فرمحت بهم ، فما كنت ترى

منهم فارساً الا وفرســه واقف على رأسه لا يستطيع الفرار ، الكل يجر عنانه كأنه معقل بعقاله ، ونحن راكبون على الجواد الميمون ، العربى المصون ، السابق اللاحق ، المعد للحقائق ، وما منا الا من له جرابان فيه سـيفان ، وبيدنا الثالث لما عسى أن يحدث من حادث ، فصاروا فى الأرض مجدولين ، موتى معفرين .

وقد تراجع الناس بعد الفرار ، وأمنوا من العثار وتظافروا مع عسكرنا ، وغيرهم ، يقطعون رءوسـهم ، وينقلونها بازاء المحلات حتى علت كالجبال الراسيات ، عدد لا يقدر ومدد لا يجزّر ، والتجريد فيهم ، والأيدى متعاودة لبطونهم ، وستأصلنا أكابرهم ، وحللنا دون أباطيلهم وأمانيهم ، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون .

وانقطع من عسكرهم نحو ألفى رجل أو أقل ، والادفونش فيهم — على ما أخبرنا — وقد أثخنوا جراحا بازاء محلاتهم ، يرتادون الظلام للهروب فى المقـام ، ووالله لقـد كان الفرسان والرجالة يدخلون محلّتهم ، ويعثرون فى أخبيتهم ، وينتهبون أزودتهم ، وهم ينظرون شـزراً ، نظر التيوس على شـفار الجزارين ، الى أن جن الليل وأرخى سـدوله ، فولّوا هاربين وأسـلموا رحائلهم صـاغرين ، فكم من دلاص على البقـاع ساقطة ، وخيول على البطاح رافضة ، وقد ارتبط كل فارس منا الخمسة أفراس أو أزيد ، وأما البغال والحمير فأكثر من ذلك ، وأما الثياب والمتاع فناهيك ، والأسرّة بأوطية الحرير والثياب

والأوبار عدد ليلهم ، ولا يكلون من الانتقال ولا يسأمون من تشريط الأموال .

ولحقوا قورية ، ومنها حيث ألقت رحلها أم قشعم ، فصححنا ضمائرنا ، وأخلصنا للمعتمد على الله نياتنا وسرائرنا بحمد الله غانمين منصورين ، لم يستشهد منا الا الفرقة التى قدّر الله عليها بذلك ، وقدرنا أن الكل منهم هالك ، لقلة معرفتهم ، وجهالتهم بقتال النصارى ، وتراميهم للشهادة ، قدس الله أرواحهم ، وأكرم مثواهم وضريحهم ، وجعل الجنة ميعاداً بيننا وبينهم ، وفقدنا من أكابرنا نحو عشرين رجلا ممن شهرت نجدته فى المغرب ، وانقلب خير منقلب .

ولحقنا اشبيلية حضرته ــ عمرت ببقائه ــ وأقمنا عدة أيام . ورفعنا عنه مودعين ، لا توديع قاطع ، ولا يمنعنا منه متى أحب مانع ، ولحقنا الجزيرة الخضراء ونحن نريد أشياء أسأل الله تمامها وانجازها ، وأن يسهل المراد ، ويوفقنا للسداد ، ومتى تنفس منهم متنفس ، أو رجع الى أحد منهم نفس ، يذكرون ما لقوا . ويتذاكرون ما بقوا ، وسنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم ان كيدى متين ، حتى لا يبقى على أديم الأرض منهم حى ، ولا يحس منهم انسى .

والحمد لله رب العالمين على ما قضى وخوّل وأعطى ، وهذا كله منّاً منه علينا ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، وقائد الغر المحجلين ، الى جنات الله النعيم ، وآله الطيبين ، وسلّم تسليما . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وأقامت العساكر بموضع المعركة أربعة أيام حتى جمعت الغنائم ، وتواردت على يوسف الأنباء من افريقية بوفاة ولده الأكبر أبى بكر سير الذى خلفه فى أثناء غيابه على حكومة مراكش ، فعجّل بالعودة الى افريقية ، وأمّر على عساكره بالأندلس قائده سير بن أبى بكر ، وفى طريق عودته مر باشبيلية وأراح بظاهرها ثلاثة أيام ، وسأله المعتمد أن ينزل عنده فأجابه الى ذلك .

وفى سياق هذه الأحوال المضطربة وغمار هذه الأحداث الجليلة ، ومصير الأندلس الاسلامية معلق بيد الأقدار ، لم ينس المعتمد حبه للشعر ، ولم يعرض عما طبع عليه من الكرم والأريحية ، قصده وهو مع يوسف [1] أبو محمد عبد الله بن ابراهيم عم الحافظ الحجازى صاحب المسهب ، ورفع اليه قصيدة يقول فيها :

لا روّع الله سِرْبا فى رحابهم
وان رمونى بترويع وابعاد
ولا سقاهم على ماكان من عطش
الا ببعض ندى كف ابن عباد
ذى المكرمات التى مازلت تسمعها
أنس المقيم وفى الأشعار كالزاد
يا ليت شعرى ماذا يرتضيه لمن
ناداه يا موئلى فى جحفل النادى

(١) الجزء الخامس من نفح الطيب صفحة ١١٠ .

فلما انتهى الى هذا البيت قال له المعتمد : « أما ما أرتضيه لك فلست أقدر فى هذا الوقت عليه ولكن خذ ما ارتضى لك الزمان » وأمر خادما له فأعطاه ما عاش فى فائدته ، ثم أخذ منه البطاقة المكتوبة بها القصيدة وجعل يجيل النظر والفكر فيها والشاعر مترقب لسماع نقده فقد كان يعرف سمو مكانته فى هذا الشأن ، فلما انتهى الى قوله :

ولا سقاهم على ماكان من عطش

الا ببعض ندى كف ابن عباد

قال له : « لأى شيء بخلت عليهم أن يسقوا بكفه ؟ » . فأجابه الشاعر : « اذن كان يلحقنى من النقد ما لحق ذا الرمة فى قوله : « ولا زال منهلا بجرعائك القطر » وكان طوفان نوح أهون عليهم من ذلك » فتألقت غرة المعتمد وبدت مسرته وقال : « انا لله على أن لم يعنا الزمان على مكافأة مثلك » .

ولما دخل يوسف اشبيلية مع المعتمد أمعن النظر فيها وفى محلها ، وهى من أجمل بلاد الأندلس وأحسنها منظرا ، وفى جانبها قصور المعتمد وأبيه المعتضد فى غاية الحسن والبهاء ، وفيها أنواع ما يحتاج اليه من المطعوم والمشروب والملبوس والمفروش وغير ذلك ، وأنزل المعتمد يوسف فى أحدها ، وتولى من اكرامه وخدمته ما أوسع شكر ابن تاشفين له ، وكان مع يوسف جماعة من أصحاب له ينبهونه على حسن تلك الحال وتأملها ، وما هى عليه من النعمة والاتراف ، ويغرونه باتخاذ مثلها لنفسه ،

ويقولون له ان فائدة الملك قطع العيش فيه بالنعم واللذة كما يفعل المعتمد وأصحابه .

وكان يوسف مقتصداً فى أموره ، وقد ذهب صدر عمره فى شظف العيش ، فأنكر على الذين أخذوا يغرونه بالاسراف وايثار الترف وقال لهم : « الذى يلوح لى من أمر هذا الرجل — يعنى المعتمد — أنه مضيع لما فى يديه من الملك ، لأن هذه الأموال التى تعينه على هذه الأحوال لابد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبدا ، فأخذه بالظلم ، وأخرجه فى هذه الترهات ، وهذا من أفحش الاستهتار ، ومن كانت همته فى هذا الحد من التصرف فيما لا يعدو الأجوفين متى يستجد همة فى ضبط بلاده وحفظها وصون رعيته والتوفير لمصالحها » .

وسأل يوسف عن أحوال المعتمد فى لذاته ، هل تختلف فتنقص عما هو عليه فى بعض الأوقات ؟ فقيل له : « لا ، بل كل زمانه على هذا » .

فقال : « أفكل أصحابه وأنصاره على عدوه ومنجديه على الملك ينال حظا من ذلك ؟ » .

فقالوا : « لا » .

قال : « فكيف ترون رضاهم عنه ؟ » .

فقالوا : « لا رضا لهم عنه » .

فأطرق وسكت ، وأقام أياما عند المعتمد على تلك الحال .

والظاهر أن بعض هذه الأحاديث والملحوظات التى أبداها

يوسف وفريق من صحابته شاعت فى المدينة وتناقلها أهلها ، فهناك رواية [1] تقول انه فى أثناء تلك الزيارة استأذن رجل على المعتمد فدخل وهو ذو هيئة رثة ، وكان من أهل البصائر ، فلما مثل بين يديه قال له : « أصلحك الله أيها السلطان ! وان من أوجب الواجبات شكر النعمة ، وان من شكر النعمة اهداء النصائح ، وانى رجل من رعيتك حالى فى دولتك الى الاختلال أقرب منها الى الاعتدال ، ولكننى مع ذلك مستوجب لك من النصيحة ما للملك على رعيته ، فمن ذلك خبر وقع فى أذنى من بعض أصحاب ضيفك هذا يوسف بن تاشفين يدل على أنهم يرون أنفسهم وملكهم أحق بهذه النعمة منك ، وقد رأيت رأيا ، فان آثرت الاصغاء اليه قلته » .

فقال له المعتمد : « قله » .

فقال له : « رأيت أن هذا الرجل الذى أطلعته على ملكك مستأسد على الملوك ، قد حكم على رفقائه ببر العدْوة ، وأخذ الملك من أيديهم ، ولم يبق على واحد منهم ، ولا يؤمن أن يطمح الى الطمع فى ملكك ، بل فى ملك جزيرة الأندلس كلها لما قعد عاينه من هناءة عيشك ، وانى لمتخيل مثل ذلك لسائر ملوك الأندلس ، وان له من الولد والأقارب وغيرهم من يود له الحلول بما أنت فيه من خصب الجناب ، وقد أردى الأذفونش وجيشه ، واستأصل شأفتهم ، وأعدمك منه أقوى ناصر عليه

(١) نفح الطيب الجزء السادس صفحة ١٠٩ .

لو احتجت اليه ، فقد كان لك منه أقوى عضد وأوفى مجن ، وبعد فانه ان فات الأمر فى الأذفونش فلا يفتك الحزم فيما هو ممكن اليوم » .

فقال له المعتمد : « وما هو الحزم اليوم ؟ » .

فقال : « أن تجمع أمرك على قبض ضيفك هذا واعتقاله فى قصرك ، وتجزم أنك لا تطلقه حتى يأمر كل من بجزيرة الأندلس من عسكره أن يرجع من حيث جاء ، حتى لا يبقى منهم أحد بالجزيرة طفل فمن فوقه ، ثم تتفق أنت وملوك الجزيرة على حراسة هذا البحر من سفينة تجرى فيه له ، ثم بعد ذلك تستحلفه بأغلظ الأيمان ألا يضمر فى نفسه عوداً الى هذه الجزيرة الا باتفاق منكم ومنه ، وتأخذ منه على ذلك رهائن فانه يعطيك من ذلك ما تشاء ، فنفسه أعز عليه من جميع ما يُلْتَمس منه ، فعند ذلك يقتنع هذا الرجل ببلاده التى لا تصلح الا له ، وتكون قد استرحت منه بعد ما استرحت من الأذفونش ، وتقيم فى موضعك على خير حال ، ويرتفع ذكرك عند ملوك الجزيرة . ويتسع ملكك ، وينسب هذا الاتفاق لك الى سعادة وحزم . وتهابك الملوك ، ثم اعمل بعد هذا ما يقتضيه حزمك فى مجاورة من عاملته هذه المعاملة ، واعلم أنه قد تهيأ لك من هذا أمر سماوى تتفانى الأمم ، وتجرى بحار الدم دون حصول مثله » .

وقد راق هذا الكلام المعتمد ، واستصوبه ، فقد رأى من بادىء الأمر فى سلوك يوسف ما يبعث على الريبة ، وينفى الطمأنينة ، ولذلك لم يقاطع الرجل فى أثناء حديثه ، ولم ينهره .

وتركه يقول ما عنده ، ولما انتهى الرجل الى هذا الحد من الحديث انبرى له أحد الندماء الذين كانوا ينهمكون مع المعتمد فى لذاته ، ويتقلبون فى نعمته ، فقال للرجل : « ما كان المعتمد على الله ــ وهو امام أهل المكرمات ــ ممن يعامل بالحيف ، ويغدر بالضيف » .

فقال الرجل : « انما الغدر أخذ الحق من يد صاحبه ، لا دفع الرجل عن نفسه المحذور اذا ضاق به » .

فأجابه النديم : « ضيم مع وفاء خير من حزم مع جفاء » .

وشعر الرجل من سكوت المعتمد ، وامتناعه عن ابداء الرأى بالقبول أو الرفض بأن هناك ما يستوجب التحفظ ومجانبة الصراحة ، فاستدرك الأمر وتلافاه ، وشكر له المعتمد ووصله بصلة .

واتصل الأمر بيوسف من أحد عيونه ، فلم يتلبث فى اشبيلية ، وابتدر الرحيل ، وقدم له المعتمد الهدايا الثمينة والتحف الفاخرة ، ومشى معه يوما وليلة حتى عزم عليه يوسف فى الرجوع ، وكانت جراحاته تثغب ، وتورم كلم رأسه ، فرجع ، وأمر ابنه بالمسير بين يدى يوسف الى فرضة المجاز حتى يعبر البحر الى بلاده .

ولما عاد المعتمد الى اشبيلية جلس يستقبل وفود المهنئين ، وأقبل عليه شعراء بلاطه ينشدونه القصائد التى أعدوها لتهنئته ، والاشادة بموقفه والتنويه ببسالته :

وقد هنأه ابن حمديس بقصيدة يقول فيها :

ليهنىء بنى الاسلام أن أبت سالما
وغادرت أنف الكفر بالذل راغما
كشفت كروبا عن قلوب كأنما
وضعت عليها من هواك خواتما
صبرت لحر الطعن والضرب ذائدا
عن الدين واستصغرت فيه العظائما
رحمناك من وقع الصوارم والقنا
فكان لنا فى حفظك الله راحما
وكم شجة فى حر وجهك لم يزل
لك الحسن منها بالشجاعة واسما

ويشير الى يوسف ورجال المرابطين بقوله :

نقمت على من آسفوك بيوسف
وما زلت ممن خالف الحق ناقما
وآذنت عمار القفار بحربهم
فياقرب ما شقوا اليك الخضارما
بنو الحرب غذتهم لبان ثديِّها
ولم يستطيبوا منه الا العلاقما
يحثون للهيجاء جردا سلاهبا
وينضون فى البيداء بزلا صلادما
اذا طعنوا بالسمهرية خلتهم
ضراغم تغرى بالقلوب أراقما

وان كر منهم ذو لثام مصمم
غدا لفم الهيجاء بالسيف لاثما

ويقول فى ختام قصيدته فى مدح بنى عباد :

حلمتم مراجيحا ، وجدتم أكارما
وسدتم بها ليلا وصلتم ضراغما
سكنتم قلوب العارفين محبة
كما سكن الزهر الزكى الكماكما
نذرت نذورا فاقتضانى قضاءها
ايابك من يوم العروبة سالما
ولما وجدت الوفر أعوز راحتى
سجدت لربى ثم أصبحت صائما

وفى موقف المعتمد يوم الزلاقة يقول الشاعر محمد بن عبادة المعروف بابن الفزاز :

جلبت الى الأعادى أسد غاب
براثنها الأسنة والصفاح
وقفت وموقف الهيجاء ضنك
وفيه لباعك الرحب انفساح
وألسنة الأسنة قائلات
اذا ظهر المؤيد لا براح

***

وقالوا كفه جرحت فقلنا :
أعاديه توافقها الجراح

وما أثر الجــراحة ما رأيتــم
فتـــوهنها المنـــــاصل والرماح
ولكن فاض ســـيل البأس منها
ففيهــا فى مجــاريه انســياح
وقد صحّت وســـحت بالأمانى
وفاض الجــود منهــا والسماح
رأى منـــه أبو يعقـــوب فيهــا
عقـــابا لا يُهــاض له جنــاح
فقــال له لك القـــدح المعــلى
اذا ضربت بمشـــهدك القـــداح

وفى يوم الزلاقة يقول عبد الجليل بن وهبون ، ويشير الى يوسف وحسن بلائه ، وما أظهر المعتمد من اخلاص وولاء ، فى قصيدة مطلعها :

أظن خطوبهــا قالت ســـــلام
فلم يعبس لهــا منك ابتســـام

ومنهــا :

فثار الى الطعان حليف صـــدق
تثـــور به الحفيظـــة والذمام
نمــا فى حمـــير ونمتك لخـــم
وتلك وشـــائج فيهـــا التحـــام
نهجـــن لســـيله نهجـــاً فوافى
وفى آذيّه الطـــامى عـــرام

فهيل به كثيب الكفر هيلا
وكل رقيقة منها ركام

وأصبح فوق ظهر الأرض أرضا
كأن وهادها منه أكام

عديد لا يشارفه حساب
ولا يحوى جماعته زمام

تألفت الوحوش عليه شتى
فما نقص الشراب ولا الطعام

فان ينج اللئيم فلا كحر
ولكن مثلما تنجو اللئام

ويختمها بقوله مادحا المعتمد :

وأنت النعمة البيضاء فاسلم
لنا وليطرد فيك التمام

ويتحدث الفتح فى القلائد عن موقف المعتمد يوم الزلاقة بقوله : « وكان للمعتمد رحمه الله فيه ظهور وغناء مشهور ، جلا متكاثف عجاجه ، وجلا الروم عن غيطانه وفجاجه بعد ما لقى حره ، وسقى أمره ، وكلم العدو يده ، وثلم عدده ، وتخاذل فيه رؤساء الأندلس فلم يعمل لهم فيه سنان ، ولم يكحل جفونهم من قتامه عنان ، والمعتمد يلقى أسنتهم بلبانه وتنثنى الذوابل ولا ينثنى عنانه » .

ورجع يوسف الى المغرب ، وفى نفسه أشياء كثيرة من ملوك الأندلس وأحوالها ، وغير عجيب أن يكون قد أدهشه ما شاهد

فيهـا من مظاهر الترف ، ودلائل الاسراف ، والانطلاق وراء المتع ، ولكنه كان في أثناء وجوده بها يخفى مشاعره ، ويظهر التأفف من الاقامة بجزيرة الأندلس ، ويتشوق الى مراكش ، ويصغّر قدر الأندلس ، ويردد فى أكثر أوقاته قوله : « كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيما قبـل أن نراها ، فلما رأيناها وقعت دون الوصف » . وهو فى ذلك كله على حـد تعبير المراكشي : « يتسر حسوا فى ارتغاء » .

وقد فقد ألفونسو فى معركة الزلاقة زهرة جنده ، وعددا من خيرة رجاله وقواده ، وتخلص أمراء الأندلس من دفع الجزية له وهى التى كانت تثقـل على خزائنهم وتسـتذل نفوسهم ، وتشعرهم بالهوان والضعة ، وقد ترك يوسف بعض جنوده فى حصون غرب الأندلس ، ولذلك أصبح الغرب بمنجاة من غارات ألفونسـو التخريبية ، وعم السرور بلاد الأندلس بهذا النصر الباهر ، واسترد الأندلسيون بعض الثقة بأنفسهم ، وأعجبوا أشد الاعجاب ببسالة يوسف وصلاحه وتقواه وزهده وترفعه ، فانه [1] لما جمعت غنائم معركة الزلاقة عفّ عنها يوسف ، وآثر بها ملوك الأندلس ، وعرّفهم أن مقصـوده انما كان الغزو لا النهب ، ولما رأى ملوك الأندلس منه ذلك استكرموه وأحبوه وشكروا له ، وأظهر أهل الأندلس التيمن بيوسف والتبرك به ، وكثر الدعاء له فى المساجد وعلى المنابر ، ونشأ له الود فى قلوب الأندلسيين ، وبخاصة بين الطبقة الفقيرة الكادحة .

---

(١) وفيات الأعيان الجزء السادس صفحة ١١٦ .

ورغم استيلاء يوسف على الجزيرة الخضراء واختلافه فى الرأى مع المعتمد فى أعقاب الانتصار فى معركة الزلاقة ورفضه متابعة فلول الجيش المنهزم ، فان يوسف قد حرص على ألا تبدر منه بادرة تسوء أحدا من ملوك الطوائف أو تثير الشبهة فى موقفه منهم وتبعث على سوء الظن به ، وقد حرص بوجه خاص على اظهار الود والاعظام والاجلال للمعتمد بن عباد ، وكان لا يتردد فى التصريح بقوله عن ابن عباد (١) : « انما نحن فى ضيافة هذا الرجل وتحت امرته ، وواقفون عند ما يحده » . ولم يحدث بعد ارتحال يوسف مايكدر صفو العلاقات بينهما ، ومن المحتمل أنهما كانا يتبادلان الرسائل الودية ، ذكر أبو الوليد الشَّقُنْدى فى رسالته عن فضائل أهل الأندلس أن المعتمد كتب الى يوسف بعد انصرافه الى حضرة ملكه رسالة تمثل فيها بقول ابن زيدون :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
شوقا اليكم ولا جفت مآقينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت
سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

فلما قرىء هذان البيتان على يوسف قال للقارىء : « يطلب منا جوارى سوداً وبيضاً » فقال له القارىء : « لا يا مولانا ، ما أراد الا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهاراً ، لأن ليالى السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده ليلا ، لأن ليالى الحزن ليال سود » .

(١) المعجب للمراكشى صفحة ١٣٥ .

فقال يوسف : « والله جيد ، اكتب له فى جوابه : ان دموعنا تجرى عليه ، ورؤوسنا توجعنا بعده » . وليس من المستبعد أن تكون قد تبودلت بينهما رسائل أهم وأبلغ من هـــذه الرسالة التى رأى يوسف أن يعبر فيها عن شوقه لرؤية المعتمد بهـــذا الايجاز الساذج .

(١) الجزء الرابع من نفح الطيب صفحة ١٨١ .

خاتمة ملوك الطوائف

أرغم دخول المرابطين شبه الجزيرة الاسبانية القشتاليين على الانسحاب من بلنسية ، وكانوا أصحاب السلطة الحقيقية فيها ، واضطرهم كذلك الى رفع الحصار عن سرقسطة ، وهزيمة ألفونسو فى الزلاقة كلفته فقدان عدد من الجنود ربما قارب العشرين ألفا ، وأراح الأمراء من دفع الجزية السنوية ، وقد ترك يوسف حاميات من جنده فى حصون الأندلس الغربية فأمن أهل غرب الأندلس هجمات جيوش ألفونسو عليهم ، وقدر الأندلسيون هذه الفوائد الملموسة ، وحمدوا الله لارساله يوسف لخلاصهم فى ساعة استفحال الخطر واشتداد الكرب ، وأصبح اسم يوسف على كل لسان ، وكان لانتصار يوسف فى الزلاقة صدى مدو فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، وأعجب رجال الدين بوجه خاص بتقوى يوسف وتقشفه وميله الى احترام رأى رجال الدين ، واكبار منزلتهم ، والعمل على استشارتهم ، واستماع نصائحهم ، وقد شجعهم ما عرفوه عن حرصه على النزول على رأى علماء الدين على أن يكونوا صرحاء معه ، فقد روى أنه طلب من أهل الأندلس المعونة على ما هو بصدده من مدافعة الاسبانيين ، ووصل كتاب منه بهذا المعنى الى المرية ، وذكر هذا الكتاب أن جماعة من العلماء

أفتوه بجواز طلب ذلك اقتداءً بعمر بن الخطاب ، فكلف أهل المرية قاضيهم أبا عبد الله بن الفراء أن يكتب جوابه ، وكان هذا القاضي قد اشتهر بالدين والورع ، فكتب الى يوسف (1) : « أما بعد فما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة ، وتأخري عن ذلك ، وأن أبا الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس أفتوا بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقتضاها ، وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وضجيعه فى قبره ، ولا يشك فى عدله ، فليس أمير المؤمنين بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا بضجيعه فى قبره ، ولامن لايشك فى عدله ، فان كان الفقهاء والقضاة أنزلوك بمنزلته فى العدل فالله سائلهم عن تقلدهم فيك ، وما اقتضاها عمر حتى دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلف أن ليس عنده درهم واحد فى بيت للمسلمين ينفقه عليهم ، فلتدخل المسجد الجامع هناك بحضرة أهل العلم ، وتحلف أن ليس عندك درهم واحد ، ولا فى بيت المسلمين ، وحينئذ تستوجب ذلك والسلام » . وأكبر الظن أن رجال الدين فى ذلك العصر المضطرب الذى اختلت فيه المعايير المعروف بعهد ملوك الطوائف لم يكن فى وسعهم الاجتراء على ملوكهم بمثل هذه المجابهة العنيفة ، ولكنهم أحبوا يوسف ووجدوا فى حياته المثال الذى يحسن بملوكهم اتباعه ، فلم يقف فى طريقهم مانع عن اسدائه النصح خالصا ، وبيان وجهة نظرهم دون تحرج أو خوف .

---

(1) الجزء السادس من وفيات الأعيان صفحة ١١٨ .

وكان ألفونسو رجلا قوى الشكيمة ، ناهض العزم ، لا تلين قناته للشدائد والهزائم ، فبرغم الخسارة الفادحة التى منى بها لم يعتقد أنه خسر كل شىء ، ولم يستول عليه اليأس من استرجاع ما فقد ، فأخذ فى ترميم بناء جيشه واعادة تنظيمه ، ولم يكن الانتصار فى الزلاقة على لمعانه وجلالة شأنه انتصاراً حاسما ، وأبى القشتاليون على الأقل أن ينظروا اليه من هذه الناحية ، ورأوا أنهم لا يستطيعون فى أحوالهم الراهنة حينذاك أن يهاجموا بطليوس أو اشبيلية ، لأن الهجوم على النواحى الغربية من الأندلس لم يكن اذ ذاك مأمون العواقب ، فوجهوا هجومهم على النواحى الشرقية ، وكانت على الدوام أضعف وأكثر تعرضاً للهجوم من النواحى الغربية ، وكان القشتاليون يمتلكون فى الشرق حصن لبيط ، وهو حصن أشب يعز على من رامه ويطول فى موضع هام من الناحية الحربية بين مرسية ولورقة ، وكان القشتاليون يشنون منه الغارات المتوالية على النواحى المجاورة ، ويوقعون الرعب فى قلوب أهلها ، وقد استطاعوا وهم مستندون الى هذا الحصن محاصرة المرية ولورقة ومرسية ، ولولا ما اتخذ من اجراءات سريعة للدفاع عن هذه المدن لسقطت جميعها فى أيديهم .

وكان المعتمد يعرف شدة الخطر الذى يتهدد هذه المدن الشرقية ، وأكثرها فى حوزته ، وكان يمقت ابن رشيق الذى استولى على مرسية بعد أن خرج منها ابن عمار ، ولذلك أعد المعتمد حملة كبيرة لرد غارة القشتاليين من ناحية ، واخضاع

ابن رشيق من ناحية أخرى ، وضم الى جنده الجند الذين أعاره اياهم يوسف قبل ارتحاله من الأندلس .

وخرج المعتمد من اشبيلية قاصدا لورقة ، وأراد أن يعهد الى ابنه الراضى بالخروج فى عسكر جرده لمواجهة جيش العدو الذى جاء قاصدا مهاجمة لورقة ، فأظهر الراضى التمارض وكان محبا للاطلاع والدرس ، ميالا للأدب والشعر مثل أبيه ، فغضب المعتمد لتقاعده عن مقاساة الحرب فأعرض عنه وأهمل شأنه ، ووجّه ابنــه المُعتد" على رأس ذلك الجيش ، وعندما التقى الجيشان واشتبكا فى القتال لم يثبت الأندلسيون بالرغم من أن عددهم كان أضعاف عدد القشتاليين ، ولاذوا بالفرار ، وغضب المعتمد غضبا شديدا لهذه الهزيمة الشنعاء التى منى بها جيشه ، ولم يغن الغضب عنه شــيئا ، كما عجز جيشـــه عن الوقوف للجيش القشتالى القادم على لورقة كذلك لم يتمكن من أخذ مرسية وخلع ابن رشيق الخارج عليه من ولايتها ، وعاد أدراجه الى اشبيلية دون أن يظفر بشيء ، وأراد ابنه الراضى أن يهون عليه الخطب ويسترضيه فأرسل اليه الأبيات الآتية :

لا يكرثنك خطب الحادث الجارى
فما عليــك بذاك الخطب من عار
ماذا على ضــيغم أمضى عزيمتــه
ان خانه حــد أنيــاب وأظفــار
لئن أتَوْكَ فمن جبن ومن خَوَر
قد ينهض العير نحو الضيغم الضارى

عليك للنـــاس أن تبقى لنصرتهم
وما عليـــــك لهم اسـعاد اقدار

لو يعلم الناس ما فى أن تدوم لهم
بكوا لأنك من ثوب الصـبا عار

ولو أطاقوا انتقاصــا من حياتهم
لم يتحفوك بشيء غير أعمـــــار

ولكن المعتمد كان لا يزال غاضبا عليه لتقاعده عن اطاعة أمره والخروج لمحاربة العدو وايثــاره المطالعة على المقارعة ، وتمادى فى اعراضه عنه حتى عطفه عليه الحنو الأبوى فكتب اليه هازلا ساخرا :

المـلك فى طى الدفاتر	فتخل عن قود العســاكر
طـف بالسرير مسـلما	وارجع لتـوديع المنـابر
وازحف الى جيش المعا	رف تقهـر الحبر المغامر
واطعـن بأطـراف اليرا	ع نصرتـ فى ثغرالمحابر
واضرب بسـكين الدوا	ة مكان ماضى الحـد باتر
أو لست رسطاليس ان	ذكر الفلاسـفة الأكابر
وكذاك ان ذكـر الخليـــــل	فأنت نحوى وشـاعر
وأبو حنيفـة سـاقط	فى الرأى حين تكون حاضر
من هرمس من سـيبويـه	من ابن فورك[1] ان تناظر
هـذى المكارم قد حويـت	فكن لمن حاباك شاكر

(١) هو محمد بن الحسن بن فورك واعظ عالم بالكلام والأصول من فقهاء الشافعية حدث بنيسابور وبنى فيها مدرسة وله تآليف كثيرة .

واقعد فانك طاعم كاس وقل : هل من مفاخر
فحجبت وجه رضاى عنك وكنت قد تلقاه سافر
أو لست تذكر وقت لو رقة وقلبك ثم طائر
لا يستقر مكانه وأبوك كالضرغام خادر
هلا اقتديت بفعله وأطعته اذ ذاك آمر
قد كان أبصر بالعواقب والموارد والمصادر

وقد جرى المعتمد فى نظم هذه الأبيات على طريقته فى الاستعانة على مغالبة غضبه بالسخرية اللاذعة ، وقد أثرت هذه الأبيات فى الراضى ، ودفعته الى أن يجيب عنها بقوله :

مولاى قد أصبحت كافر بجميع ما تحوى الدفاتر
وفللت سكين الدواة وظلت للأقلام كاسر
وعلمت أن الملك ما بين الأسنة والبواتر
والمجد والعلياء فى ضرب العساكر بالعساكر
لا ضرب أقوال بأقوال ضعيفات المكاسر
قد كنت أحسب من سفاه أنها أصل المفاخر
فاذا بها فرع لها والجهل للانسان غاذر
لا يدرك الشرف الفتى الا بعسال وباتر
وهجرت من سميتهم وجحدت أنهم أكابر
مولاى ان تسخر فلا عار بنا ان كنت ساخر
ضحك الموالى بالعبيد اذا تؤمل غير ضائر
لو كنت تهوى ميتتى لوجدتنى للعيش هاجر
ان كان بى فضل فمنك وهل لذاك النور ساتر

أو كان بى نقص فمــــــنى غير أن الفضـــل غامر
ذكرت عبــدك ســـاعة يبقى لهـــا ما عاش ذاكر
يا ليتـــه قد غيبتـــه عندها احـــدى المقـــابر
أتريد منى أن أكـــو ن كمن غدا فى الدهر نادر
هيهـــات ذلك مطمـــع يعيى الأوائل والأواخر
لا تنس يا مـــولاى قو لة ضارع لا قول فاخـــر
ضبط الجـــزيرة عندما نزلت بعقوتها العســـاكر
أيام ظلت بهـــا فريـــدا ليس غـــير الله ناصر
اذ كان يغشى ناظـــرى لمع الأســـنة والبواتر
ويصم أســـماعى بها قرع الحجـــارة بالحوافر
وهى الحضيض ســـهولة لكن بها ثبت مخـــاطر
هبنى أســـأت كما أســـأ ت أما لهـــذا العتب آخر
هب زلتـــى لبنوتى واغفـــر فان الله غافر

وقد أحسن الراضى فى هذه القصيدة الاعتذار عن خطئه ، فطابت نفس المعتمد ، وصفح عنه وقربه وأدناه بعد هذا الدرس الحكيم الذى قوم به اعوجاجه ، ورد اليه صوابه .

وكان معنى هزيمة جيش المعتمد وتمادى القشتاليين فى شن الغارات المتوالية من حصن لبيط ، أنه حتى بعد الانتصار الرائع فى الزلاقة ، وجـــد الأندلســيون أنفسهم عاجزين عن مدافعة القشتاليين ، وأنهم اذا لم ينجدهم يوسف ، ويخف الى مساعدتهم فان الموقف يصبح كما كان قبل وقعة الزلاقة وتأخذ أحوالهم فى البوار ، وتصير قضيتهم خاسرة وموقفهم باعثا على اليأس .

وقدر أهل بلنسية ولورقة ومرسية حروجة الموقف ، وكثرت شكواهم من غارات حامية لبيط ، وكان الفقهاء فى طليعة الشاكين المتذمرين ، واجتمعت الآراء على أن خلاصهم مما يعانون مرتهن بيد يوسف ، وذهب كثيرون منهم الى قصره فى مراكش ، وأخذوا يبثونه شكواهم وآلامهم ، ويستثيرون حميته للدفاع عن الدين ، ولكنهم تبينوا من معاريض حديثه ، أنه لم يعد العدة للعودة الى الجهاد فى الأندلس الا اذا استدعاه الأمراء .

وكان المعتمد قد بدأ يشعر من جديد بحاجته الشديدة الى الاستعانة بيوسف ، وهذا الشعور صرف عنه الارتياب الذى كان قد داخله من ناحيته ، فعقد العزم على الذهاب الى يوسف ليوضح له حقيقة الحال ، ويتبادل معه وجهات النظر ، وتحرك المعتمد فى خاصته وعبر البحر الى يوسف ، فتلقاه يوسف بالداخلة على وادى سيوا بالترحيب والاكرام وقال له : « ما السبب الذى دعاك الى الجولة الينا وهلا كتبت » . فقال له المعتمد : « جئتك احتسابا واجتهادا واعتصاما للدين ، وقد أجرى الله الخير على يديك ، وحظك مما جئت الأوفر ، وقد اشتد ضرر النصارى على حصن لبيط وعظم أذاه للمسلمين لتوسطه فى بلادهم ، ولا جهاد أعظم منه أجرا ولا أثقل فى الميزان » .

وأفضى اليه المعتمد بسوء الحالة فى الأندلس ، وتعرض مدنها الشرقية للغارات الشعواء ، وانه اذا عاونهم فى الاستيلاء على

حصن لبيط المنيع ، فسيكون قد أنقذهم من شر مستطير ، وأدى للاسلام أجل خدمة ، وأتم جميله على أهل الأندلس ، وأنه قد تولى انقاذهم فى المرة الأولى ، وانهم يتطلعون الى انقاذه لهم فى هذه المرة كذلك استكمالا لانتصاره فى معركة الزلاقة .

وعنى يوسف بما سمعه من المعتمد ، وتلقى مقصده بالقبول ، ووعده بالحركة والجواز وأكد له ذلك ، وعاد المعتمد الى حاضرته اشبيلية ، وتقدم الى كل طبقة من أهل مملكته بالاستعداد ، وأكثر من أعمال السهام والعرادات وما الى ذلك من الآلات اللازمة للحرب والحصار ومهاجمة الحصون والقلاع ، ثم أخذ يتطوف على مملكته ويطالع أحوال عماله ورعيته وتوجه الى شرقى الأندلس ، فلما دانى أول بلاد المعتصم بن صمادح صاحب المرية[1] خرج اليه المعتصم فى وجوه أصحابه ، وتلقاه لقاءً نبيلا ، وعزم عليه ليدخلن بلاده ، فأبى المعتمد ذلك وبعد طول المراودة اتفقا على أن يجتمعا فى أول حدود بلاد المعتصم وآخر حدود بلاد المعتمد وكان بينهما خلاف قديم ومنافسة سابقة ، فاصطلحا فى الظاهر واحتفل المعتصم فى اكرامه، وأظهر من الآلات السلطانية والذخائر الملوكية المعدة لمجالس الأنس ما ظنه مكمداً للمعتمد مثيرا لغمه ، وكانت ولاية المعتصم ضيقة الرقعة قليلة الجباية ، ولذلك كان قديم الحسد للمعتمد ، كثير النفاسة عليه ، وجرت بينهما فى بعض الأوقات مراسلات غير ودية ، وكان المعتصم يعيب المعتمد فى مجالسه وينال منه ،

---

(١) المعجب للمراكشى صفحة ١٣٦ .

والمعتمد يترفع عن ذلك ولا يقابله بالمثل ، وقد رأى المعتمد أن يتجاوز عن ذلك كله ويتناساه ، واعتقد أنه بهذه الزيارة يستخلص مودته ويكسب صداقته ، وقد افترقا بعد أن أقام المعتمد فى ضيافته ثلاثة أسابيع ، ورجع الى بلاده وهو يعتقد أن مابينه وبين المعتصم قد أصبح عامراً .

ولما أتم يوسف أهبته عبر المضيق ، ونزل بالجزيرة الخضراء وتلقاه المعتمد على عادته ، وأنفذ يوسف كتبه الى ملوك الأندلس يستدعيهم للجهاد معه والموعد حصن لبيط ، واجتاز على مالقة واستنفر صاحبها المستنصر بالله تميم بن بلقين ، وتلاحق به عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، وتوافى رؤساء الأندلس من شقورة وجيان وغيرهما من مدن الأندلس ، ولقيه المعتصم بن صمادح بهدايا فاخرة وتحف جليلة ، وتلطف فى خدمته وبالغ فى التودد اليه حتى قرّبه يوسف أشد تقريب ، وصار يقول لأصحابه عن المعتصم والمعتمد : « هذان رجلا الجزيرة » . وكان من أكبر أسباب تقريب يوسف للمعتصم ثناء المعتمد عليه عند يوسف ووصفه اياه عنده بكل فضل .

وحاصرت الجيوش المتحالفة حصن لبيط ، واتصلت الحرب على الحصن ليلا ونهاراً ، وكان عدد المدافعين من الحصن ألف فارس واثنى عشر ألفا من المشاة ، ومع ذلك لم تنجح الجيوش المتحالفة فى الاستيلاء عليه بالرغم مما بذلت من جهد وأعدت من آلات للحصار ، وكانت حامية الحصن تنقض عليهم من الحين الى الحين فتكبدهم خسائر فادحة ، وأثبت الحصن مناعته ، ورأى

المتحالفون أنه لا أمل فى اقتحامه بالهجوم العاصف ، وأن ليس فى طوقهم سوى احكام الحصار وتجويع الحامية .

وكان الملوك والأمراء المحاصرون قد اشتغلوا فى أثناء ذلك بما بينهم من خلافات وأصبح معسكرهم وكرا للدسائس وتدبير المؤامرات ، وكشفوا ليوسف عن جوانب من أخلاقهم جعلته يستصغر شأنهم ويشك فى امكان التوفيق بينهم ، وكان ممن وصل من رؤساء الأندلس ابن رشيق المستولى على مرسية ، والثائر بها على المعتمد ، والظاهر أن المعتمد حاول تسوية خلافه مع ابن رشيق الذى استبد بالأمر فى مرسية بعد خروج ابن عمار منها ولم يعترف بتبعيتها للمعتمد ، ولكن لم يتم التفاهم بينهما ، وكانت حجة ابن رشيق أن المعتمد لم يقدمه لمرسية وأن الذى قدمه ابن عمار ، واضطر المعتمد الى أن يشكو ابن رشيق الى يوسف ، وذكر له اعتداءه عليه وأنه دفع جباية مرسية للطاغية ألفونسو ، فعرض يوسف أمرهما على الفقهاء واستفتاهم فى هذا الخلاف ، فجاء حكم الفقهاء مؤيدا لوجهة نظر المعتمد ، فأمر يوسف بالقبض على ابن رشيق وتسليمه للمعتمد بوصفه ثائرا على أميره ، ولكن يوسف فى الوقت نفسه نهى ابن عباد عن قتله ، وأعمل ابن رشيق الحيلة ، وهرب من قبضة المعتمد ، وانتزى بمرسية ، ومنع الميرة عن الجيش المحاصر وغضب له أنصاره وشيعته فتخلوا عن موقفهم من الحصار المضروب حول الحصن ونكصوا على أعقابهم .

وكانت العلاقات بين المعتمد وابن صمادح صاحب المرية قد

تحسنت قبل قدوم يوسف الى الأندلس ، واطمأن اليه المعتمد ووثق به ، ولكن ابن صمادح عاوده حسده القديم للمعتمد وحقده عليه ، فلما اشتد تمكنه من يوسف ورأى عظيم مكانته عنده بدا له أن يغير قلبه على المعتمد ، وأن يفسد ما بينهما ، وجعل يقرر عنده عجب المعتمد بنفسه ، وفرط كبريائه ، وأنه لا يرى أحدا نظيرا له .

ولم يكن المعتمد يعلم شيئاً من ذلك ، وكان يصارح المعتصم بما فى نفسه حينما يخلو أحدهما الى الآخر ، فلما قال المعتصم يوما للمعتمد : « لقد طالت اقامة هذا الرجل بالجزيرة » — يقصد يوسف — أجابه المعتمد قائلا : « لو عوجت له اصبعى ما أقام بها ليلة واحدة لا هو ولا أصحابه ، وكأنك تخاف غائلته ... وأى شيء هذا المسكين وأصحابه . انما هم قوم كانوا فى بلادهم فى جهد من العيش ، وغلاء من السعر ، جئنا بهم الى هذه البلاد نطعمهم حسبةً وائتجاراً ، فاذا شبعوا أخرجناهم عنها الى بلادهم ! » ... الى أمثال هذا الكلام ، وقد أوغر ذلك صدر يوسف ، ولم يدر المعتصم بذلك أنه : « ساقط فى البئر الذى حفر » . كما يقول المراكشى [1] .

وجعل أمراء الأندلس يوسف حكما فى خلافاتهم ، وكان كل واحد منهم يكيل التهم للآخر ، ويقول الأمير عبد الله وهو يتحدث عن حضور يوسف للأندلس فى هذه المرة [2] « وكانت

---

(١) المعجب صفحة ١٣٧ .

(٢) مذكرات الأمير عبد الله صفحة ١٠٩ .

تلك سفرة أخرج الله فيها أضغان سلاطين الأندلس » . وتقدم ليوسف الأمير تميم بن بلقين صاحب مالقة أخو الأمير عبد الله صاحب غرناطة بالشكوى من أخيه ، وأخذ قاضى غرناطة أبو جعفر بن القليعى يكثر من الوقوع فى الأمير عبد الله عند يوسف حتى ساء به ظنه وشك فى ولائه .

واقتنع يوسف فى خلال ذلك بأنه لا يتأتى أخذ الحصن الا بالمطاولة ، وأقبل الشتاء ووجد الحلفاء المحاصرون للحصن أنهم فى ضيق وعناء كما استصرخ أهل الحصن سلطانهم ، فأخذ فى الاستعداد وحشد الجيوش ، وبلغ ذلك يوسف ، فرأى التوسعة عن الحصن والتأهب للقاء جموع ألفونسو والتوى أن يستلحم لها ، ولكنه غير رأيه ، وأغلب الظن أن سبب ذلك كان شكه فى اخلاص الأندلسيين ، وخوفه من أن يغدروا به أو ينهزموا عنه حينما يشتبك جيشه فى المعركة مع جيش ألفونسو ، ولعله قدر كذلك أنه اذا تقدم للقاء ألفونسو فانه قد يقع فى الكماشة بين الجيش المهاجم والحامية المحصورة فى حصن لبيط ، وظهر ليوسف من ناحية أخرى أن غرض ألفونسو هو اخلاء الحصن واخراج من فيه وانقاذ حاميته ، ولذلك رأى أن الأسلم عاقبة هو الانسحاب الى لورقة ، وهكذا أنقذ حصن لبيط .

ورأى ألفونسو أن هذا الحصن على مناعته واقع فى بلاد المسلمين ، وأن الدفاع عنه غير ميسور دون حامية كبيرة ، وأن هذه الحامية معرضة للحصار وقطع المؤونة عنها ، لذلك آثر

اخلاءه ، بعد هدم أسواره ، وعاد الى طليطلة حاملا الأسلاب والغنائم .

وقد تحقق الغرض الذى جاء من أجله يوسف الى الأندلس فى هذه المرة ، وأصبح حصن لبيط فى أيدى المسلمين ، ولكن بطريقة غيرمشرفة ، واحجام يوسف عن مواجهة جيش ألفونسو ، كان يحمل فى طيه معنى من معالى الهرب ، ولكن غالبية أهل الأندلس الذين أشرب قلوبهم حب يوسف لم يقبلوا أن ينظروا الى الموضوع من هذه الزاوية .

وكان رجال الدين ناقمين على الأمراء وبطاناتهم لاقبالهم على المتع ، وانغماسهم فى الشهوات ، وتبذيرهم واهمالهم الاستماع الى مواعظهم ، كانوا ينقمون عليهم فرط عنايتهم بابتناء القصور الفخمة ، واقتناء الجوارى الحسان ، وشرب الخمر والانفاق على الشعراء الذين يشيدون بمحاسنهم ويذيعون مفاخرهم ، والتفريط فى واجباتهم الملوكية باعتبارهم مسئولين عن رعيتهم ، وتوفير وسائل الأمن والرخاء لها ، ومصادقتهم فى أكثر الأحايين لملوك النصارى الساعين فى هدمهم واستلاب ملكهم ، على حين كان يوسف لا يقطع فى أمر دون استشارة الفقهاء والأخذ بآرائهم ، والعمل بنصائحهم .

وكانت طبقة العمال والمزارعين وسائر أصحاب الدخول المحدودة ناقمة على الحالة غير مستريحة لسلوك الأمراء ، ولكنها كانت قبل قدوم يوسف لا تنزع الى الثورة ، لأن العدو كان بمرقب ، والثورة فى مثل هذه الحالة تزيد الأمر سوءا ، ولا تؤمن

عواقبها بحال ، فلما جاء يوسف الى الأندلس وجدوا فيه « المخلص » الجديد ، ولم يفكروا فى أن مجىء أمير البربر الى الأندلس قد يعرض بلادهم للهزات الكثيرة الحدوث بالمغرب ، وأن جنوده غير المطبوعة على النظام قد تشيع الفوضى فى بلادهم ، وأنهم سيصبحون خاضعين للبربر الذين كانوا يكرهونهم ويتعالون عليهم ، وشعر رجال الدين أن يوسف ميال الى خلع الأمراء ، وأنه لذلك أعارهم سمعه ، وفتح لهم صدره ، وشجعهم بذلك على المجاهرة بنقد الأمراء ، وتقديم الشكاوى التى تفضح أساليبهم ، وتظهرهم فى عينه بمظهر الطغاة المفسدين ، وأخذوا يغذون مطامع يوسف ، ويؤكدون له أن الدين يأمره بذلك ، ولكى تزول وساوسه قدموا له فتوى تجيز له خلعهم ، وأحلوه من سابق تعهده للأمراء بالابقاء عليهم ، وصيانة ملكهم ، والمحافظة على عروشهم ، ووجد رجال الدين أنهم قد تورطوا مع يوسف الى أقصى حد ، وأن الأمراء الذين كانوا يعرفون مداخلتهم ليوسف واغراءه بهم لن يتوانوا عن الانتقام منهم اذا تخلى عنهم يوسف ، فازدادوا به تعلقا ، ولم يتركوا فرصة تمر دون اقناعه بضرورة القضاء على الأمراء .

وغلب على أفراد الشعب الاعتقاد بأن يوسف سيلغى الضرائب التى أثقل الأمراء بها كاهلهم اذا تم له الأمر وقضى على نفوذ الأمراء وأزال دولتهم ، وقد ألغى يوسف الضرائب فى بلاده ، فكيف لا يعمل مثل ذلك فى بلاد الأندلس ؟

وكان قضاة الأندلس وفقهاؤها قد قدّموا ليوسف طلبا

ذكروا فيه أن من واجبه أن يأمر أمراء الأندلس بالخضوع لأحكام الدين ، وأن يكفوا عن فرض ضرائب أخرى جديدة ، وتسلح يوسف بهذا الطلب ، واعتمد على فتوى العلماء ، وأمر الأمراء بالغاء الضرائب التى يفرضونها على رعيتهم .

ورجع يوسف الى مراكش : « وفى نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد » . كما يقول المراكشى [1] ، ويسمى المؤرخون مجيئه الى الأندلس فى هذه المرة بالجواز الثانى وكان ذلك فى سنة ٤٩١ هجرية ، وقد كان يوسف فى المرة الأولى يتظاهر بأنه جاء غازيا فى سبيل الله ، وأنه زاهد فى الأندلس وليس له فيها مطمع آخر ، وألها خيبت ظنه لأنه رآها دون ما كان يتوقع ، ولكنه فى هذه المرة اتجهت أفكاره اتجاها آخر وقال لبعض ثقاته من وجوه أصحابه : « كنت أظن أنى قد ملكت شيئا ، فلما رأيت تلك البلاد صغرت فى عينى مملكتى ، فكيف الحالة فى تحصيلها ؟ » .

ورأى أصحابه أن يشيروا عليه برأى يجعل الاستيلاء عليها ميسورا الى حد كبير ، وأغلب الظن أنهم كانوا مثله يطمعون فى امتلاكها والاستمتاع بخيراتها ، فعرضوا عليه أن يكتب للمعتمد يستأذنه فى وضع رجال من صلحاء المرابطين رغبوا فى الرباط بالأندلس ، ومجاهدة العدو والاقامة ببعض الحصون المصاقبة للروم الى أن يموتوا بها ، وراقت الفكرة يوسف ،

---

(١) المعجب للمراكشى صفحة ١٣٩ .

فكتب بذلك الى المعتمد ، فأذن لهم المعتمد بعد أن وافقه على ذلك ابن الأفطس ، وانما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم مبثوثين بالجزيرة فى بلادها ، فاذا كان أمر من قيام بدعوتهم أو اظهار لملكهم وجدوا فى كل بلد لهم عونا ، فهم شبيهون بمن كان يطلق عليهم فى الاصطلاح السياسى الحديث اسم : « الطابور الخامس » .

وجهز يوسف من خيار أصحابه رجالا انتخبهم ، وأمّر عليهم رجلا من قرابته يسمى بَلُجّين وأسَرَّ اليه ما أراده ، فجاز بلجين البحر الى الأندلس ، وقصد المعتمد ، وقال له : « أين تأمرنى بالكون ؟ » . فوجه المعتمد معه من أصحابه من ينزله ببعض الحصون التى اختارها لهم ، فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه ، وأقاموا هناك الى أن ثارت الفتنة على المعتمد .

وضعف ملوك الطوائف أمام الفونسو وعجزهم عن مدافعته جعل كثيرين من ذوى الرأى فى الأندلس يرون أن اتحاد الأندلس الاسلامية مع امبراطورية المرابطين ، هو الأمل الوحيد فى انقاذ البلاد ، ولكن الطبقة العليا المستنيرة المثقفة لم تكن ترى ذلك ، وكان عندها من الأسباب ما يميل بها الى هذا الاتجاه ، فيوسف لم يكن يحسن اللغة العربية ، وكانت معرفته بها معرفة أولية ، وكان لهذا يعد فى نظر المثقفين من البربر الجفاة الغلاظ ، وقد ظهر فى مواقف كثيرة نقص ثقافته الأدبية ، فحينما سأله المعتمد بعد أن توسط لشعراء الأندلس فى مدحه بعد معركة الزلاقة ، وهو فى اشبيلية يستمع فى قصر المعتمد الى

انشادهم : « أيعلم أمير المسلمين ما قالوه ؟ » . فأجاب يوسف المعتمد قائلا [1] : « لا أعلم ولكنهم يطلبون الخبز ! » . وكان هذا مدى تقديره للشعر ، وفى بلاد ـ مثل الأندلس الاسلامية فى القرن الخامس الهجرى بوجه خاص حافلة بالأدباء والعلماء والشعراء ولأكثر ملوكها وأمرائها وأعيانها مشاركة قوية فى الأدب والعلم ـ يعد هذا تقصيرا ونقصا يزرى فى رأيهم بصاحبه، ولايمكن أن يستسيغوه بسهولة ، وكانت قصور الأمراء والملوك معاهد أدب وميدان سباق للمواهب الأدبية والعلمية ، وكان الأدباء والشعراء والعلماء ينعمون فى ظل رعاية هؤلاء الملوك والأمراء ، ولا يجدون مجالا للشكوى ، لأن هؤلاء الأمراء كانوا يسمحون لهم بمشاركتهم فى ملاهيهم وسويعات أنسهم ومجالس شرابهم ، وكانوا يتيحون لهم الفرص لقرض الشعر والفراغ لتأليف الكتب دون أن يخافوا الفاقة ، أو يخشوا الأذى والاضطهاد أو النفى ، ولذلك كانت تختلف نظرتهم للأمراء عن نظرة رجال الدين وجماعة المتشددين .

فلم يكن ليوسف اذن أنصار من الطبقة الراقية المثقفة يمكن الاعتماد عليهم ، ولكن السواد الأعظم من الأهالى كانوا فى جانبه ، فقد كان التذمر عاما شاملا ، لأن كل مدينة من حواضر الأندلس وقواعدها كان لها بلاطها الذى يسرف فى الانفاق ، وكان دافعو الضرائب لا يشترون بالضرائب الباهظة الأمن

(١) نفح الطيب الجزء الرابع صفحة ١٨١ .

المنشود ، فقد كان الأمراء أضعف من أن يستطيعوا حماية رعاياهم ، ولذلك لم يكن هناك هدوء واستقرار ولا أمن على الحياة والملكية ، والناس فى حيرة لا يعرفون ما يجىء به الغد وما تضمره لهم بطون الغيوب ، ومثل هذه الحالة من الصعب احتمالها ، وغير عجيب أن تكون الطبقات العاملة فى مثل هذه الحالة مترقبة للتحفز والثورة ، ولكن قبل قدوم يوسف لم تلح لهم فرصة للهرب من هذه الحالة ، وقد عبر عن هذا السخط الخفى والتذمر المكنون الشاعر أبو القاسم خلف بن فرج الألبيرى المعروف بالسُّمَيْسِر — الذى يقول عنه صاحب الذخيرة[1] : « كان باقعة عصره وأعجوبة دهره » — فى قوله :

ناد الملوك وقل لهم ماذا الذى أحدثتمُ
أسلمتم الاسلام فى أسر العدا وقعدتم
وجب القيام عليكم اذ بالنصارى قمتم
لا تنكروا شق العصا فعصا النبى شققتم

ولكن الثورة قد تجىء بالأسوأ ، فليس هناك سوى الصبر حتى تعرض الفرصة المناسبة ، وفى هذا يقول الشاعر نفسه :

رجوناكم فما أنصفتمونا وأملناكم فخذلتمونا
سنصبر والزمان له انقلاب وأنتم بالاشارة تفهمونا

ويضرب على هذه النغمة فى قوله : فى الشماتة بالأمراء :

(١) الذخيرة لابن بسام القسم الاول المجلد الثانى صفحة ٣٧٣ .

يا مشفقا من خمول قوم ليس لهم عندنا خلاق
ذلوا وقد طالما أذلوا دعهم يذوقوا الذى أذاقوا

ولما رأى السميسرى الأمير عبد الله صاحب غرناطة يعمل على تحصين المدينة بعد أن ساء ظنه بنيات أمير المرابطين قال فيه :

صاحب غرناطة سفيه وأعلم الناس بالأمور
قد شاد بنيانه خلافا لطاعة الله والأمير
يبنى على غمسه سفاها كأنه دودة الحرير

والسميسرى يعبر عن موجة السخط التى غلبت على الناس فى هذه الفترة وضيقهم بأمرائهم ، ومجىء يوسف جعل الثورة بالأمراء ممكنة ، فهو رجل قوى عادل وملك عظيم النفوذ مبسوط السلطان ، وقد انتصر فى الزلاقة على المسيحيين انتصارا باهراً بعد أن هرب من الميدان وحر الطعان رجال الأندلس ، وسينتصر انتصارات أخرى اذا ثبتت قدمه فى الأندلس وألقت مقادتها اليه .

على أن الرغبة فى تغيير الحال كانت تتفاوت قوتها فى الولايات المختلفة ، ففى غرناطة كانت رغبة الأهالى من عرب وأندلسيين قوية فى الخلاص من أميرها المستضعف البربرى الأصل ، ولكن فى البلاد التى كان يحكمها المعتمد لم يكن التململ كثير الانتشار ، فكرم المعتمد وسماحة نفسه وسجاحة خلقه وكراهته للوشايات والدسائس ، كانت تميل بأهل مملكته الى قبول حكمه والاغضاء عن عيوبه الأخرى ، مثل الافراط فى

الشراب والميل الى اللهو والاستمتاع ، وفى المرية كان المعتصم ابن صمادح محبوبا مشهورا بميله الى تحرى العدل وحسن معاملة الرعية والترفق بها وذلك على جانب مواهبه الأدبية وتشجيعه للشعراء والعلماء ، ومؤرخو الأندلس يثنون عليه ولا يأخذونه بسوى حسده للمعتمد الذى لم يستطع مغالبته وايغار صدر يوسف عليه بالوشايات التى كان ينقلها اليه ، والتى لم يعلم بها المعتمد الا قبيل عودة يوسف الى مراكش والتى جعلته يرسل اليه بهذين البيتين من الشعر :

يا من تمرس بى يريد مساءتى
لا تعرضن فقد نصحتُ لمَنْدِم
من غرّه منى خلائق سهلة
فالسم تحت ليان مس الأرقم

ولكن كان يوسف مع ذلك أنصار من رجال الدين فى كل ناحية من نواحى الأندلس ، وكان من أشدهم حملة على الأمراء وأكثرهم سعيا فى هدمهم أبو جعفر بن القلاعى قاضى غرناطة ، وكان هذا الرجل عربى الأصل ، ولذلك كان يكره البربر حكام غرناطة لأنهم أعداء أبناء جلدته ، ولم يستطع اخفاء عواطفه ، وكان لا يكف عن التحريض على خلع طاعة الأمير عبد الله صاحب غرناطة ، وقد أدرك باديس جد الأمير عبد الله بثاقب نظره خطر ابن القلاعى[1] فكان لا يدعه فى غرناطة

(١) مذكرات الأمير عبد الله الزيرى صفحة ١١٧ .

ويأمره بسكنى ضيعته لما كان يرى من شره وقدرته على الدواخل ، وقد حضر حصار حصن لبيط وكان خباؤه ملتقى الساخطين على الأمراء ، وقد استغل ميل يوسف الى علماء الدين، وجدّ فى تشويه سمعة الأمير عبد الله عنده ، وكانت له سابق معرفة بيوسف لأنه كان أحد أعضاء الوفد الذى أرسل اليه قبل وقعة الزلاقة ، ولما عاد الأمير الى غرناطة بعد حصار لبيط أفضى الخلاف بينه وبين القليعى الى اعتقاله ، ثم أطلق سراحه فاغتنم الفرصة وهرب من غرناطة ولجأ الى قرطبة ، وشكا الأمير عبد الله الى يوسف ، وزاد فى الطين بلّة كما يقول[1] الأمير نفسه ، وكان هذا الخلاف الشديد بين القليعى والأمير عبد الله من دواعى اتجاه يوسف الى الخلاص من الأمير عبد الله خاصة وأمراء الأندلس عامة ، وقد رأى يوسف أن هؤلاء الأمراء المتباغضين لا يمكن أن تتكون منهم جبهة متحدة لدفع غارات المسيحيين على الأندلس ووقايتها من شرهم ، ولذلك عقد العزم على أن يتولى ذلك بنفسه ، وكان أهل الأندلس بطبيعة الحال يدركون أنه لم ينتصر فى الجواز الثانى انتصارا باهراً مثل انتصاره فى الجواز الأول ، ولكن علماء الدين نشطوا فى اقناع الشعب أن منافسات الأمراء هى سبب ذلك ، وأنه لو كانت قيادة الجيوش الأندلسية فى يده وأمورها اليه لأحرز انتصارا لا يقل لمعانا عن انتصاره فى الزلاقة .

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله الزيرى صفحة ١١٩ .

ويشكو الأمير عبد الله الزيرى فى مذكراته من المعاملة التى عومل بها فى أثناء حصار لبيط ويقول[1] : « ولم أر قط قبل ذلك ذلا ولا كدرا ، فأنكرت الأمور كلها مع السلطان على حسب ما كان يكرمنى سفرة بطليوس ورأيت ضد ذلك كله » . وقد أثارت هذه المعاملة فى نفسه الظنون فلما عاد الى غرناطة « صرف وجهه الى تشييد الحصون وبنيانها واعداد ما يصلح لحصار ان كان » . كما يحدثنا فى مذكراته ، وأعد النبل والعرادات والأقوات ، والظاهر أنه كان يتوقع صراعا بين المرابطين وألفونسو السادس ، ولذلك يقول فى مذكراته[2] : « ان غلب المرابط لم يفتنا الدخول فى طاعته ، وان غلب الرومى كنا منه على حذر » . ولكن يبدو مع ذلك أن باعث هذا الاحتياط والاستعداد كان تخوفه من المرابطين .

ويحدثنا الأمير عبد الله انه[3] حينما حان انصراف الأمراء الأندلسيين من حول حصن لبيط كلموا أمير المسلمين فى عسكر يتركه بالأندلس خوفا من هجوم ألفونسو عليهم فأجابهم يوسف : « أصلحوا نياتكم تكفوا عدوكم » . ويقول ما معناه : ان هذا التصريح أثار مخاوفه ، فان ألفونسو لم يلبث أن أرسل اليه يطلب الجزية ، وهدد وأنذر من يمتنع عن دفعها ، وعاقد

(١) مذكرات الامير عبد الله الزيرى صفحة ١١٤ .
(٢) مذكرات الامير عبد الله الزيرى صفحة ١٢٠ .
(٣) مذكرات الامير عبد الله الزيرى صفحة ١٢٢ .

صاحب سرقسطة ومن يليه من الشرق فدافعوا شره ، ودفعوا له ما سلف له عندهم ، ويقول الأمير عبد الله انه اضطر الى ارضاء ألفونسو باليسير مع معاقدته ألا يقرب له بلدا ، ويعتـذر عن ذلك بقوله : انه لم يكن له قدرة على مدافعته ، وأدرك عبد الله أن هذه المعاقدة ستضر بسمعته عند المرابطين وتدركه تبعاتها ، وذكر ذلك لرسول ألفونسو اليه فقال له : « متى أدرككم فى ذلك منه طلب فعليّ الذب عن مدينتكم » .

ويذكر الأمير عبد الله أنه كتب ليوسف بما وقع وما دفعت اليه الضرورة فى زعمه ، ولكن أمير المرابطين نظر الى المسألة من ناحية أخرى ، وعدّها خيانة من الأمير عبد الله فكتب اليه من رسالة [1] « أما مداهنتك وقولك الباطل فقد علمناه ، وستعلم عن قريب كيف ترضى الرعية ، وما تصنع اذ زعمت أنك نظرت لها ، ولا نسوف فان هذا قريب غير بعيد » .

واعتقد الأمير عبد الله أن القليعى هو الذى أفسد عليه أمير المسلمين ، فتكررت مخاطبته له مبينا حقيقة موقفه شاكيا من تحريض القليعى ، ولكن يوسف كان لا يراجعه الا بالشدة وقبول قول القليعى وأمثاله .

وساءت العلاقات بين الأمير عبد الله والمعتمد ، لأن دخول رسول ألفونسو غرناطة وما دار بينـه وبين صاحبها ، جعلت المعتمد يسىء به الظن ويعتقـد أن هناك اتفـاقا بين الاثنين ،

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله صفحة ١٢٧ .

واتفقت الأقاويل عند يوسف على أن الأمير عبد الله قد انضم الى جانب ألفونسو .

وأثارت هذه المسائل كلها غضب يوسف ، فركب البحر الى الجزيرة الخضراء ، وهذا هو الجواز الثالث ، وكان فى سنة ٤٨٣ هجرية ، ووافاه بها المعتمد وتلقـاه بالتعظيم كمألوف عادته ، واحتفل فى التضييف والتكريم ، وتوالت على يوسف الأخبار من ناحية الأمير عبد الله بما زاد فى غضبه وحقده ، فقصد مالقة واستنزل أخاه تميم بن بلقين ، وتوجه الى غرناطة ، ولما اقترب يوسف من المدينة وعقد عبد الله مجلسا من خاصته للمشاورة فى الموقف نصـحت له والدته بالذهاب للقاء ملك المرابطين . وأكدت له أن ما بينهما من وشيجة الأصـل البربرى ستحمل يوسف على أن يحسن معاملته ، وعمل عبد الله بنصيحتها ولقى يوسف خارج حاضرته ، وترجل له وسـلم عليه ، ودخل معه المدينة ، وسلّم اليه أمورها ، وقد احتمله يوسف وأخاه تميما الى العدوة ، وأسكنهما بأغمات وكان يوسف مطمئنا الى صنيعه فقد [1] أفتاه علماء الدين بجواز خلع ملوك الأندلس وبقتالهم ان امتنعوا .

ويقول الأمير عبد الله فى مذكراته ان أمير المسلمين قبـل مجيئه الى غرناطة قد وعد المعتمد بها وقال له [2] : « أنا رجل

---

(١) الجزء السادس من نفح الطيب صفحة ١٠٦ .
(٢) مذكرات الأمير عبد الله صفحة ١٦٥ .

مغربى ، وليس قدّمنى أخــذ مال ولا بلاد ، وقد ترى ما رفع على صاحب غرناطة ، وما تتوقع عليها من الرومى ، وليس غرضى أكثر من تخليصها ، فاذا صارت فى يدى ، ولا يمكننى امساكها لبين بلاد الأندلس من العَدْوة ، وضــعتها عند ذاك فى يدك . فتكون أعلم بما تصنع بها ، وأقعد لما يصلح المسلمين » .

ومهما يكن نصيب ما ذكره الأمير عبد الله من الحقيقة فان الذى يذكره مؤرخو الأندلس ، أن المعتمد والمتوكل صــاحب بطليوس قدما على يوسف فى غرناطة لتقديم التهنئة لاستيلائه عليها ، وأرسل المعتصم بن صمادح ابنه لينوب عنه فى ذلك ، وخطر ببال المعتمد أن يوسف قد يمنحه غرناطة تعويضا له عن الجزيرة الخضراء التى كانت من أملاكه واستولى عليها المرابطون وعرض المعتمد ليوسف بذلك ، أو استنجزه وعده اذا صحت رواية الأمير عبد الله ، فأعرض يوسف عنه ، وقد قوبل أمراء الأندلس بفتور شديد ، وأمر يوسف بسجن ابن المعتصم .

وكانت هــذه الحوادث كافية لتنبيه الغافلين ، ووضحت لأمراء الأندلس مقاصد يوسف ، وأدركوا أن مصــيرهم مثل مصير الأمير عبد الله وأخيــه تميم ، وانتحل المتوكل والمعتمد الأعذار لسرعة العودة الى أملاكهما ، وأدرك ابن عبــاد الندم على استدعاء يوسف وقال للمتوكل : « والله لا بد أن يسقينا من الكأس التى أســقى بها عبد الله » . وأخذا ينصحان سائر الأمراء الأندلسيين بالاستعداد للدفاع عن أنفسهم ضد المرابطين الذين قد تكشفت نياتهم الخفية ، وأمســك الأمراء عن امداد

المرابطين بالمؤن والرجال ، واعتزموا تكوين حلف مع ألفونسو لدفع خطر المرابطين عن بلادهم .

وعاد يوسف الى الجزيرة الخضراء ، وأبحر منها الى افريقية تاركا مهمة انتزاع عروش الأمراء الأندلسيين لقواده ، وصرّح الفقهاء بأن الساعة الحاسمة لاعلان فتوى صريحة بخلع الأمراء قد حانت ، وذاعت بعد ذلك بمدة قصيرة الفتوى المطلوبة ، وكان مضمونها : أن أمراء الأندلس فجرة فاسقون ، وأنهم ضربوا لرعيتهم أسوأ الأمثال بامعانهم فى الترف وانغماسهم فى اللهو ، وأفسدوا بذلك أخلاق الرعية ، وجعلوا الناس لا يحفلون بأمور الدين وفرائضه ، وأنهم فرضوا على الشعب ضرائب غير مشروعة ، وظلوا مستمسكين بفرضها بالرغم من أن يوسف أمرهم بالغائها ، وأنهم قد بلغ بهم الجور حد التحالف مع ألفونسو عدو الدين ، وأنهم من أجل ذلك غير جديرين بأن يكونوا حكاما لجماعة من المسلمين ، وأن يوسف أصبح فى حل من العهود التى قطعها على نفسه للمحافظة عليهم ، وان عزلهم ليس حقا من حقوقه فحسب ، بل هو واجب يفرضه عليه الدين ، وأنه لو ترك الأمراء على عروشهم لسلموا البلاد للكفرة ، ولم تخل الفتوى من الاشارة الى الرميكية ، واتهامها بأنها قد دفعت بزوجها الى التبذير والامعان فى اللهو ، وقالوا ليوسف فى أحاديثهم معه : « ان كانوا عاهدوك فقد ناقضوك وأرسلوا الى ألفونسو أن يكونوا معه عليك حتى يوقعوك بين يديه ، ويعود أمرهم اليه ، فبادرهم بخلعهم ونحن بين يدى الله المحاسبون ،

فان أذنبنا فنحن لا أنت المعاقبون ، فانك ان تركتهم وأنت قادر عليهم أعادوا بقية بلاد الاسلام الى الروم وكنت أنت المحاسب بين يدى الله تعالى » . ولكى يزيد يوسف قوة هـذه الفتوى طلب اقرارها من فقهاء افريقية ، ثم أرسلها الى كبار علماء مصر وآسيا لكى يقرّوا آراء علماء المغرب فلم يترددوا فى الموافقة على ما جاء بها ، وأرسلوا الى يوسف يحرضونه على الحكم بالعدل ولزوم الطريق القويم واستماع نصائح رجال الدين .

وترك يوسف الأمير سير بن أبى بكر ، أحد قواده المشهورين ، ليقوم بمهمة خلع الأمراء ، وكتب اليه أن يأمرهم بالنقلة والرحيل الى أرض العدوة : « فمن فعل فذاك ، ومن أبى فحاصره وقاتله » . وأوصاه بعدم التعرض للمعتمد الا بعد استيلائه على البلاد .

وفى سنة ٤٨٤ هجرية تحرك يوسف الى سبتة لجواز عساكره الى الأندلس لمنازلة ملوك الطوائف ، وأقام بها مترقبا أنباء الأندلس ، وقسّم سير بن أبى بكر جيشه الى فرق ، فأرسل فرقة لمحاصرة المرية ، وفرقا أخرى لمحاصرة حصون المعتمد ، وكانت أول مدينة من المدن التابعة للمعتمد سقطت فى أيدى الجيش المرابطى مدينة طريف ، وتقدمت جيوش يوسف بعد ذلك تقدما سريعا وحاصرت قرطبة وكان بها الفتح الملقب بالمأمون ابن المعتمد ، ولم تقاوم طويلا ، فقد أسلمها أهلها للمرابطين ، وحاول الفتح أن يشق طريقه بين الأعداء والخونة ولكنهم تكاثروا عليه وقتلوه واحتزوا رأسه ورفع على رمح

وطافوا به فى شــوارع المدينة ، وسقطت بعــد ذلك قرمونة وحوصرت اشبيلية ، وقد اتجه لمحاصرتها جيشـــان ، حاصرها أحدهمـــا من الناحيـــة الشرقية ، وحاصرها الجيش الآخر من الناحية الغربية ، وكان نهر الوادى الكبير يفصل هذا الجيش عن المدينة وكان هناك أسطول للدفاع عن المدينة من هذه الناحية ، وتحرج موقف المعتمد ، وأجمعت على الثورة باشبيلية طائفة ، وأعــلم المعتمد بما انتوته الطائفة المذكورة ، وكشــف له عن مرادها ، وحـُض على التخلص منها ، ولكنه أبى ذلك وكره أن ينهى عهده بقتل جمـــاعة من رعيته ، ودفع اليأس المعتمد الى الاستنجاد بألفونسو وبذل له الوعود المغرية وقبل ألفونسو شروطه وأرسل جيشا يقوده ألفارفانيز . ولكن المرابطين هزموا هذا الجيش على مقربة من حصن المدور ، ووقع هذا الخبر على المعتمد وقوع الصاعقة ، وكان المعتمد كسائر أهل عصره يصدق بالتنجيم والاستدلال بالطوالع ، وكان معه فى اشبيلية منجمه أبو بكر الخولانى، فكانت طوالعه وأحلامه تبعث بعض الأمل فى نفس المعتمد ، وتجعله يعتقد أنه قد تحدث المعجزة لحظة من اللحظات ، ولكن أخذت دلالات الطوالع تسوء وتنذر بوقوع الشر ، ولم يكف الراغبون فى تغيير الحكم باشبيلية عن محاولة الاتصال بالجيش المحاصر ، وتيسير سبيل دخوله الى المدينة ، وكان المعتمد قد فرض عليهم رقابة شديدة اتقاء لشرهم ، ولكن هذه الرقابة لم تكن كافية ، وعرف المعتمد أن ملكه صائر الى الانحلال والزوال ، فترك الأمور فى يد ابنه الرشيد ، واستطاع

الناقمون على عهده احداث ثغرة فى سور المدينة دخل منها بعض المرابطين فى يوم الثلاثاء منتصف رجب سنة ٤٨٤ كما يروى لنا المراكشى ويصف لنا خروج المعتمد من قصره فى ذلك اليوم للدفاع عن حوزته قائلا [1] : « فبرز المعتمد من قصره سيفه بيده ، وغلالته ترف على جسده ، لا دَرَقة له ولا درع عليه ، فلقى على باب من أبواب المدينة يسمى باب الفرج فارساً من الداخلين مشهور النجدة شاكى السلاح ، فرماه الفارس برمح قصير أنابيب القناة ، طويل شفرة السنان ، فالتوى الرمح بغلالته ، وخرج تحت ابطه ، وعصمه الله منه ، ودفعه بفضله عنه ، وصب هو سيفه على عاتق الفارس فشقه الى أضلاعه فخر صريعا ، وانهزمت تلك الجموع ، ونزل المتسنمون للأسوار عنها ، وظن أهل اشبيلية أن الخناق قد تنفس ، فلما كان عصر ذلك اليوم ، عاودهم القوم ، فظُهر على البلد من واديه ، ويئس من سكنى ناديه ، وبلغ فيه الأمل حاسده وشانيه ، وشبت النار فى شوانيه ، فانقطع عندها الأمل والقول ... والتوت الحال أياما يسيرة الى أن ورد الأمير سير بعساكر متظاهرة ، وحشود من الرعية وافرة ، والناس فى خلال هذه الأيام قد خامرهم الجزع ، وخالط قلوبهم الهلع ، يقطعون السبل سياحة ، ويعبرون النهر سباحة ، ويترامون من شرفات الأسوار حرصا على الحياة ، والموفون بالعهد المقيمون على صريح الود ثابتون ، الى أن كان

---

(١) المعجب للمراكشى صفحة ١٤٣/١٤٠ .

يوم الأحد لاحـدى وعشرين ليلة خلت من رجب من السـنة المذكورة ، وهذا يوم الكائنة العظمى والطامة الكبرى ، فيه حم الأمر الواقع ، واتسـع الخرق على الراقع ، ودخل البـلد من واديه ، وأصيب حاضره وباديه ، بعد أن جد الفرسان فى القتال ، واجتهدت الفئتان فى النزال ، وظهر من دفاع المعتمد رحمه الله وبأسه ، وترامیه على الموت بنفسه ، ما لا مزيد عليه ، ولا تناه لخلق اليه » ، وفى ذلك يقول المعتمد بعد أن نزل بالعدوة أسيرا حسـيرا :

لمـا تماسـكت الدموع وتنهنه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسـة فليبد منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضـو ع على فمى السم النقيع
ان تسـتلب عنى الدنا ملكى وتسلمنى الجموع
فالقلب بين ضـلوعه لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطبـا ع أيسلب الشرف الرفيع
قـد رمت يـوم نزالهم ألا تحصـننى الدروع
وبرزت ليس سوى القميـص عن الحشا شيء دفوع
وبذلت نفسى كى يسـيـل اذا يسيل بها النجيع
أجـلى تأخر لم يـكن بهواى ذلّى والخشوع
ما سرت قط الى القتـا ل وكان من أملى الرجوع
شـيم الألى أنا منهم والأصـل تتبعه الفروع

فشنت الغارة فى البلد ، ولم يترك البربر لأحد من أهلهـا سبدا ولا لبدا ، وانتهبت قصور المعتمد نهباً قبيحا ، وأخذ هو

قبضاً باليد ، وجبر على مخاطبة ابنيه : المعتد بالله والراضى بالله وكانا بمعقلين من معاقل الأندلس المشهورة لو شاءا أن يمتنعا بها لم يصل أحد اليهما ، أحد الحصنين يسمى رُنْدة والآخر مارتُلَة ، فكتب اليهما ، وكتبت السيدة الكبرى أمهما مستعطفين مسترحمين ، معلمين أن دم الكل منهم مسترهن بثبوتهما ، فأنفا من الذل ، وأبيا وضع أيديهما فى يد أحد من الناس بعد أبيهما ، ثم عطفتهما عواطف الرحمة ، ونظرا فى حقوق أبويهما المقترنة بحق الله عز وجل ، فتمسك كل منهما بدينه ونبذ دنياه ، ونزلا عن الحصن بعد عهود مبرمة ومواثيق محكمة ، فأما المعتد بالله فان القائد الواصل اليه قبض عند نزوله على كل ماكان يملكه ، وأما الراضى بالله فعند خروجه من قصره قتل غيلة وأخفى جسده » .

ويصف لنا الفتح سقوط قرطبة بقوله (١) : « ولما بدت الفتنة وسال سيلها وانسحب على بهجة الهدنة ذيلها ، نازل المرابطون قرطبة وفيها ابنه المأمون ، وكان أشهر ملوك أوانه خبراً وأيمنهم طيراً ، ... فأقاموا عليها شهوراً وأرخوا من محاصرتها والتضييق عليها ستورا ، يساورونها مساورة الأراقم ويباكرونها بداء من الحصار فاقم ، والمأمون قد أوجس فى نفسه خيفة ، وتوقع منهم داهية مطيفة ، فنقل ماله وأهله الى المدوّر بعد أن حصنه وملأه بالعدد وشحنه ، وأقام بقصر قرطبة

---

(١) قلائد العقيان للفتح بن خاقان صفحة ٢٠ .

مضطربا ، ولأول نبأة مصيخاً ومرتقبا ، الى أن صبحوها يوما لعدة كانت بينهم وبين أهلها فى تسنم أسوارها ، وتقحم أنجادها وأغوارها ، فوقفوا هاربين ، وتشوفوا راهبين ، وأهلها يدعون بشعارهم ، ويتبعون أهواء مردتهم ودعارهم ، وكلهم يبدى تلومه واحجامه ، ويعتقده هولا لا يرى اقتحامه ، الى أن استسهلوا استصعابه ، وتوغلوا شعابه وصمموا الى القصر . وقد علموا قعود الجماعة عن الحماية له والنصر ، فلما أحس بهم المأمون خرج بعدد قليل وحد فليل ، وقد رتبت له بطريقة رصائد ونصبت له فيها مصائد ، علق فيها زمامه ، ورشق اليه منها حمامه ، فانقضوا عليه انقضاض الجارح ، وانصبوا اليه انصباب الطير الى المسارح ، فقطع رأسه وحيز وخيض به النهر وأجيز ، ولما استقر بالمحلة رفع على سن رمح وطيف به فى جوانبها ، وأخيف به قلب مجانبها » .

ويصف الفتح مصرع الراضى فى رندة وهى أحد معاقل الأندلس المنيعة بقوله : « فأناخوا منها على بعد (يقصد جيش المرابطين) وأقاموا من الرجاء بها على غير وعد ، وفيها ابنه الراضى لم يحفل باناختهم بازائه ولا عدها من أرزائه ، لامتناعه عن منازلتهم ، وارتفاعه عن مطاولتهم ، الى أن انقضى فى أمر اشبيلية ما انقضى ، وأفضى أمر أبيه الى ما أفضى ، فحل على مخاطبة ولده لينزل عن صياصيه ، ويمكنهم من نواصيه ، فنزل بأمر أبيه ، وابقاء على أرواح ذويه ، بعد أن عاقدهم مستوثقاً ، وأخذ عليهم عهدا من الله وموثقاً ، فلما وصل اليهم ، وحصل فى

أيديهم ، مالوا به عن الحصن وجرّعوه الردى ، وأقطعوه الثرى حين أودى » .

وقد رثى المعتمد ابنيه المأمون والراضي وكان رأى قمرية نائحة على سكنها وأمامها وكر فيه طائران يرددان نغما :

بكت لم ترق دمعا وأسبلت عبرة
مساءً وقد أخنى على الفها الدهر
بكت لم ترق دمعا وأسبلت عبرة
يقصر عنها القطر مهما همى القطر
وناحت وباحت واستراحت بسرها
وما نطقت حرفا يبوح به سر
فمالى لا أبكى ! أم القلب صخرة
وكم صخرة فى الأرض يجرى بها نهر
بكت واحدا لم يشجها غير فقده
وأبكى لآلاف عديدهم كثر
بنىّ صغير أو خليل موافق
يمزق ذا قفر ويغرق ذا بحر
ونجمان ، زين للزمان ، احتواهما
بقرطبة النكداء أو رندة القبر
غدرت اذن ان ضنّ جفنى بقطره
وان لؤمت نفسى فصاحبها الصبر
فقل للنجوم الزهر تبكيهما معى
لمثلهما فلتحزن الأنجم الزهر

ويصف الفتح المعتمد يوم سقوط اشبيلية فى يد المرابطين بقـوله : « ولما انتشر الداخلون فى البـلد ، وأوهنوا القوى والجلد ، خرج والموت يتسعر فى ألحاظه ، ويتصدر من ألفاظه ، وحسامه يعد بعضائه ، ويتوقد عند انتضائه ، فلقيهم فى رحبـة القصر ، وقد ضـاق بهم فضـاؤها ، وتضعضعت من رحبتهم أعضاؤها ، فحمل فيهم حملة صيرتهم فِرَقا ، وملأتهم فَرَقاً ، وما زال يوالى عليهم الكر ، حتى أوردهم النهر ، ومابهم جواد ، وأودعهم حشاه كأنهم له فؤاد ، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاب ماله ، وذهاب ملكه وارتحاله ، وعاد الى قصره واستمسك به يومه وليلته مانعا لحوزته ، دافعا للذل عن عزته ، وقد عزم على أفظع أمر ، وقال بيدى لا بيد عمرو ، ثم صرفه تقاه ، عما كان نواه ، فنزل من القصر بالقسر ، الى قبة الأسر ، فقيد للحين ، وحان له يوم شر ما ظن أنه يحين ، ولما قيدت قدماه ، وبعدت عنه رقة الكبل ورحماه قال يخاطبه :

اليك فلو كانت قيودك أسعرت
تضرم منهـا كل كف ومعصم
مخافة من كان الرجال بسـيبه
ومن سيفه فى جنـة أو جهنم

ولما آلمه عضه ، ولازمه كسره ورضّه ، وأوهاه ثقله ، وأعياه نقله ، قال :

تبـدلت من عز ظل البنود   بذل الحديد وثقل القيود

وكان حديدى سنانا ذليقا وعضبا رقيقا صقيل الحديد
فقد صار ذاك وذا أدهما يعض بساقى عض الأسود

وهكذا تهاوت حصون المعتمد ومعاقله ، وسقطت قاعدة ملكه ، وانهار بناء الدولة العبادية أقوى دول ملوك الطوائف ، وأوسعها رقعة ، وأبعدها شهرة .

وعجل سقوط اشبيلية بسقوط المرية ، وقد أنقذ الموت صاحب المرية من الوقوع فى الأسر ، فقد حاصر المرابطون المدينة وهو على فراش الموت ، ولما سمع ضجة الجند المحاصر للمدينة قال : « لا اله الا الله ، نغّص علينا كل شىء حتى الموت » . ودمعت عيناه وأنشد جاريته أروى بصوت لم تكد تسمعه :

ترفق بدمعك لا تفنه فبين يديك بكاء طويل

وكان قد أوصى ابنه بركوب البحر والهرب من المرية اذا بلغه خبر سقوط الدولة العبادية ، وعمل ابنه بالوصية ، وركب البحر ونجا ، وسقطت بعد ذلك فى يد المرابطين مرسية ودانية وشاطبة ، وتحولوا بعد ذلك الى بطليوس ، ولم يجد المرابطون مشقة فى الاستيلاء عليها وأسر المتوكل ، وعذب لارغامه على اظهار كنوزه المخبوءة ، وأمر سير بعد ذلك بقتله وقتل ابنيه : الفضل والعباس ؟ وبذلك تم استيلاء المرابطين على الأندلس والقضاء على ملوك الطوائف وأمرائها ما عدا بنى هود فى سرقسطة ، فقد رأى يوسف أن يتركهم باعتبارهم جبهة أمامية بينه وبين الدول المسيحية فى الشمال ، وقد انتزع المرابطون بعد ذلك ملكهم بعد وفاة يوسف .

المعتمد في طريقه إلى المنفى

بعد سقوط اشبيلية جُمع المعتمد وأهله بعد استئصال جميع ماله وحملتهم الجوارى المنشآت فى نهر الوادى الكبير وبحر الظلمات حتى حلّ بالعدوة ، وكان نزوله منها بطنجة ، ويصف لنا شاعره الوفى ، أبو بكر بن اللبانة خروجه من اشبيلية بقصيدة يقول فيها :

تبكى السماء بمزن رائح غاد
على البهاليل من أبناء عباد
على الجبال التى هدت قواعدها
وكانت الأرض منها ذات أوتاد
عريسة دخلتها النائبات على
أساود لهم فيها وآساد
وكعبة كانت الآمال تخدمها
فاليوم لا عالف فيها ولا باد
ياضيف أقفر بيت المكرمات فخذ
فى ضم رحلك واجمع فضلة الزاد
ويا مؤمل واديهم ليسكنه
خف القطين وجف الزرع بالوادى

وأنت يا فارس الخيل التى جعلت
تختال فى عـــدد منها وأعـــداد
ألق السلاح وخل المشرفى فقد
أصبحت فى لهوات الضيغم العادى
لما دنا الوقت لم تخلف له عـــدة
وكل شىء لميقـــــات وميعـــاد
ان يخلعوا فبنو العباس قد خلعوا
وقد خلت قبل حمص أرض بغداد
حموا حـــريمهم حتى اذا غلبوا
سيقوا على نسق فى حبل مقتاد
وأنزلوا فى متون الشهب واحتملوا
فويق دهم لتلك الخيـــل أنداد
وعيث فى كل طوق من دروعهم
فصـــيغ منهن أغـــلال لأجيـــاد
نسيت الا غـــداة النهر كونهم
فى المنشـــآت كأمـــوات بألحاد
والناس قد ملؤا العبرين واعتبروا
من لؤلؤ طافيـــات فـــوق أزباد
حط القناع فلم تســـتر مخدرة
ومزقت أوجـــه تمـــزيق أبراد
حان الوداع فضجت كل صارخة
وصـــارخ من مفـــداة ومن فاد

سارت سفائنهم والنوح يصحبها
كأنها ابل يحـدو بها الحـادى
كم سال فى الماء من دمع وكم حملت
تلك القطـائع من فلذات أكباد

ويقول ابن حمديس فى وصف هذه الحالة :

ولما رحلتم بالنـدى فى أكفكم
وقلقـل رضـوى منكم وثبير
رفعت لسـانى بالقيامة قد دنت
فهذى الجبال الراسـيات تسير

وأقام المعتمد فى طنجة أياما ، ولقيـه بها الحصرى الشاعر وهو من فحول شعراء افريقية فى القرن الخامس وكان قد ارتحل الى الأندلس ، ومدح ملوك الطوائف واستقر أخيرا بطنجة ، وكان قد سبق له أن مدح المعتمد فى اقبال دولته بقصيدة يقول فى مطلعها :

أعن الاغـريض أم البرد ضحك المتعجب من جلدى

وفيها يقول فى مدح بنى عباد والمعتمد :

وبلوت الناس فلست أرى كبنى عبـاد من أحـد
القوم بحار مسـجورا ت محفـوفات بالزبد
أبنى عبـاد ما حسـنت الا بكم الدنيـا فقد
نقـد الكرماء الدهر معى فتخـيركم فى المنتقـد
وقضى لكم بالفضل على من فى أدنى أو فى البُعد
دانت بغـداد لقرطبـة وخلائقهـا للمعتمـد

قرأوا شـعر اللخمى فلم   يرض المعـتز عن الولد
يا فرع المنـذر والنعما   ن بلغت النجم فطل وزد

وكان الحصرى قد ألف للمعتمد كتاب : « المستحسن من الأشعار » فلم يقض بوصـوله اليه الا وهو على تلك الحال ، وقد أضاف الى ذلك الكتاب قصيدة استجدها عند وصـول المعتمد ، ولم يكن عند المعتمد فيما زود به أكثر من ستة وثلاثين مثقالا ، فطبع عليها وكتب معها بقطعة شـعر يعتذر من قلتها ووجه بها اليه ، فلم يجـاوبه الحصرى عن القطعة على سهولة الشعر على خاطره فقد كان ـ كما يؤكد لنا المراكشى ـ أسرع الناس فى الشعر خاطرا فأرسل اليه المعتمد بقطعة يقول فيها :

قل لمن قد جمع العـلـ   ـم وما أحصى صـوابه
كان فى الصـرة شـعر   فتنظـرنا جـوابه
قد أثبنـاك فهـلا   جلب الشـعر ثوابه

وسمع زعانفة الشعراء ومحترفو الكدية بما صنع المعتمد مع الحصرى ، فتعرضوا له بكل طريق ، وقصدوه من كل ناحية ، وفى ذلك يقول المعتمد :

شـعراء طنجة كلهم والمغرب
ذهبوا من الاغراب أبعد مذهب
سألوا العسير من الأسـير وانه
بسؤالهم لأحق فاعجب واعجب
لولا الحيـاء وعزة لخميـة
طى الحشـا ساواهم فى المطلب

قد كان ان سئل الندى يجزل وان
نادى الصريخ ببابه اركب يركب

وللمعتمد فى هذا المعنى :

قبح الدهـــــر فماذا صـــــنعا
كلمــــا أعطى نفيســـــا نزعا
قد هـــوى ظلمـــا بمـــن عادته
أن ينادى كل من يهـــوى لَعَا
من اذا الغيث همى منهمـــــرا
أخجلتــــــه كفــــه فانقطعا
من غمـــام الجـــــود من راحته
عصــــفت ريح به فانقشـــــعا
من اذا قيل الخنــــا صمٌ وان
نطق العـــــافون همسا ســـمعا
قل لمن يطمـــــع فى نائــــله
قد أزال اليـــأس ذاك الطمعـــا
راح لا يملك الا دعـــــوة
جبر الله العفـــــاة الضـــــيعا

وأقام المعتمد أياماً فى طنجة ، ثم نقل الى مدينة مكناسة فأقام بها أشهراً الى أن نفذ الأمر بتسييرهم الى أغمات ، وعتب المعتمد على ابنه الرشيد فى طريقه من مكناسة الى أغمات عتبا أفرط فيه ، فكتب اليه الرشيد يستعطفه :

يا حليف الندى ورب السماح
وحبيب النفـــوس والأرواح

من تمام النعمى على التمــاحى
لمحـــة من جبينك الوضـــاح

قد غنينـــا ببشره وســـناه
عن ضـــياء الصباح والمصـــباح

فأجابه المعتمد :

كنت حِلف الندى ورب السماح
وحبيب النفـــوس والأرواح

اذ يمينى للبـــذل يوم العطــايا
ولقبض الأرواح يوم الــكفاح

وشمالى لقبض كل عنـــان
يقحم الخيل فى مجــال الرماح

وأنا اليـــوم رهن أسر وفقر
مستباح الحمــى مهيض الجناح

لا أجيب الصريخ ان حضر النا
س ولا المعتفين يوم الســماح

عاد بشرى الذى عهدت عبوسا
شغلتنى الأشجان عن أفــراحى

فالتمــاحى الى العيــون كريه
ولقـــد كان ترنفة اللمــاح

ومدينة أغمات التى نقل اليها المعتمد وأسرته كما يقول ياقوت [1] : « مدينتان متقابلتان ... كثيرة الخير ... وليس بالمغرب فيما زعموا بلد أجمع لأصناف من الخيرات ، ولا أكثر ناحية ولا أوفر حظاً ولا خصبا منها تجمع بين فواكه الصرود والجروم » (أى فواكه الحر والبرد) .

وبين مدينة أغمات ومراكش ثلاثة فراسخ ، وهى فى سفح جبل هناك ، وكانت أغمات كبرى مدن الاقليم قبل انشاء مدينة مراكش سنة ٤٥٤ هجرية ، ويقول عنها الدكتور عبد الوهاب عزام فى كتابه القيم عن المعتمد : « وهى اليوم مزارع وبساتين واسعة كثيرة الثمار ، عذبة المياه وارفة الظلال » .

وواضح أن يوسف بن تاشفين أراد بنقل المعتمد الى أغمات أن يكون قريبا من رقابته حتى يأمن جانبه ، ويطمئن من ناحيته، فهى قريبة من قاعدة ملكه ، وبعيدة عن بر العدوة ، ويصعب على المعتمد أن يجد بها سبيلا الى الهرب ، أو طريقا الى الثورة ورفع راية العصيان .

---

(١) نقلت هذا النص من كتاب الدكتور عبد الوهاب عزام عن المعتمد بن عباد صفحة ٥٩ .

المعتمد في المنفى

أقام المعتمد فى أغمات أسـيرا قد ضـيّق عليه ، كاسف البال ، كسير القلب ، يسام سوء المعاملة ، ويتجرع مر الهوان ، وتزدحم على خواطره الهموم ، وتطوف به ذكريات ملكه السابق ومجده السالف ، وليس الى جانبه صاحب ولا خدين يفضى اليه بآلامه ومواجعه ، ويطارحه الحديث الذى يرفه به عن نفسه ، ويخفف من أساه ولوعته ، ولكنه مع ذلك كان يتجلد ويتماسك ويتذرع بالصبر ، وكان يؤلمه ويشقيه منظر بناته الناشئات فى ظلال النعيم وهن فى الأطمار يغزلن ليحصلن على القوت ، وكان ينفس عن نفسه بنظم القصـائد المشجية المؤثرة ، ولم تخذله قريحته الخصبة وبديهته الموفقة فى خـلال تلك الأيام المظلمة والسنين العجاف ، وقد دخل عليه بناته السجن فى يوم عيد ، فلما رآهن فى الأطمار الرثة ، وقد بدت عليهن آثار الفاقة وما أصابهن من بؤس وشقاء أنشد :

فيما مضى كنت بالأعيـاد مسروراً
فساءك العيد فى أغمـات مأسورا

ترى بناتك فى الأطمـــار جائعـة
يغزلن للناس لا يملكن قطمــيرا

برزن نحوك للتسليم خاشعة
أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن فى الطين والأقدام حافية
كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
لاخدّ الا ويشكو الجدب ظاهره
وليس الا مع الأنفاس ممطورا
أفطرتَ فى العيد لا عادت اساءته
فكان فِطرك للأكباد تفطيرا
قد كان دهرك ان تأمره ممتثلا
فردك الدهر منهياً ومأمورا
من بات بعدك فى ملك يُسر به
فانما بات بالأحلام مغرورا

وأثر سوء الحال وشظف العيش ورداءة المطعم والمسكن فى صحتهن ، واتفق وفود الوزير الأندلسى أبى العلاء زُهر بن عبد الملك بن زُهر فى مراكش ، وكان قد استدعى لعلاج أمير المسلمين ، فكتب اليه المعتمد يستقدمه لعلاج بعض كرائمه ، ومطالعة أحوالها بنفسه ، وابن زهر اشبيلى الأصل وأحد أفراد أسرة اشتهرت بالأدب والعلم ، فلم يتردد فى تلبية دعوة المعتمد ، وقام بعلاجها على الوجه المرضى ، ورفع قدر المعتمد بالتبجيل ، ودعا له بطول البقاء ، فكتب اليه المعتمد اثر ذلك بالأبيات الآتية :

دعا لى بالبقاء وكيف يهوى
أسير أن يطول به البقاء

أليس الموت أروح من حياة
يطول على الشقى بها الشقاء
فمن يك من هواه لقاء حب
فان هواى من حتفى اللقاء
أأرغب أن أعيش أرى بناتى
عوارى قد أضرّ بها الحفاء
خوادم بنت من قد كان أعلى
مراتبه ــ اذا أبدو ــ النداء
وطرد الناس بين يدى ممرى
وكفهم اذا غصّ الفِناء
وركض عن يمين أو شمال
لنظم الجيش ان رفع اللواء
يعنيه أمام أو وراء
اذا اختل الأمام أو الوراء
ولكن الدعاء اذا دعاه
ضمير خالص نفع الدعاء
جزيت أبا العلاء جزاء بر
نوى برا وصاحبك العلاء
سيسلى النفس عما فات علمى
بأن الكل يدركه الفناء

وقد أشار المعتمد فى هذه الأبيات الى حادثة وقعت لآثر حظياته وأكرم بناته حينما ألجئت الى أن تستدعى غزلا من الناس

تسد بأجرته بعض حالها ، فأدخل عليها فيما أدخل غزل لبنت عريف شرطة أبيها ، وكان يقف بين يديه يزع الناس يوم بروزه ، ولم يكن المعتمد يراه الا فى ذلك اليوم .

وكانت الأحزان التى تتقاذف بنفسه ، وتطغى على خواطره تميل به الى اطالة التفكير فى غِيَرِ الدهر وتقلب الأيام فيعبر عن ذلك فى شعره مثل قوله :

أرى الدنيا الدنيـــة لا تواتى
فأجمل فى التصرف والطـلاب
ولا يغررك منها حســن برد
له علمـــان من ذهب الذهاب
فأولهـــا رجاء من ســـراب
وآخـــــرها رداء من تراب

وتطـوف به الذكريات على قصـوره بالأندلس مثل قصر « المبــارك » وقصر « الزاهى » و « الثريا » و « الوحيـد » ، فيقول :

بكى المبــارك فى اثر ابن عباد
بكى على اثر غـــزلان وآساد
بكت ثريّاه لا غـمّت كواكبها
بمثل نوء الثريا الرائح الغــادى
بكى الوحيد ، بكى الزاهى وقبته
والنهــر والتــاج كل ذله بادى

ماء السماء على أبنـــائه درر

يا لجة البحـــر دومى ذات ازباد

وطلب حين قدومه أغمات من حواء بنت تاشفين خباء عارية ، فاعتذرت بأنه ليس عندها خباء ، فكبر ذلك على نفس المعتمد ، ونظم هذه الأبيات ، وقد أشار فيها الى ذكر يوسف بن تاشفين يوم العروبة :

هـم أوقـــدوا بين جنبيك نارا

أطالوا بها فى حشاك اســـتعارا

أما يخجـــل المجـــد أن يرحلو

ك ولم يصحبوك خباءً معـــارا

فقد قنّعوا المجد ان كان ذاك

وحاشاهم منك خــــزيا وعارا

يقـــل لعينيـــك أن يجعـــلوا

سواد العيون عليكم شـــــعارا

تراهم نسوا حين جزت القفـــا

ر حنينا اليهم وخضـــت البحارا

بعهــــــد لزوم لســـبل الوفاء

اذا حاد من حاد عنهــــا وجارا

وقلـــــبى نزوع الى يوســـف

فلولا الضـــــلوع عليه لطـــارا

وهو هنا يعتب على يوسف ويذكره بسفره اليه وقدومه عليه وما قطع يوسف على نفسه من عهد ، ويبدو أن المعتمد

أحس بما في هـــذه الأبيات من شديد العتب فأتبعها بأبيات في مدح يوسف والاشادة بموقفه يوم الزلاقة :

ويوم العــروبة ذدت العـــدا
نصرت الهدى وأبيتَ الفــرارا
ثبتّ هنـــاك وان القـــلو
ب بين الضـــلوع لتأبى القرارا
ولـــولاك يا يوســف المتّقى
رأينا الجـــزيرة للـــكفر دارا
رأينا الســيوف ضحى كالنجو
م وكالليل ذاك الغبار المثـــارا
فللــــه درك في هـــوله
لقد زاد بأسـك فيه اشـتهارا
تزيد اجـــتراءً اذا ما الــرما
ح عند التنـــاجز زدن اشتجارا
اذا نار حــــربك ضرمتهـــا
حســـبنا الأســـنة فيها شرارا
ســتلقى فعــالك يوم الحســا
ب تَنْتَشِر بالمسك منك انتشارا
وللشـــــهداء ثنـــاء عليك
بحسن مقامك ذاك النهـــارا
وأنهم بك يســـــــــتبشرو
ن ألا تخـــاف وألا تضـــارا

ولم أر فيما قرأته من شعر المعتمد فى المنفى اشارة الى اسم يوسف فى غير هذه الأبيات ، ولعله حاول أن يستميله ويستلين قلبه بالاشادة بموقفه فى يوم الزلاقة ، ولعله حين لم يجد فائدة من ذلك طوى ذكره ، وأمسك عن الاشارة اليه ، وتلقى مصيره صابرا محتسبا ، ويطيل التأمل فى تقلبات الدهر ويقول :

من يصحب الدهر لم يعدم تقلبه
والشوك ينبت فيه الورد والآس
يَمُرّ حينا وتحـــلو لى حوادثه
فقلما جـــرحت الا انثنت تاسو

وكان المعتمد يعرف مكانته فى نفوس الـــكثيرين لسالف أياديه ، وقديم احسانه ، وسابغ كرمه ، ويعلم أن أخبار أسره وسجنه وما حل به من الارزاء ، سيكون لها وقع بالغ فى نفوس كثيرة ، وقد عبر عن هذا الشعور فى قوله :

أنبـــاء أسرك قد طبقـــن آفاقا
بل قد عممن جهات الأرض اقلاقا
سرت من الغرب لاتطوى لها قدم
حتى أتت شرقها تنعـــاك اشراقا
فأحرق الفجع أكباداً وأفئـــــدة
وأغرق الدمع آماقاً وأحـــداقا
قد ضاق صدر المعالى اذ نعيت لها
وقيل ان عليك القيد قد ضاقا

أنّى غلبت وكنت الدهر ذا غَلَب
للغــالبين وللسّــبّاق سـبّاقا
قلت الخطــوب أذلتنى طوارقها
وكان عــزمى للأعداء طــراقا
متى رأيت صروف الدهر تــاركة
اذا البرت لذوى الأخطار أرماقا

وكان كل ما حوله وكل ما يعرض له يذكره بمحنته ، اجتاز عليه فى أسره سرب قطا ، فأثار شــجونه ، وجعله يوازن بين الحرية التى يتمتع بها السرب الطائر وبين ما يعانيه هو من الأسر والضيق والحرمان ، وهو مع ذلك لا يحســدها على حريتها ، ولا ينفس عليها انطلاقها ، وانما يود أن يكون حاله كحالها :

بكيت الى سرب القطا اذ مررن بى
ســوارح لا سجن يعوق ولا كبل
ولم تك ــ والله المعيذ ــ حسادة
ولكن حنينــا ان شكلى لها شكل
فأسرح لا شملى صديع ولا الحشا
وجيع ولا عينــاى يبكيهما ثكل
هنيئــا لهــا ان لم يفرق جميعهــا
ولا ذاق منها البعد من أهلها أهل
وآن لم تبت مثــلى تطير قلوبهــا
اذا اهتز باب السجن أو صلصل القفل

وما ذاك مما يعتريني وانما
وصفت الذى فى جبلة الخلق من قبل
النفسى الى لقيا الحمام تشوق
سواى يحب العيش فى ساقه حجل
ألا عصم الله القطا فى فراخها
فان فراخى خانها الماء والظل

ونعبت غربان بجوار المكان الذى كان أسيرا فيه ، وورد اثر ذلك النبأ بقدوم بعض نسائه عليه فقال :

غربان أغمات لا تعدمن طيبة
من الليالى وأفنانا من الشجر
تظل زغب فراخ تستكن بها
من الحرور ، وتكفيها أذى المطر
كما نعبتن لى بالفأل يعجبنى
مخبرات به عن أطيب الخبر
ان النجوم التى غابت قد اقتربت
منا مطالعها تسرى الى القمر
على ان صدق الرحمن ما زعمت
ألا يروعن من قوسى ولا وترى
والله والله لا نفرت واقعها
ولا تطيرت للغربات بالعور
ويا عقاربها لا تعدمى أبدا
شجا وعقرا ولا نوعا من الضرر

كما ملأتن قلبى مذ حللت بهنـا
مخافة أسلمت عينى الى السهر
ماذا رمتك به الأيام يا كبـدى
من نبلهن ، ولا رام سوى القدر
أسر وعسر ولا يسـر أؤملّه
أسـتغفر الله كم لله من نظـر

وهو مع ذلك صابر لحكم الأقدار ، وقضاء الله ، لا يحمل ضغينة ولا حقـداً وانما يأسى ، لأن العمر عاقه عن سـد خلة المعسرين ، وتفريج هموم المكروبين ، كما عاقه القيد عن حمل السيف وخوض غمار الحروب .

ويذكر ولديه المأمون قتيل قرطبة ، والراضى قتيل رندة ، وابنه سراج الدولة الذى قتـله ابن عكاشة فى قرطبة فتتأجج حسراته وتسيل عبراته فيقول فى رثائهم :

يقولون صبراً ، لا سبيل الى الصبر
سأبكى وأبكى ما تطاول من عمرى
هوى الكوكبان : الفتح ثم شقيقه
يزيد فهل عند الكواكب من خبر
ترى زهرهـا فى مأتم كل ليـلة
تخمّش لهفـا وسطه صفحة البدر
ينحن على نجمـين ، أثكلت ذا وذا
وأصبر ما للقلب فى الصبر من عذر

مدى الدهر فليبك الغمام مصـــابه
بصنويه يعذر فى البكاء مدى الدهر
بعين ســـحاب واكف قطر دمعهـــــا
على كل قبر حلّ فيـــه أخو القطر
وبرق ذكى النــــــار حتى كأنمـــا
يسَعّر مما فى فؤادى من الجمر
أفتح لقـــد فتحت لى باب رحمـــة
كما بيزيدَ الله قد زاد فى أجـــرى
هوى بكما المقــدار عنى ولم أمت
وأدعى وفيا قد نكصت الى الغـــدر
توليتمـــا والســـن بعــد صــغيرة
ولم تلبث الأيام أن صغّرت قدرى
فلو عدتما لاخترتما العود فى الثرى
اذا ألتمــــا أبصرتمـــانى فى الأسر
يعيد على ســـمعى الحديد نشـــيده
ثقيلا فتبكى العـــين بالجس والنقر
معى الأخـــوات الهـــالكات عليكما
وأمكمـــا الثكلى المضرمة الصـــدر
فتبـــكى بدمع ليس للقطر مثــــله
وتزجرها التقوى فتصغى الى الزجر
أبا خـــالد أورثتنى الحـــزن خالدا
أبا النصر مذ ودعت ودعنى نصرى

وقبلكما قد أودع القلب حسرة
تجدد طول الدهر ثكل أبى عمرو

ودخل عليه السجن ولده أبو هاشم وكان أصغر أولاده ، وأحبهم اليه ، وأحظاهم على صغره أو لصغره لديه ، وهو الذى تذكره يوم الزلاقة والحرب متسعرة الأوار ، والمعركة دائرة الأرحاء ، فرأى القيود قد التوت على ساقيه ، وهو لا يطيق اعمال قدم ، وعهده به متربعا على سرير الملك ، أو متسنما منبر الخطابة ، أو ممتطيا صهوة جواده تخفق عليه الألوية ، وتحف به الأبطال وغلب الرجال فلم يستطع أن يخفى تأثره ، ويملك سوابق عبرته ، فقال المعتمد :

قيدى أما تعلمنى مسلما
أبيت أن تشفق أو ترحما

دمى شراب لك واللحم قد
أكلته لا تهشم الأعظما

يبصرنى فيك أبو هاشم
فينثنى والقلب قد هشما

ارحم طفيلا طائشا لبه
لم يخش أن يأتيك مسترحما

وارحم أخيات له مثله
جرعتهن السم والعلقما

منهن من يفهم شيئا فقد
خفنا عليه للبكاء العمى

والغير لا يفهم شيئاً فما
يفتح الا ارضاع فما

ويحاول أن يحمل نفسه على قبول ما ابتلاه به الحظ العاثر ، ورضيه له القدر الساخر ، ليريح قلبه المصدوع ، ويبعث بعض الطمأنينة فى نفسه الوالهة المعذبة فيقول :

اقنع بحظك فى دنياك ما كانا
وعز نفسك ان فارقت أوطانا

فى الله من كل مفقود مضى عوض
فأشعر القلب سلوانا وايمانا

أكلما سنحت ذكرى طربت لها
مجّت دموعك فى خديك طوفانا

أما سمعت بسلطان شبيهك قد
بزته سود خطوب الدهر سلطانا

وطن على الكره وارقب اثره فرجا
واستغنم الله تغنم منه غفرانا

وكانت تمر به ساعات يغلبه فيها اليأس ، وتطبق عليه الشجون ، وتغيم آفاق نفسه فيقول :

تؤمل للنفس الشجية فرجة
وتأبى الخطوب السود الا تماديا

لياليك من زاهيك أصفى صحبتها
كذا صحبت قبل الملوك اللياليا

نعـــيم وبؤس ذا لذلك ناســـخ
وبعـــدهما نســـخ المنايا الأمانيا

ويوجه عتابه الى الدهر الذى لم يجمل فى معاملته ، ولم يقن الحياء فى سلوكه معه فيقول :

أبى الدهر أن يقنى الحيـــاء ويندما
وأن يمحو الذنب الذى كان قدما
وأن يتـــلقى وجـــه عتبى وجهـــه
بعذر يُغَشّى صفحتيـــه التذمما
ستعلم بعدى من تكون ســـيوفه
الى كل صعب من مراقيك سلما
ســـترجع ان حاولت دونى فتكة
بأخجل من خـــد المبـــارز أحجما

والخطوب التى حلّت به لم تنل منـــه وحده ، وانما نالت كذلك من الذين كانوا يؤملون خيره ويرجون برّه وينيطون به آمالهم ويعلقون عليه رجاءهم :

سلّت علىّ يد الخطوب سيوفها
فجذذن من جلدى الخصيف الأمتنا
ضربت بها أيدى الخطوب وانما
ضربت رقاب الآملين بهـــا المنى
يا آملى العـــادات من نفحاتنـــا
كُفّـــوا فان الدهر كف أكفنـــا

وينقل المقـــرى عن[1] أبى بكر الدانى أنه فى ســـنة ٤٨٢ هجرية أخذ بمالقة رجل كبير يعرف بابن خـــلف ، فسجن مع أصحاب له ، فنقبوا السجن ، وذهبوا الى حصن منت ميور ليلا فأخرجوا قائده ولم يضرّوه ، وبينما هم كذلك اذ طلع عليهم رجل ، فسألوه ، فاذا هو عبد الجبار بن المعتمد ، فولوه على أنفسهم ، وظن الناس أنه الراضى ، فبقى فى الحصن ، ثم أقبل مركب من الغـــرب يعرف بمركب ابن الزرقاء فانكسر بمرسى الشجرة قريبا من الحصن ، فأخذوا بنوده وطبوله وما فيه من طعام وعدة فاتسعت بذلك حالتهم ، ثم وصلت أم عبد الجبار اليه ، ثم خاطبه أهل الجزيرة وأهل أركش فدخلهـــا سنة ٤٨٨ ولما بلغ خبر عبد الجبار الى ابن تاشفين أمر بثقاف المعتمد فى الحديد ، وبقى الى أن توفى رحمه الله سنة ٤٨٨ هجرية . ويبدو لى أن هذه الرواية صحيحة فى جوهرها وانما الخطأ فى تحديد تاريخ دخول عبد الجبار أركش وموته ، وقد رواها صـــاحب القلائد بصورة لعلها أقرب الى الحقيقة ، قال فى حديثه عن ثورة عبد الجبـــار هذا[2] : « أقام (المعتمد) بالعدوة لا يروع له سرب وان لم يكن آمنـــا ، ولا يثور له كرب وان كان فى ضلوعه كامنا ، الى أن ثار أحد بنيه بأركش وهو معقل كان مجاورا لاشبيلية مجاورة الأنامل للراح ، ظاهر على بسائط وبطاح ، لا

(١) نفح الطيب الجزء الخامس صفحة ٣٤٨ .

(٢) نفح الطيب الجزء الخامس صفحة ٣٤٩ ، وقلائد العقيان صفحة ٢٧ .

يمكن معه عيش ، ولا يتمكن من منازلته جيش ، فغدا على أهلها بالمكاره وراح ، وضيق عليهم المتسع من جهاتها والبراح ، فسار نحوه الأمير سير بن أبى بكر رحمة الله عليه ، قبل أن يرتد طرف استقامته اليه ، فوجده وشره قد تشمر ، وصَرْدُه قد تنمر ، وجمره قد تسعر ، وأمره متوعر ، فنزل عَدْوَتَه ، وحل للحزم حَبْوَتَه ، وتدارك داءه قبل اعضاله ، ونازله وما أعد آلات نضــاله ، وانحشدت اليه الجيــوش من كل قطر ، وأفرغ من مسالكه كل قطر ، فبقى محصورا لا يشد اليه الا سهم ، ولا ينفذ عنه الا نفس أو وهم ، وامتسك شهوراً حتى عرضه أحد الرماة ، بسهم رماه فأصماه ، فهوى فى مطلعه ، وخر قتيلا فى موضعه ، فدفن الى جانب سريره ، وأمن عاقبة تغريره » .

وثورة عبد الجبار هذه جعلت المرابطين يستريبون بالمعتمد ويشددون عليه الرقابة ، ويثقلونه بالقيود ، ويقــول الفتح فى ذلك : « ولما زأر الشبل خيفت سَورة الأسد ، ولم يرج صلاح الكل والبعض قد فسد » . وقد عرف المعتمد ما سيحيق به من الضرر والمبالغة فى سوء المعاملة حينما بلغته أنباء ثورة ابنــه عبد الجبار فكان يتشكى من فعله ويتظلم ، ويتوجع ويتألم ، ويقول : « عرض بى للمحن ورضى لى أن امتحن » . ويظهر أن هذه الثورة الفاشلة بعثت فى بادىء الأمر شــيئاً من الأمل فى نفس المعتمد ، وغير غريب أن يتعلق المعتمـــد وهو فى سجنه وعزلته ، وضــيقه وحيرته بالأمل الواهى ، والذى نقــل خبر تشكيه للفتح صاحب القلائد يقول : انه بعد أن عبر عن ألمه لما

قائم به ولده : « أطرق ورفع رأسه وقد تهللت أسرته ، وظللته مسرته ، ورأيته قد استجمع ، وتشوف الى السماء وتطلع ، فعلمت أنه قد زجا عودة الى سلطانه ، وأوبة الى أوطانه ، فما كان الا بمقدار ما تنداح دائرة ، أو تلتفت مقلة حائرة حتى قال :

كذا يهلك السيف فى جفنه الى هز كفى طويل الحنين
كذا يعطش الرمح لم أعتقله ولم ترْوه من نجيع يمينى
كذا يمنع الطرف علك الشكيم مرتقبا غرة فى كمين
كأن الفوارس فيه ليوث تراعى فرائسها فى عرين
ألا شرف يرحم المشرفىّ مما به من شَمَات الوتين
ألا كرم ينعش السمهرى ويشفيه من كل داء كمين
ألا حَنّة لابن محنية شديد الحنين ضعيف الأنين
يؤمل من صدرها ضمة تبوئه صدر كف مُعين

وهكذا ذكرته ثورة ابنه بمواقفه فى الحروب ، وأثارت حنينه الى حمل السلاح ، وضرب الهام واراقة الدماء وازهاق الأرواح .

وكانت طائفة من أهل فاس(١) قد عاثت فيها فسادا ، وأزعجوا أهلها بافراطهم فى التعدى والاقدام على الكبائر ، فتدارك أمرهم يوسف ، وأطفأ جمرهم ، وأوجعهم ضربا ، وسجنهم بأغمات ، والمعتمد اذ ذاك معتقل هناك ، ولما علمت جماعة منهم بوجود المعتمد فى السجن رغبوا الى سجانهم أن

---

(١) الجزء الخامس من نفح الطيب صفحة ٣٥٢ .

يرخص لهم بلقائه ، والاستمتاع بحديثه ، فخلّى السجان ما بينهم وبينه ، فكان المعتمد يتسلى بمجالستهم ، ويأنس بقربهم ، ويستريح اليهم بجواه ، ويبثهم آلامه وشكواه ، الى أن شُفع فيهم وانطلقوا من وثاقهم ، وبقى هو وحيدا فى مجلسه يشكو ضيق الكبل ، فلما دخلوا عليه مودعين راثين لحاله قال :

أما لانسكاب الدمع فى الخد راحة
لقد آن أن يفنى ويفنى به الخد
هبوا دعوة يا آل فاس لمبتلى
بما منه قد عافاكم الصمد الفرد
تخلصتم من سجن أغمات والتوت
علىّ قيود لم يحن فكها بعد
من الدهم أما خلقها فأساود
تلوى وأما الأيد والبطش فالأسد
فهنيتم النعمى ، ودامت لكلكم
سعادته ان كان قد خاننى سعد
خرجتم جماعات وخلفت واحدا
ولله فى أمرى وأمركم الحمد

وفى يوم سقوط اشبيلية فى يد المرابطين واحاطتهم بقصر المعتمد ووقوع السلب والنهب فيه كان فى جملة من سبى من نساء القصر بثينة ابنته ، وأمها الرميكية ، وكانت بثينة هذه مثل أمها فى الجمال والبديهة الحاضرة وبراعة النادرة ، وهى

تعد [1] من أديبات الأندلس ونسائها المشهورات بالبلاغة ، وقد ظل المعتمد والرميكية فى وله دائم لا يعلمان ما آل اليه أمر بثينة ، وكان أحد تجار اشبيلية اشتراها على أنها جارية سرّيّة، ووهبها لابنه ، فلما هيئت له وأراد الدخول عليها امتنعت ، وأظهرت له نسبها ، وقالت له : « لا أحلّ لك الا بعقد زواج شرعى ان رضى أبى بذلك » ، وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلها لأبيها ، وانتظار جوابه ، وقد ضمنت كتابها لأبيها هذه الأبيات :

اسمع كلامى واستمع لمقالتى
فهى السلوك بدت من الأجياد
لا تنكروا أنى سبيت وأننى
بنت لملك من بنى عباد
ملك عظيم قد تولى عصره
وكذا الزمان يؤول للافساد
لما أراد الله فرقة شملنا
وأذاقنا طعم الأسى من زاد
قام النفاق على أبى فى ملكه
فدنا الفراق ولم يكن بمراد
فخرجت هاربة فحازنى امرؤ
لم يأت فى أفعاله بسداد

(١) الجزء السادس من نفح الطيب صفحة ٢٠ .

اذ باعنى بيع العبيد فضمنى
من صانني الا من الأنكاد
وأرادني لنكاح نجل طاهر
حسن الخلائق من بنى الأنجاد
ومضى اليك يسوم رأيك فى الرضا
ولأنت تنظر فى طريق رشادى
فعساك يا أبتى تعرفنى به
ان كان ممن يرتجى لوداد
وعسى رميكية الملوك بفضلها
تدعو لنا بالخير والاسعاد

فلما وصل شعرها لأبيها المعتمد وهو واقع فى شراك الكروب والأزمات ، سر هو وأمها بحياتها ، اذ علما مآل أمرها ، ووافق المعتمد على زواجها من الصبى المذكور ، وكتب اليها كتابا يدل على حسن صبره ، وجميل رأيه ، وأوصاها فيه بزوجها قائلا :

بنيتى كونى به برّة   فقد قضى الدهر باسعافه

ووفى له شعراء بلاطه ، ولم ينسوا له ما طوّق به أعناقهم من الجميل ، وما أسداه اليهم من المنن والأيادى البيض . فتجشموا الرحلة الى أغمات لمواساته فى كربته ، ومشاركته فى محنته .

ومن الشعراء الذين وفوا له الأديب الشاعر أبو بكر الدانى المعروف بابن اللبانة ، وكان المعتمد يخصه بالتقريب ، ويوليه

انعاما واحسانا ، ولما رأى الدالى المعتمد وهو يعانى ظلمة السجن وقد عضت بساقيه حلقات الكبل نظم قصيدته التائية المشهورة التى يقول فى مطلعها :

لكل شىء من الأشياء ميقات
وللمنى من مناياهن غايات
والدهر فى صبغة الحرباء منغمس
ألوان حالته فيها استحالات
ونحن من لعب الشطرنج فى يده
وربما قمرت بالبيدق [1] الشاة
فانفض يديك من الدنيا وساكنها
فالأرض قدأقفرت والناس قدماتوا
وقل لعالمها الأرضى قد كتمت
سريرة العالم العلوى أغمات
طوت مظلتها لا بل مذلتها
من لم تزل فوقه للعز رايات
من كان بين الندى والبأس أنصلة
هندية وعطاياه هتنيدات
رماه من حيث لم تستره سابغة
دهر مصيباته نبل مصيبات

---

(١) علق ابن خلكان فى وفياته على هذا البيت بقوله : « هذا غلط ، فان الشاه بالهاء الملك بالعجمى ، واذا كان كذلك فلم تسلم له التاء فيه لانها على حرف التاء » (الجزء الرابع صفحة ١٢٣) .

أنكرت الا التواءات القيود به
وكيف تنكر فى الروضات حيات

وقلت هن ذؤابات فلم عكست
من رأسه لحو رجليه الذؤابات

رأوه ليثـــا فخافوا منهعادية
عذرتم فلعـــدو الليث عادات

لو كان يفــرج عنه بعض آونة
قامت بدعوته حتى الجمـادات

بحر محيط عهـدناه تجىء له
كنقطة الدارة السبع المحيطات

لهفى على آل عبـــاد فانهم
أهلة ما لها فى الأفـــق هالات

وفى سنة ٤٨٦ أى بعد مضى ســنتين على نفى المعتمد فى أغمات ، كان الدانى هناك يواسى أميره ويفد عليه « وفادة وفاء لا وفادة استجداء » كما كان يقول ، وقد نظم بها قصيدة طويلة عبر فيها عن خالص وجدانه ، وبث فيها أحزانه لما أصاب المعتمد ، وبكى سالف أيامه ، يقول فى مطلعها :

تنشق رياحين الســلام فانما
أفض بها مســكا عليك مختما

وقل لى مجازاً ان عدمت حقيقة
لعلك فى نعمى وقد كنت منعما

أفكر في عصر مضى لك مشرقا
فيرجع ضوء الصبح عندي مظلما

ومنها :

لئن عظمت فيك الرزية اننـــا
وجـــدناك منها في البرية أعظما
قناة سعت للطعن حتى تقصدت
وسيف أطال الضرب حتى تثلما
بكى آل عبـــاد ولا كمحمد
وأولاده صوب الغمام اذا همى
صَبَاحهم كنا به نحمد السرى
فلما عدمناهم سرينا على عمى
وكنا رعينا العز حول حمـــاهم
فقدأجدب المرعى وقد أقفر الحمى
وقد ألبست أيدى الليالى محلهم
مناسج سدّى الغيث فيها وألحما
قصور خلت من ساكنيها فما بها
سوى الأدم تمشى حول واقعة الدّمى
تجيب به الهام الصـــدى ولطالما
أجاب القيان الطائر المترنمـــا
كأن لم يكن فيها أنيس ولا التقى
بها الوفد جمعا والخميس عرمرما

ومنها :

حكيت وقد فارقت ملكك مالكا
ومن ولهى أحــكى عليك متمما
مصاب هوى بالنيرات من العلى
ولم يبق فى أرض المكارم معلما
تضيق علىّ الأرض حتى كأنما
خلقت واياها ســواراً ومعصما
بكيتك حتى لم يخل لى الأسى
دموعاً بها أبكى عليك ولا دما
بكاك الحيا ، والريح شقت جيوبها
عليك وتاج البرق باسمك معلما
ومزق ثوب البرق واكتست الضحى
حدادا وقامت أنجم الجو مأتما
وحار ابنك الاصباح وجدا فما اهتدى
وغار أخوك البحر فيضا فما طمى
وما حل بدر التم بعــدك دارة
ولا أظهرت شمس الظهيرة مبسما

وكانت قيود المعتمد قد انفكت عنه فأشار الى ذلك بقوله :

قيودك ذابت فانطلقت لقد غدت
قيودك منهم بالمكارم أرحمـــا
عجبت لأن لان الحديد وان قسوا
لقد كان منهم بالسريرة أعلمـا

سينجيك من نجّى من السجن يوسفا
ويؤويك من آوى المسيح بن مريما

ولما عزم الدانى على الارتحال وأزمع السفر بعث اليه المعتمد مع ابنه شرف الدولة بعشرين مثقالا مرابطية وثوبين غير مخيطين وذلك بعد أن صرف حيلة واستنفد ما قبله ، وكتب معها :

اليك النزر من كف الأسير
فان تقبل تكن عين الشكور
تقبل ما يذوب له حياءً
وان عذرته حالات الفقير
ولا تعجب لخطب غض منه
أليس الخسف ملتزم البدور
ورج بجبره عقبى نداه
فكم جبرت يداه من كسير
وكم أعلت يداه من حضيض
وكم حطت ظباه من أسير
وكم أحظى رضاه من حظى
وكم شهرت علاه من شهير
وكم من منبر حنت اليه
أعالى مرتقاه ومن سرير
زمان تنافست فى الحظ منه
ملوك قد تجور على الدهور

زمانٌ تراجعت عن جانبيه
جياد الخيل بالموت المبير
بحيث يطير بالأبطال ذعر
ويلقى ثم أرجح من ثبير
فقد نظرت اليه عيون نحس
مضت منه بمعدوم النظير
نحوس كن فى عقبى سعود
كذاك تدور أقدار القدير

فرد الدانى صلته هذه وكتب اليه :

سقطت من الوفاء على خبير
فذرنى والذى لك فى ضميرى
تركت هواك وهو شقيق دينى
لئن شقت برودى عن غدور
ولا كنت الطليق من الرزايا
لئن أصبحت أجحف بالأسير
أسير ولا أصير الى اغتنام
معاذ الله من سوء المصير
اذا ما الشكر كان وان تناهى
على نعمى فما فضل الشكور
جذيمة أنت والزباء خانت
وما أنا من يقصر عن قصير

أنا أدرى بفضلك منك انى
لبست الظل منه فى الحرور
غنى النفس أنت وان ألحت
على كفيك حالات الفقير
تصرف فى الندى حيل المعانى
فتسمح من قليل بالكثير
أحدث منك عن نبع غزير
تفتح عن جنى زهر لضير
وأعجب منك أنك فى ظلام
وترفع للعفاة منار نور
رويدك سوف توسعنى سروراً
اذا عاد ارتقاؤك للسرير
وسوف تحلنى رتب المعالى
غداة تحل فى تلك القصور
تزيد على ابن مروان عطاءً
بها وأزيد ثم على جرير
تأهب أن تعود الى طلوع
فليس الخسف ملتزم البدور

فراجعه المعتمد بهذه الأبيات :

رد برى بغياً علىّ وبرا
وجفا فاستحق لوما وشكرا

حاط نزرى اذ خاف تأكيد ضـُــرِّى
فاســتحق الجفـــاء اذ حاط نــزرا

فاذا ما طــويت فى الحمـــد بعضــا
عاد لومى فى البعض سرا وجهـــرا

يا أبا بـــكر الغـــريبَ وفـــاءً
لا عدمنـــاك فى المغـــارب ذخرا

أى نفع يجـــدى احتيـــاط شـفيق
مت ضراً فكيف أرهب ضـــــرا

فأجابه ابن اللبانة :

أيها المـــاجد السَّمَيدَعُ عـــذرا
صـــرفى البر انمـــا كان برا

حاش لله أن أجيـــح كـــريم
يتشـكى فقـــراً وكم ســـد فقرا

لا أزيد الجفـــاء فيـــه شـــقوقا
غـــدر الدهـــر بى لئن رمت غـــدرا

ليت لى قـــوة أو آوى لـــركن
فترى للـــوفاء منى ســـــرا

أنت علمـــتنى الســـيادة حتى
ناهضت همـــتى الكواكب قـــدرا

ربحت صـــــفقة أزيل برودا
عن أديمـــى بهـــا وألبس فخـــرا

وكفـــانى كلامك الرطب نيـــلا

كى ألقـــــى دُرًّا وأطلب تبرا

لم تمــت انمــا المــــكارم ماتت

لا ســقى الله بعــدك الأرض قطــرا

وقد ألف الدانى كتابا اشتمل على قصائد ومقطوعات فى البكاء على أيام بنى عباد واندثار دولتهم سماه : « السلوك فى وعظ الملوك » . وقد وفد على المعتمــد وهو فى أغمات عدة وفادات .

وقد ودع الدانى المعتمد قبل ارتحاله من أغمات بقصيدة مطلعها :

وداع ولكنى أقول سلام   وللنفس فى ذكر الوداع حمام

فأجاب المعتمد بقصيدة مطلعها :

كلامك حـــر والكلام غـــلام

وســحر ولــكن ليس فيــه حــرام

ودر ولـــكن بين جنبيك بحــره

وزهـــر ولــكن الفـــؤاد كمام

ويقول منها :

أضــاء لنا أغمـــات قربك برهــة

وعاد بهــا حــين ارتحلت ظـــلام

وأبقى أســـام الذل فى أرض غربة

وما كنت لولا الغـــدر ذاك أســام

وابن حمديس من الشعراء الذين حفظوا للمعتمد عهده ،

ورعوا ذمامه ، فوفوا له فى أسره . وقد نظم قصيدة عبر فيها عن حزنه لما أصاب المعتمد يقول فى مطلعها :

أباد حياتى الموت ان كنت ساليا
وأنت مقيم فى قيــودك عانيــا
وان لم أبار المزن قطــراً بأدمع
عليك فلا سقيت منها الغواديا
تعزيت من قلبى الذى كان ضاحكاً
فما ألبس الأجفــان الا بواكيا
وما فرحى يوم المسرة طائعـــا
ولا حزنى يوم المساءة عاصــيا

ومنها قوله :

وما كنت أخشى أن يقال محمـــد
يميل عليه صائب الدهــر قاسيا
حسام كفاح بات فى السجن مغمدا
وأصبح من حلى الرياسة عاريا
فيا جبلا هـــد الزمان هضــابه
أما كنت بالتمكين فى العز راسيا

وقوله :

مضيت حميدا كالغمامة أقشعت
وقد ألبست وشى الربيع المغانيا
سأدمى جفونى بالســهاد عقوبة
اذا وقفت عنك الدموع الجواريا

وأمنع نفسى من حيـــاة هنيئة
لأنك حى تســتحق المراثيــا

وكتب اليه المعتمد وهو أسير بأغمات يذكر قصــوره فى اشبيلية ويأسى على ماضى أيامه الزاهرة :

غريب بأرض المغــربين أســير
سيبكى عليــه منــبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقنا
وينهــل دمع بينهن غــزير
سيبكيه فى زاهيه والزاهر الندى
وطــلابه والعــرف ثمّ نــكير
اذا قيل فى أغمات قد مات جوده
فما يرتجى للجود بعــد نشور
مضى زمن والملك مســتأنس به
وأصبح عنه اليوم وهو نفــور
برأى من الدهــر المضلل فاسد
متى صلحت للصالحين دهــور
أذل بنى ماء الســماء زمانهم
وذل بــنى ماء الســماء كثير
فمــا ماؤها الا بــكاء عليهم
يفيض على الأكباد منه بحــور
فيا ليت شعرى هل أبيتن ليــلة
أمامى وخلفى روضــة وغــدير

بمنبتة الزيتون موروثة العــــلا
تغنى قيــــان أو ترن طيــور
بزاهرها السامى الذرى جاده الحيا
تشــير الثريا نحــونا ونشــير
ويلحظنا الزاهى وسعد سعوده
غيورين والصــب المحب غيور
تراه عســيرا لا يســيرا مناله
ألا كل ما شــاء الاله يســير
قضى الله فى حمص الحمام وبعثرت
هنالك منا للنشــــور قبــور
فأجابه ابن حمديس :
جرى بك جــد بالكرام عثــور
وجار زمان كنت فيه تجــير
لقد أصبحت بيض الظبى فى غمودها
اناثا لترك الضرب وهى ذكور
تجىء خــلافا للأمور أمور
ويعدل دهر فى الورى ويجــور
أتيأس من يوم يناقض أمســه
وزهر البرارى فى البروج تدور
وقد تنبه الأقدار بعد خمولها
وتخرج من تحت الخسوف بدور
أعز الأسارى أن يقال محمد :
غريب بأرض المغربين أســير

لقد صنت دين الله خير صيانة
كأنك قلب فيه وهو ضمير

وذهب ابن حمديس لزيارة المعتمد فى أغمات ، فصرفه بعض خدمه بأنه لا يوجد فى ذلك الوقت ، فرجع ابن حمديس الى منزله ، فأخبر المعتمد بمجيئه ورجوعه ، فعز عليه ذلك ، وعنّف خدمه ، وكتب اليه بالغداة بهذا الشعر معتذراً :

حجبت فلا والله ماذاك عن أمرى
فأصغ فدتك النفس سمعا الى عذرى
فما صار اخلال المكارم لى هوى
ولا دار اخجال لمثلك فى صدرى
ولكنه لما أحالت محاسنى
يد الدهر شلت عنك دأبا يد الدهر
عدمت من الخدام كل مهذب
أشير اليه بالخفى من الأمر
ولم يبق الا كل أدكن ألكن
فلا آذن فى الأذن يبرأ من عرٍّ
وهل كنت الا البارد العذب انما
به يشتفى الظمآن من غلة الصدر
ولو كنت ممن يشرب الخمر كنتها
اذا نزعت نفسى الى لذة الخمر
وأنت ابن حمديس الذى كنت مهديا
لنا السحر ان لم نأت فى زمن السحر

فجاوبه ابن حمديس بقصيدة يقول فى مطلعها :

أمثلك مولى يبسط العبد بالعذر
بغير انقباض منك يجرى الى ذكر

ومنها قوله :

وانى امرؤ فى خجـلة مستمرة
يذوب لها فى الماء جامدة الصخر
أتتنى قوافيك التى جل قدرها
بما نقطة منهن مغـرقة بحـرى
لعلك اذ أغنيتنى منك بالنـدى
أردت الغنى لى من مديحك بالفخر
لعمـرك انى ما توهمت ريبـة
تبرقع وجه العذر عندك بالنكر
وكنت أمل الجود منك وأنت لا
تمل عطاءً منك يأتى على الوفر
فكيف أظن الظـن غير مبرأ
تواضع فيه كوكب الجو عن قدر

الى أن يقول :

بكيت زمانا كان لى بك ضاحكا
وكسر جناحى كان عندك ذا جبر
وأطرقت لمـا حالت الحال حيرة
تحير منها عالم النفس فى صدرى
فخذها كما أدرى وآن كل خاطرى
وان لم يكن منها البديع الذى تدرى

ومن الذين زاروه فى سجنه بأغمات [1] أبو محمد عبد الله ابن ابراهيم عم الحجارى صاحب المسهب ، ويروى لنا أنه لما زاره ورأى ما يعانيه حملته شدة الحمية له والامتعاض لما حل به على أن يكتب على حائط سجنه متمثلا :

فان تسجنوا القسرى لا تسجنوا اسمه
ولا تسجنوا معروفه فى القبائل

وتفقد الكتابة بعد أيام ، فوجد تحت البيت : « لذلك سجنّاه » .

ومن يجعل الضرغام بازا لصيده
تصيده الضرغام فيما تصيدا

ويقول انه لم يدر من جاوب بذلك ، ولما عاد بعد أيام وجده قد محى ، وأعلم بذلك المعتمد فقال له : « صدق المجاوب ، وأنا الجانى على نفسه ، والحافر بيده لرمسه » . ولما أراد وداعه أمر له المعتمد باحسان على قدر ما استطاع ، فارتجل قوله مادحا له :

آليت لا أقبل احسانكم والدهر فيما قد عراكم مسى
ففى الذى أسلفتم غنية وان يكن عندكم قد نسى

وكانت زيارات هؤلاء الشعراء له ووفادتهم عليه تؤنس من وحشته وتبعث ضوءا فى ظلمة أيامه ، وغياهب أسره وسجنه ، ولكنها كانت تمر سريعا ، ويبقى له بعدها القيد والأسر والسجن والتفكير فى ماضيه والتألم من حاضره .

---

(١) الجزء الخامس من نفح الطيب صفحة ١١١ .

وفاة المعتمد

كان للأسر والسجن ومعاناة الأغلال والكبول وما انتاب نفسه من الألم وتعاورها من الهم ، أثر قوى فى انهاك صحة المعتمد وهدم بنيانه الوثيق ، ويظهر أن المرض اشتد به فى السنتين الأخيرتين من حياته ، وقد شاركته فى آلامه امرأته المحبوبة الرميكية ، وكان وجودها معه يخفف الى حد ما من ألمه وبلواه ، وبرغم ما كانت تعانيه من بؤس فانها لم تفقد ميلها الى المرح وارسال النكات البارعة ففى أوائل المحنة والنفى فى أغمات قالت له : « لقد هنّا هنا » . فقال مجنسا كلامها :

قالت : لقد هنّا هنا　　مولاى أين جاهنا

قلت لها : الى هنا　　صيرنا الهنا

ولما مرض قالت له : « يا سيدى مالنا قدرة على مرضاتك فى مرضاتك » .

وقد بعثت ثورة عبد الجبار ابنه بعض الأمل فى نفس المعتمد ، ولكن المرابطين لم تفتهم خطورتها ، والمبادرة الى القضاء عليها ، واخماد نيرانها ، وشددت الرقابة على المعتمد بعد ذلك ، وأحكمت الحراسة عليه ، وأثقلت قيوده ، وقد أيأسه ذلك من العودة الى ملكه ، وأوهن جأشه ، وحل عقدة صبره ،

ولما اضمحل أمله وساءت صحته ، وأحس اقتراب الخاتمة ، نظم القصيدة الآتية وأوصى بكتابتها على قبره :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادى
حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالحلم بالعلم بالنعمى اذا اتصلت
بالخصب ان أجدبوا بالرى للصادى
بالطاعن الضارب الرامى اذا اقتتلوا
بالموت أحمر بالضرغامة العادى
بالدهر فى نقم بالبحر فى نعم
بالبدر فى ظلم بالصدر فى النادى
نعم هو الحق حابانى به قدر
من السماء فوافانى لميعاد
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه
أن الجبال تهادى فوق أعواد
كفاك فارفق بما استودعت من كرم
روّاك كل قطوب البرق رعّاد
يبكى أخاه الذى غيبت وابله
تحت الصفيح بدمع رائح غادى
حتى يجودك دمع الطل منهمرا
من أعين الزهر لم تبخل باسعاد
ولا تزل صلوات الله دائمة
على دفينك لا تحصى بتعداد

ويصف لنا الفتح في القلائد حالة المعتمد في سنواته الأخيرة بقوله [1] : « ولم تزل كبده تتوقد بالزفرات ، وجَلَدُه يتردد بين النكبات والعثرات ، ونفسه تنقسم بالأشجان والحسرات ، الى أن شفته منيته ، وجاءته بها أمنيته ، فدفن بأغمات ، وأريح من تلك الأزمات ، وعطلت المآثر من حلاها ، وأفردت المفاخر من علاها ، ورفعت مكارم الأخلاق ، وكسدت نفائس الأعلاق ، وصار أمره عبرة في عصره ، وصاب أندى عَبْرة في مصره » .

وتوفى المعتمد فى السجن بأغمات [2] لاحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة ٤٨٨ هجرية ، وقيل فى ذى الحجة ، ونودى فى جنازته بالصلاة على الغريب بعد عظم سلطانه وجلالة شأنه ، واجتمع عند قبره جماعة من الشعراء الذين كانوا يقصدونه بالمدائح ويجزل لهم العطايا ، ولما كان أول عيد بعد وفاة المعتمد وفد الشاعر أبو بحر بن عبد الصمد الى أغمات لزيارة قبر المعتمد كلما كان يزوره فى قصره ، ويقول الفتح [3] : « فلما كان يوم العيد وانتشر الناس ضحى ... قام على قبره عند انفصالهم من مصلاهم واختيالهم بزينتهم وحلاهم ، وقال بعد أن طاف بقبره والتزمه ، وخر على تربه ولثمه :

ملك الملوك أسامع فأنادى
أم قد عدتك عن السماع عوادى

(١) قلائد العقيان صفحة ٣١ .
(٢) وفيات الأعيان الجزء الرابع صفحة ١٢٨ .
(٣) قلائد العقيان صفحة ٣١ .

لما خلت منك القصور ولم تكن
فيها كما قد كنت فى الأعيـــاد
أقبلت فى هذا الثرى لك خاضعا
وتخذت قبرك موضـــع الانشاد
قد كنت أحسب أن تبدد أدمعى
نيران حزن أضرمت بفـــؤادى
فاذا بدمعـــى كلما أجــــريته
زادت علىّ حــــرارة الأكباد
فالعين فى التسكاب والتهتان والأ
حشاء فى الاحراق والايقــــاد
يا أيهـــا القمـــر المنير أهـــكذا
يمحى ضــــياء النـــير الوقاد
أفقدت عينى مذ فقـــدت انارة
لحجابهـــا فى ظلمة وســــــواد
ما كان ظنى قبل قبرك أن أرى
قبرا يضم شــــوامخ الأطواد
الهضـــبة الشماء تحت ضريحه
والبحـــر ذو التيـــــار والأزباد
عهدى بملكى وهو طلق ضاحك
متهـــلل الصـــفحات للقصـــاد
والمـــال ذو شمل بداد والندى
يهـــمى وشــــمل الملك غير بداد

أيام تخفق فوقك الرايات فـــو
ق كتائب الرؤســـاء والأجنـــاد
والأمر أمرك والزمان مبشـــــر
بمـــــــالك قد أذعنت وبلاد
والخيل تمرح والفوارس تنحنى
بين الصـــوارم والقنـــا الميـــاد

وهى قصيدة أطال انشادها ، وبنى بها اللواعج وشادها ، فانحشر الناس اليه وأحفلوا ، وبكوا لبكائه وعولوا ، وأقاموا أكثر نهارهم مطيفين به طواف الحجيج ، مديمين البكاء والعجيج ، ثم انصرفوا وقد نزفوا ماء عيونهم ، وأقرحوا مآقيهم وجفونهم ، وهذه نهاية كل عيش ، وغاية كل ملك وجيش » .

وهكذا فى سياق النكبات المتلاحقة ، وفى غمرة الآلام التى كان يعانيها وافت المعتمد منيته ، وهو فى السادسة بعد الخمسين من عمره الحافل بالمسرات والأحزان والنعيم والشقاء ، وهكذا كانت خاتمة حيـــاة الملك الشاعر ، الذى كان بطلا فى النـــدى والكرم ، وبطلا فى الجهاد والجلاد ، وكانت زوجته المحبوبة اعتماد الرميكية قد سبقته الى القبر ، ولا نزاع فى أن يوسف ابن تاشفين كان رجلا عبقريا ، ومن الأبطال المبرزين فى تاريخ المغرب ، وأحد مؤسسى الدول ، ولكن معاملته الفظة القاسية لرجل مثل المعتمد تنقص من اعجابنا به وتقديرنا له .

وقد اقتضت سياســـته خلع ملوك الطوائف ، ولكنه فرق بينهم فى المعاملة ، وقد انتزع ملك حفيـــدى باديس صاحب

غرناطة وأرسل بهما الى المغرب ولكنهما لم يجدا ما يشكوان منه بعد ذلك ، فقد أطلق لهما حريتهما على شريطة ألا يغادرا أرض مراكش ، وأجرى عليهما رزقا كافيا الى حد أن الأمير عبد الله صاحب غرناطة ترك ثروة لأولاده ، وواضح أن يوسف مالت به العصبية البربرية الى حسن معاملة هذين الأسيرين ، فقد كانا مثله من أصل بربرى ، ولكن مصير الأمراء الأندلسيين كان يختلف عن ذلك ، وقد رأينا مصرع المتوكل صاحب بطليوس وابنيه : الفضل والعباس وولدى المعتمد ، وقد أبقى على حياة المعتمد ، ولكنه نفاه وسجنه وقيده وعامله أسوأ معاملة ، ولم يكن فى هذه المعاملة محمود الطريقة ولا سديد المذهب ، وقد نشأ يوسف فى الصحراء ، وعاش عيشة فيها شظف وخشونة ، وربما دلت معاملته للمعتمد على ما فى طبعه من غلظة ، وما فى خلقه من جفوة ، برغم ما اشتهر به من التقوى ونفاذ الفطنة .

وقد كان المؤرخ الكبير ابن الأثير من المعجبين بيوسف القادرين لمزاياه قال عنه فى تاريخه [1]: « كان حسن السيرة خيرا عادلا يميل الى أهل الدين والعلم ويكرمهم ، ويصدر عن رأيهم ، ولما ملك الأندلس جمع الفقهاء وأحسن اليهم ، فقالوا له : ينبغى أن تكون ولايتك من الخليفة لتجب طاعتك على الكافة ، فأرسل الى الخليفة المستظهر بالله أمير المؤمنين ، رسولا ومعه هدية كبيرة ، وكتب معه كتابا يذكر ما فتح الله به من بلاد

---

(١) الكامل لابن الأثير الجزء الثامن صفحة ٢٣٦ .

الافرنج وما اعتمده من نصرة الاسلام ، ويطلب تقليدا بولاية البلاد ، فكتب له تقليد من ديوان الخلافة بما أراد ولقب : « أمير المسلمين » وسيِّرت اليه الخلع فسر بذلك سرورا عظيما ، وكان يوسف حليما كريما دينا خيرا يحب أهل العلم والدين ويحكمهم فى بلاده ، وكان يحب العفو عن الذنوب والصفح » . ولكن ما صنعه يوسف ببنى عباد حمل هـذا المؤرخ المنصف على أن يقول : « وفعل أمير المسلمين بهم فعالا لم يسلكها أحد ممن قبله ، ولا يفعلها أحد ممن يأتى بعده الا من رضى لنفسه بهذه الرذيلة ، وذلك أنه سجنهم فلم يجر عليهم ما يقوم بهم حتى كانت بنات المعتمد يغزلن للناس بأجرة ينفقنها على أنفسهم وذكر المعتمد ذلك فى أبيات ، فأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفس ولؤم قدرة » .

ويعزو الفقهاء ورجال الدين ليوسف الكثير من الفضائل والصفات الحميدة ، ولا نزاع فى أن يوسف كان يتحلى بمزايا ممتازة ، ومواهب نادرة ، مثل الحزم والشجاعة والكفاية الحربية والقدرة على قيادة الجيوش والجماعات ، ولكن كانت تنقصه حسن معاملة العدو المنهزم ، وهى فيما أعلم من شيم الأبطال وعظماء الرجال ، وربما كان للفرق الكبير بين نشأة الرجلين ــ يوسف والمعتمد ــ والتفاوت الواضح فى مزاجهما وشخصيتهما أثر كبير فى موقف يوسف من المعتمد وامعانه فى القسوة معه .

وقد كان للمعتمد أخطاء من غير شك ، وبعضها أخطاء خطيرة ، وكان فى سلوكه باعتباره ملكا ــ ما يصح أن يؤخذ به

ويلام عليه ، ولكن اذا نظرنا من الناحية الانسانية الخالصة نجد أن يوسف قد بالغ فى الاساءة اليه ، ولم يكن هناك ما يسوغ كل هذه القسوة والامعان فى اذلال رجل فقد ملكه وأقدر أبنائه وأصبح سليب الحول ، مهيض الجناح . وقد أشار الشاعر الناثر الوزير ابن عبدون الى بنى عباد ومدحهم بعد انقضاء دولتهم وتعفية الزمن على آثارهم بقوله فى احدى قصائده :

يا نائم الليل فى فكر الشباب أفق
فصبح شيبك فى أفق النهى بادى
غضت عنانك أيدى الدهر ناسخة
علما بجهل واصلاحا بافساد
وأسلمت للمنايا آل مسلمة
وعبدت للرزايا آل عباد
لقد هوت منك خانتها قوادمها
بكوكب فى سماء المجد وقاد

ومنها فى مدحهم :

ومالك كان يحيى شول قرطبة
أستغفر الله بل شول بغداد
شق العلوم نطاقا والعلا زهرا
فبين ما بين رواد ووراد

وقال الشاعر أبو محمد بن غانم يذكر بنى عباد :

ومن الغريب غروب شمس فى الثرى
وضياؤها باق على الآفاق

وكرم المعتمد ونبالة أخلاقه وسجاحة نفسه وأدبه وشاعريته وشجاعته ومأساة حياته ، جعل النفوس تميل اليه وتعطف على ذكراه ، وقد زار قبره بعد مضى ٢٧٣ سنة على وفاته لسان الدين ابن الخطيب الوزير الأندلسى والكاتب العالم الذى بعث الاعجاب به واللهج بذكره المقرى على تأليف كتابه : « نفح الطيب » . قال لسان الدين[1] : « وقفت على قبر المعتمد بن عباد بمدينة أغمات فى حركة راحة أعملتها الى الجهات المراكشية ، باعثها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار سنة ٧٦١ ، وهو بمقبرة أغمات فى نشز من الأرض ، وقد حفت به سِدْرَة ، والى جانبه قبر اعتماد حظيته مولاة رميك ، وعليهما هيئة التغرب ومعاناة الخمول من بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتهما ، فأنشدت فى الحال :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات
رأيت ذلك من أولى المهمات
لم لا أزورك يا أندى الملوك يدا
ويا سراج الليالى المدلهمات
وأنت من لو تخطى الدهر مصرعه
الى حياتى لجادت فيه أبياتى
أناف قبرك فى هضب يميزه
فتنتحيه حفيات التحيات

(١) نفح الطيب الجزء الخامس صفحة ٢٣٧/٢٣٨ .

كرمت حياً وميتا واشتهرت علا
فأنت سلطان أحيـــاء وأموات
ما رىء مثلك فى ماض ومعتقدى
أن لايرى الدهر فىحال وفى آتى

ويقول المقرى[1] : « وقد زرت أنا قبر المعتمد والرميكية أم أولاده ، حين كنت بمراكش المحروسة عام ١٠١٠ هجـــرية وعمّى علىّ أمر القبر المذكور ، وسألت عنه من تظن معرفته له ، حتى هدانى اليه شيخ طعن فى السن ، وقال لى : « هذا قبر ملك ملوك الأندلس ، وقبر حظيته التى كان قلبه بحبها خفاقا غير مطمئن » . فرأيته فى ربوة حسبما وصفه ابن الخطيب رحمه الله تعالى فى الأبيات ، وحصلت لى من ذلك المحل خشية وادكار ، وذهبت بى الأفكار فى ضروب الآيات ، فسبحان من يؤتى ملكه من يشاء لا اله غيره وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين » .

ويروى لنا أبو بكر الدانى المعروف بابن اللبانة ، أن رجلا من أهل اشبيلية ، كان يحفظ شعر المعتمد ، ثم خرج منها لنية منه الى أقصى حى فى العرب ، فآوى الى خيمة من خيماتهم ، ولاذ بذمة راع من رعاتهم ، فلما توسط القمر فى بعض الليالى وهجع السامر وحاول النوم لم يغمض له جفن واعتراه أرق فخرج من الخيمة يستنشق النسيم العليـــل ويجيل الطرف فى

(١) نفح الطيب الجزء الخامس صفحة ٣٥٦ .

القمر وهو يتخطر فى السماء بين زهـر النجوم ، وعاجت به الذكريات على الدولة العبادية وعهودها الخاليات ، وأيامها النضرات ، وأخذ يتغنى بأبيات المعتمد التى يقول فيها :

ولقد شربت الراح يسطع نورها
والليـل قد مد الظـلام رداء
حتى تبدى البـدر فى جوزائه
ملكا تنـاهى بهجـة وبهـاء
لمـا أراد تنزها فى غـربه
جعـل المظلة فـوقه الجـوزاء
وتناهضت زهـر النجوم يحفه
لألاؤها فاسـتكمل اللألاء
وترى الكواكب كالمواكب حوله
رفعت ثريّاها عليـه لواء
وحكيته فى الأرض بين مواكب
وكواعب جمعت سـنا وسناء
ان نشّرت تلك الدروع حنادسا
ملأت لنا هذى الكئوس ضياء
واذا تغنت هـذه فى مزهـر
لم تأل تلك على التّريك غنـاء

ثم تلا القصيدة التى اعتذر بها المعتمد لوالده المعتضد عن تقصيره فى الهجوم على مالقة ، ولم يكد يتم تلاوتها حتى رفع رواق الخيمة القريبة منه ، وكان قد آوى اليهـا رجل وسيم

ضخم تدل سيما فضله على أنه سيد أهله ، وخاطب الأشبيلى قائلا : « يا حضرى ، حياك الله ، لمن هذا الكلام الذى اعذوذب مورده واخضوضل منبته ، وتحلت بقلادة الحلاوة بِكْرُه ، وهدر بشقشقة الجزالة بَكْرُه ؟ » .

فقال الاشبيلى : « هذا الشعر لملك من ملوك الأندلس يعرف بابن عباد » .

فقال العربى : « أظن أن هذا الملك لم يكن له من الملك الا حظ يسير ونصيب حقير ، فمثل هذا الشعر لا يقوله من يشغل بشىء دونه » .

فأجابه الاشبيلى : « لقد كان ملكا عظيم الرياسة ، جليل الشأن » .

فتعجب العربى من ذلك ، ثم قال : « وممن الملك ان كنت تعلم ؟ » .

فأجاب الاشبيلى : « هو فى الصميم من لخم ، والذؤابة من يعرب » .

فصرخ العـــربى صرخة أيقظ بها الحى من هجعته وقال : « هلموا هلموا ! » . فتبادر القوم اليه ، ينثالون عليه ، فقال : « معشر قومى ، اسمعوا ما سمعته ، وعوا ما وعيته ، فانه لفخر طلبكم ، وشرف تلاحق بكم ، ياحضرى أنشد كلمة ابن عمنا » .

فأنشدهم الاشبيلى القصيدتين ، وعرّفهم العربى بما عرفه الرجل من نسب المعتمد ، فخامرتهم السراء ، وداخلتهم العزة ، وركبوا من طربهم متون الخيل ، وجعلوا يتلاعبون عليها باقى

الليل ، فلما شق الصباح أو كاد أديه عمـــد زعيم القوم الى عشرين من الابل فدفعها الى الرجل ، وفعل الجميع مثلما فعل ، فما كان رأد الضحى الا" وعنده هنيدة[1] من الابل ، ثم خلطوه بأنفسهم ، وجعلوه مقر سرورهم وتأنسهم .

وقد ختم المؤرخ الكبير دوزى كلامه عن المعتمد فى كتابه الرائع « اسبانيا الاسلامية » بقوله[2] : « لا يمكن بحال أن يذكر المعتمد فى عداد الحكام العظماء ، ولقد كان ملكا على قوم أفسدهم الترف ، ولذلك كان من الصعب عليه أن يكون عظيما حتى لو لم يقصر به عن بلوغ هذه المرتبة مافطر عليه من ميل الى الدعة والاخلاد الى الراحة ، وهو آفة أصحاب المزاج الفنى ومصدر سرورهم فى الوقت نفسه ، ومن المؤكد أنه لم يتح لملك غيره ما أتيح له من رهافة الحس وشاعرية النفس ، ولقد كانت أتفه الحوادث العارضة التى تمر به فى حياته سرعان ما ترتدى الثوب الشعرى ، ويمكن أن تصاغ ترجمة حياته أو على أى حال حياته الفكرية من أشعاره ، فهى فيض قلبه الخالص الذى تنعكس فيه مسراته وأحزانه التى كان يبعثها اشراق الشمس الضاحية أو يثيرها تراكم الغيوم ، وفضـــلا عن ذلك كان من حسن حظه أن يكون آخر ملك أندلسى النجار مثّل بجدارة بل بلمعان وازدهار ثقافة تهاوت من عليائها أو قدر لها مجرد البقاء تحت حكم البربر الغزاة ، ولقد ظلت ذكراه أثيرة فى النفوس

(١) الهنيدة اسم للمائة من الابل .

(٢) صفحة ٧٣٦ من كتاب اسبانيا الاسلامية لدوزى .

باعتباره آخر فرع فى دوحة أسرة الملوك والشعراء الذين حكموا الأندلس ، ولقد بكاه الناس ورثوه أكثر مما رثوا غيره ، بل لعلهم فى غمرة حزنهم عليه لم يذكروا سواه ، وكان لحزنهم عليه رقة الأسى الذى يخالج النفوس وهى تشهد آخر ازدهار الورود وختام أيام الخريف المولّى وآخر شعاع من أشعة الشمس الغاربة » .

واذا كان للمعتمد أخطاء فى سياسته وعيوب فى خلقه وشخصيته فان له الى جانب ذلك من المواقف المشرفة والصنائع الجميلة والصفات الانسانية الحميدة ما يستوجب التقدير ، ويستحق الاعجاب ، وكان له من الكرم والشجاعة والأريحية وسمو الثقافة وعلو طبقة الشاعرية ما يرجح به غيره من الناس سواء كانوا ملوكا متوجين أو سوقة مغمورين أو شعراء أو علماء أو قادة معدودين ، والآلام المبرحة التى عاناها فى سنواته الأخيرة الحالكة وصبر لها صبر الأباة الكرام ، تكفر عما احتقب من ذنوب ، وتعتذر عما تورط فيه من أخطاء ، وستظل أخبار المعتمد وصفاته ومعارض حياته ومأساته تستهوى الباحثين والمؤرخين ، كما ستظل أشعاره تجتذب أنظار الأدباء الدارسين والنقاد والشعراء وسائر غواة الأدب المحض والثقافة الحقة ، وربما كان لقول أبى محمد بن غانم السابق ذكره فى المعتمد وقومه أثر من الصدق ونفحة من الحق وهو :

ومن الغريب غروب شمس فى الثرى
وضـياؤها باق على الآفاق

المراجع

(ا) المراجع القديمة :

١ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى .
(تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد)

٢ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان .
(تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد)

٣ ـ المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى .
(ضبط وتصحيح الأستاذين محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى)

٤ ـ البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن غدارى المراكشى .

٥ ـ قلائد العقيان للفتح بن خاقان .
(طبع مطبعة التقدم العلمية سنة ١٣٢٠ هجرية)

٦ ـ المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية .

٧ ـ الذخيرة لابن بسام .

٨ ـ صفة جزيرة الأندلس المنتخبة من كتاب الروض المعطار فى أخبار الأقطار للحميرى .

٩ ـ الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية .

١٠ـ مذكرات الأمير عبد الله الزيرى المسماة بكتاب « التبيان » .

١١ـ الكامل لابن الأثير .

١٢ـ مطمح الأنفس للفتح بن خاقان . (طبع مطبعة السعادة) .

١٣ـ ديوان المعتمد بن عباد ملك اشبيلية جمعه وحققه الأستاذان أحمد أحمد بدوى وحامد عبد المجيد .

١٤ـ تاريخ بنى عباد (Historia Abbadidarum) .

(ب) المراجع الحديثة :

١ ـ تراجم اسلامية شرقية وأندلسية . للأستاذ عبد الله عنان

٢ ـ الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأموية .
للأستاذ عبد الله عنان

٣ ـ تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحـــدين الجزء الأول ليوسف أشباخ وترجمة الأستاذ عبد الله عنان .

٤ ـ الجغرافية التاريخية الاسلامية للأستاذ محمد أحمد حسونة .

٥ ـ ملوك الطوائف ونظرات فى تاريخ الاسلام ترجمة الأستاذ كامل كيلانى .
٦ ـ قيام دولة المرابطين للدكتور حسن أحمد محمود .
٧ ـ بلاى وميلاد أشتريش وقيام حركة المقاومة النصرانية فى شمال اسبانيا للدكتور حسين مؤنس .
٨ ـ شاعر ملك (قصة المعتمد بن عباد الأندلسى) . للأستاذ على الجارم
٩ ـ ابن عمار للأستاذ ثروت أباظة .
١٠ـ الأدب الأندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة . للدكتور أحمد هيكل
١١ـ المعتمد بن عباد . للدكتور عبد الوهاب عزام
١٢ـ المجمل فى تاريخ الأندلس . للأستاذ عبد الحميد العبادى
١٣ـ منصور الأندلس . لعلى أدهم
١٤ـ تاريخ أوربا فى العصور الوسطى لفيشر وترجمة الأستاذين محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى .
١٥ـ قصة الحضارة لول ديورانت وترجمة الأستاذ محمد بدران .
١٦ـ تاريخ العالم (نشرة بالانجليزية السير جون ا.ا.هامرتين وتشرف على ترجمته ادارة الثقافة وظهر منه حتى اليوم أربعة مجلدات) .
١٧ـ تاريخ الفكر الأندلسى تأليف آنخل حينثالث پالنثيا وترجمة الدكتور حسين مؤنس .
١٨ـ تراث الاسلام الجزء الأول والثانى .
١٩ـ دائرة معارف الشعب .

(جـ) مراجع باللغة الانجليزية :

(1) Spanish Islam. By Reinhart Dozy.
(Translated by Francis Griffin Stokes.
(2) The Moorish Empire in Spain. By Scott.
(3) The Moors in Spain. By S. Lane Poole.
(4) The Civilization of Spain. By J. B. Trend.
(5) The History of Spain and Portugal.
By William C. Atkinson.
(6) History of Civilization in England.
By Henry Thomas Buckle.

فهرس

أعلام العرب

مكتبة الثقافة الحية التى تساهم فى اشتراكية الثقافة بقروش زهيدة — تصدر شهرية عن ادارة الثقافة بوزارة الثقافة والارشاد القومى — للتعريف بنوابغ المفكرين من أعلام العرب ...

وتطلب من :

١ ــ مكتبة مصر ... ... ٣ شارع كامل صدقى

٢ ــ مكاتب شركة توزيع الأخبار ... ... بالقطر المصرى

٣ ــ وكلاء الشركة القومية ... ... فى جميع البلاد العربية

٤ ــ مكتبة المثنى ... ... ببغداد

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقى "الفجالة"

أعلام العرب

الكتاب القادم

جابر بن حيّان

بقلم:

الدكتور زكي نجيب محمود